اتحاف أهل الزمان

باخبار ملوك تونس وعهد الأمان

المجلّد الثاني

الجزء الرابع

• المشير احمد باشا باي

- الاكثار من الجند
- انشاء للمدرسة الحربية بباردو
- تأسيس «المكتبة الأحمدية»
- ترتيب التدريس بجامع الزيتونة
- عتق المماليك
- الرحلة الى فرنسا
- الاعانة الحربية للدولة العثمانية

• المشير محمد باشا باي

- تنظيم المحاكم الشرعية
- منشور الفلاحة
- قانون عهد الأمان
- التنقيص من العسكر

الباب السادس

في دولة

الباشا المشير أبي العباس أحمد باي

ابن الباشا مصطفى باي ابن الباشا محمود باي بن محمد ابن حسين باي بن علي

مولد هذا الباي في الحادي والعشرين من رمضان سنة 1221 ، احدى وعشرين ومائتين وألف (الثلاثاء 2 ديسمبر 1806) . وأمه جارية من سبي سنبيرة (1) ، جاءت صغيرة مع أمها وأختها ، وتربّت بدار جدّته لابيه المتقدم ذكرها .

واعتنى أبوه بتربيته وتهذيبه على ما يقتضيه حال الوقت يومئذ . فقرأ القرآن على الشيخ الصالح الفقيه الخطيب أبي العبّاس أحمد السنّان . وتعلم اللغة التركية نطقا وشيئا من الكتابة ، وتعلّم لغة ايطاليا نطقا فقط (2) . ولازم الشيخ الفقيه الاديب ابا عبد الله محمد الحكيم سيالة (3) . وخالط غيره من الناس .

وكان في عنفوان شبابه يتزيّا في عمامته بزيّ الترك ، والمهابة مع ذلك لا تفارقه في سائر أحواله ، وتخلق بها من صغره .

وأبو تربيته الوزير الناصح الخيّر أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع لا يفارقه .

وكان في سياسة تربيته يجالسه مجالسة الاصحاب ، وفي خلال ذلك يفيده ويخبره بحالات أوائله وما نشأ عنها ، ويحادثه بمحامد الاخلاق ومذامّها ، الى غير ذلك مما يلقيه أهلُ الكمال الى الفطرة السليمة ، حتّى تخلّق بذلك .

بويع ضحى يوم الثلاثاء عاشر شهر الله رجب سنة 1253 ، ثلاث وخمسين (الثلاثاء 10 اكتوبر 1837) ، اثر وفاة أبيه . وأول من بايعه ابن عمه وولي عهده وآل بيته ، ثم الوزير الكبير أبو الربيع سليمان كاهية ، ثم الوزير مصطفى صاحب الطابع ، ثم بقية الخواصّ والحاضرين .

ومن الغد بويع البيعة العامّة على العادة .

---

(1) هى جزيرة St. Prietro فى الجنوب الغربى من سردانيا .

(2) كذا فى ع و ق ، وفى خ : « وتعلم اللغة التركية والطليانية » .

(3) انظر ترجمته فى عنوان الاريب ج 2 : 76 .

وافتتح أمرَه بأن قال لخاصة رجال دولته : « قد ظهر لكم تقديمي على عادة بلادنا ، ومنزلتكم عندي هي منزلتكم عند أبي وعمّي وأسلافي . ولا معنى للدولة الا الرجال ، فاذا لم تكونوا معي كما كنتم مع مَن قبلي ، فلا ملك ولا دولة » .

وأقرَّ الناسَ على مراتبهم وأعمالهم . وتيمّن بقدوم عالم العصر وبركة المصر الشيخ أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، رابعَ أيام ولايته ، بعد حجّه نيابةً عن والده . واهتزَّ لِمَقْدَمه ، وبكى لمّا رآه ، وقال له : « كان أبي يتمنّى أن يراك قبل وفاته » . وولاه جزيل الحُظْوة والمَبَرَّة .

ولما شمّر عن ساعد المباشرة ، قال للوزير أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع : « ان هذا الامر يَشْغَلُني عن مباشرة أحوال إخوتي ، وهم صغار ، وأنت بمنزلة أبينا . وقد سلّمت لهم في (1) نصيبي من إرْث والدي ، فاقْسِمْه بينهم على ما تراه من مصالح أُلْفَتِهم وصلاحِ بَيْنِهم ، وباشِرْ نظرهم حتى يَبْلُغوا الاشُدَّ ، وأختهم الكبرى القائمة مقام أمّهم في عصمتك » . وقد فعل فوق الظن ، وكان من الوفاء بالمكان الذي لا يُجهَل .

واقبلت وفود البلدان ونواجع (2) العربان للبيعة فأفعم بهم سيل (3) الحاضرة .

ووجّه أبا النخبة مصطفى البلهوان باش حانبة الى الدولة العلية العثمانية لطلب الفرَمان والعناية السلطانية ، وكاتَبَها باللسان التركي . ووجّه عرض محضر في الرضى بولايته على العادة .

وجمع المجلس الشرعي على العادة زمنا يسيرا .

واعتضد بابن عمّه واستكفى به في سفر المحالّ لتهنئة (4) الوطن وأمْنِ السبل واستيفاء الجباية .

واستكفى في الوزارة بمربّيه زعيم الدولة ابي النخبة مصطفى صاحب الطابع . واصطفى لسرّه وبث نجواه والاحتفاظ بمال الدولة ابنَ تربيته الوزير أبا النخبة مصطفى خزنه دار ، وكان عنده بهذه الرتبة قبل تقدُّمه للملك . واستكفى في امور العسكر وما

---

(1) سلم له في : تنازل له عن .
(2) النواجع : القبائل الرحل .
(3) في خ : « سيل » وفي ع : « سيول » وقد سقطت من ق .
(4) التهنئة : التهدئة ، التأمين .

يتعلق بهم بصاحبه ومعاصره الوزير أبي النخبة مصطفى آغة ، وثلاثتهم أصهاره على أخواته [لابيه] . واستدنى الوزير أبا عبد الله محمد [ابن الوزير أبي عبد الله محمد] الاصرم رئيس الكتبة ، وقرّبه نجيًّا ، وفتح أذنه لتدبيره ، واستعان برأيه في سائر أمور الدولة ، وكان بيده قلم جبايتها وحساب عمّالها . واعتمد أبا عبد الله محمد بن حميدة ابن عيّاد ، وقرّب ابنه محمودا (1) .

وفي آخر شهر ولايته وصل الخبر بأخذ الفرنسيس لقسنطينة وهروب صاحبها احمد باي ، وأتى من عسكره جمع من الترك اثبتهم في جند تونس ، وجعل منهم حوانب ، وأحسن قِراهم وآنس وحشتهم ، تأليفا لقلوب مَن بالبلاد من الترك .

*

وفي الشهر كاتب السلطنة الشريفة بالمغرب ، على سَنَن آله من محبة آل البيت ، من انشاء العبد الفقير ، ونصّه : « المقام الذي نتسلّى عن المفقود بوجوده ، ونتأسّى بالاشراف آبائه وجدوده ، مقام الملك المطاع ، الساري ذكره في البقاع ، المنعقد على فضله الإجماع ، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع ، فريدة الاصداف ، وسرُّ آل المصطفى الاشراف ، والمحيط بالمعالي إحاطة [جبل] (2) قاف ، مخدوم الاقلام والاسياف ، ومحيي مآثر الاسلاف ، ومن حبّه دِين وإنصاف . وبماذا ينطق اللسان ويعرب ، عن محاسن مقام والدنا مولانا عبد الرحمان ، سلطان المغرب .

الامر جلَل ، والشمس تكبُر عن الحُلَل . أيّده الله بنصر يسهّل الصِّعاب ويُدنيها ، وعزٍّ يشيد معالم الفخر ويبنيها ، وسعد يَهصِر أفنان الاماني ويَجنيها ، تنال به الملّة الحنيفية أقصى أمانيها ، ويكون غُرَّة في وجه الدنيا وبنيها .

اما بعد سلام تَهبُّ بساحتكم نواسمه ، وتفترُّ عن ثَغْر الوِداد مباسمه ، كلّما سطعت في غياهب الشدة أنوار الفرَج ، وهبّت نواسم الالطاف عاطرة الارَج ، فالمنهي الى حضرتكم الشريفة ، ولكم طول العمر ودوام الامر ، أن والدنا سيدي مصطفى باشا باي صار الى عفو الله عاشرَ هذا الشهر المحرَّم (3) ، وأي سلك لا يتصرم .

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من غ ، مثبت في ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) يعني رجب ، أول الاشهر الحرم .

فياله من مصاب نبّه عيوننا من سِنَة غرورها ، وذكّر نفوسنا بمهمّ أمورها ، ضاقت به الصدور عن زَفَراتها ، والعيون عن عَبَراتها ، وبيّن أن شَراب الامال سَراب ، وكلُّ الذي فوق التراب تراب .

فانّا لله وإنا اليه راجعون . قبلنا القَضا ، بالتسليم والرِضا ، ولو قَبِل داعي الموت الفِدا ، أجابته أرواحنا قبل الندا . نسأله سبحانه الصبر ، والاجر والجبر ، وان يتقبّله بالغفران ، ويسكنه فسيحَ الجِنان .

فلقد كان للمستجير أجيرا (1) ، وللمظلوم وليًّا ونصيرا ، وللشريعة حارسا وظهيرا . يسّر بذلك لسفره زادا ، ووطّأ ما استطاع بالنصح للمؤمنين مِهادا ، وطوّق أهلَ الإيالة عدلا وإمدادا ، حتى فتّت فراقُه قلوبا وأكبادا ، وألقَوا إلينا حين انتقاله قِيادا ، وتسارعوا الى الدخول في طاعتنا جموعا وأفرادا ، وأجمعوا على بَيْعتنا وأصْفَقُوا ، والى جمع العِصابة تسابقوا ، وبدا ما في قلوبهم من محبّتنا التي بها خُلِقوا وتخلّقوا .

ولم يَسْلُ القلب عن المفقود ، بانقياد الوطن والوفود ، والعساكر والجنود ، وقيامِنا مقام الآباء والجدود ، وبروز المقدر للوجود . إلا أننا فعلنا ما وجب علينا في هذا القطر من جمع كلمة الاسلام ، والله يَحرُسها على الدوام . وشرعنا باعانة الله في مصالح رعيّتنا ، على حسب قدرتنا ، واعتضدنا باخوتنا ، وخواصِّ أسْرَتنا ، وبَرَرْنا الوالدَ بجمع كلمة جماعتنا ، وبَرَّهُ جَمِيعُهم بطاعتنا .

والمبادرةُ لإعلامكم فرض أكيد ، وقصد حميد ، إذ الوِداد بيننا تألّق نوره ، وثبت في صحف الخلوص مسطورُه ، وصفت من الشوائب بحوره . كيف وهو بالإرث والاكتساب ، يتجدد بتجدُّد الاحقاب ، وحبّكم آلَ البيت فرض ، على أهل الارض ، نسأله سبحانه ان يجعله حبّا باقيا ، وسعيا الى درجة القبول راقيا ، وحصنا من المكاره واقيا ، وان يمدُّنا ببركة سلفكم الطاهر الحميد ، بالإعانة والتأييد .

والسلام من مُعظّم قدركم العالي احمد باشا باي وفّقه الله .

وكُتب في رجب سنة 1253 » .

---

(1) كذا في خ و ع و ق ، ولعل المراد : مجيرا .

فاجاب الشريف [بما] نصّه : من عبد الله تعالى المتوكل عليه المعتصم بالله أمير المؤمنين ابن امير المؤمنين الشريف العلوي الحسني (1) أيّده الله ونصره . إلى المقام الذي تتضاءل بوجوده الأرزاء ، وتحصل بسلامة كماله الكفاية والإجزاء ، وتؤذن بتهنئته الرؤساء ، وان أصابها بفقد والده البأساء ، وتعم بطلعته البشرى حال التأساء ، مقام محلّ ولدنا الشاب الانجب الارشد ، وبيت القصيد الذي يُحفظ ويُنشد ، من قلّدته الرئاسةُ عِقدَها ، وأعطته السياسة عهدها ، طالع الامن ، ومُقرّ قواعد البركة واليُمن ، صاحب الإوصاف الزكية والنهج الاحمد ، الباشا الاجل السيد أحمد ، ابقاك الله محيِيا للمراسم ، متنسما من رياح النصر أعطر النواسم ، مشيدا لدعائم الدين ، مقتديا بالايمّة المهتدين ، وسلام أعطر من النسيم ، وأحلى من التسنيم ، ورحمات من الله وبركات ، تعمُّ السكنات والحركات .

أما بعد حمد الله على كل حال ، والصلاة والسلام على النبي والآل ، فقد وصلنا كتابكم بخبر الحادث الذي روّع السرْب ، والخَطْب الذي كدّر الشّرْب ، وهو خبر وفاة والدكم المبرور ، صاحب السعي المشكور ، والثناء الطيّب المذكور ، والفضل المشهود المشهور . فانا لله وإنا اليه راجعون ، تقبّلا لسنن الشريعة ، وتوجّعا للرزيّة الفظيعة . فياله من فقيد شكت فَقْدَه العلياء ، وبكته الخاصة والدهماء ، ورَد الحوض الذي لا بدّ من وروده .

ولو أن حيّا خالدٌ لجلاله   لهُنّئتَ من بين الورى بخلوده

ولكن الله سبحانه وتعالى تدارك مُصَابَه بولايتك ، ونسخ آيته بإحكام آيتك ، فنظم لك شمل الامة ، وجلا بك عن هذا (2) القطر الخطوبَ المدلهمّة ، وأطلع فجرك في ظلمائه، وأكمل بدرك في سمائه ، فانشرحت بذلك الصدور ، وهشّت لطلعتك (3) الاعيان والصدور . فهنأ الله مقامكم بهذه الصنيعة العظيمة ، والموهبة الجسيمة ، وأجزل ثوابكم في عظم ذلك المصاب ، وجعله تَتِمّة الفجائع وخاتمة الاوصاب ، وأعقبه بتأييد يُدني القاصي ، وتمكين يرشد العاصي ، ونصر يُنزل العُصْمَ من الصّيَاصي ، ويقود

(1) فى ع : « الحسنى » ، وفى خ و ق : « الحسينى » .
(2) فى خ : « هذا » ، وفى ع و ق : « ذلك » .
(3) فى خ : « لطلعته » ، وفى ع و ق : « لطلعتك » .

اليكم كل جبّار بالنّواصي ، فانه وإن عظم المصاب الحادث ، والخطب الكارث ، فالبشرى المقترنة به على الاسف تقضي ، والنفوس توكّل بالادنى وان جَلّ ما يمضي ، مع أنه لم يمت مَن مثلك وارث خلاله ، ولم يمض مَن أنت سبيل جلاله .

ولقد أخذنا من التوجع للرزيّة ، والابتهاج بما خُوِّلْتُم من الهبة السنيّة ، ما يأخذ حبيب من مساهمة الاحباب ، ويقاسم فيما يعرض العوارض والاسباب ، اذ المحبة بين الدولتين صحيحة المتون عالية الإسناد ، والمودة (1) بيت الإيالتين مرفوعة الاحاديث عن الآباء والاجداد ، قد تفتح في رياض الدول زهر كِمَامه ، وفاح بين الانام مسك ختامه .

والله يحرس مجدكم ، ويعينكم على ما قلّدكم ، ويعرّفكم من نصره أضعاف ما عوّدكم ، بمنّه وفضله وبأعلاه ختمه الشريف .

⁂

وفي شعبان من السنة (نوفمبر 1837 م.) شرع الباي في بناء قصره الحافل الانيق المشرف بباردو ، وحث العملة على السرعة في إتمامه [وكان يأتيهم كل يوم] (2) .

وفي رمضان السنة 1253 (ديسمبر 1837 م) قدّم الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد الخضّار مفتيا ، وقد كان قاضيا بالمحلة ، وقدم عوضه الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد ابن سلامة .

وفي السنة وقع بينه وبين قنصل الفرنسيس كلام في نَهْد ، وذلك ان هذه القبيلة من اهل جبل باجة تنقسم الى فخذين ، فخذ من توابع الجزائر وفخذ من توابع تونس وهم نهد ، ومنزلتهم قرب برج القالة ، فظهر لعامل (3) الفرنسيس به ضمّهم والاستيلاء عليهم وعلى أرضهم لتجتمع القبيلة . وشدّد الباي في الوقوف عند حده . [وتكررت المحادثة (4) بينه وبين القنصل] (5) .

وكاتب القنصل طالبا منه إنهاء ذلك لدولته ، فأجابه القنصل بمضمون جواب دولته، وهو ان الدولة الفرنساوية تعطي لتونس أرضا عوض أرض نهد ، بعد تحقيق الحدّ بين

---

(1) كذا في ع و ق ، وفي خ : « والمحبة » .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(3) ظهر له : ارتأى ، اراد ، خطر له .
(4) كذا في ق ، وفي ع : « المجادلة » .
(5) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

الجزائر وتونس . ولمّا رآه جواب قوي لضعيف سجّل حقّه وأجاب بما نصه : « اما بعد فانه بلغنا مكتوبكم بالإذن الذي اتاكم من جناب الدولة الفرنساوية في شأن نهد ، وذكرتم ان الجزائر لما استقرّت بيد الفرنسيس رجع لهم جميع ما لها من الحقوق ، الى آخر ما ذكرتم ... تصفّحناه وعلمناه ، والجواب : ان هؤلاء نهدا لم تنلهم رعاية (1) الجزائر سابقا ، ولا وقع من دولة الترك بالجزائر كلام مع تونس في شأنهم ، مع ما كان بينهم من الحروب ، وانما هم في رعاية تونس ، وملوكها يتداولون التصرف فيهم والخلاص (2) منهم خلفا عن سلف ، كما عرفناكم بذلك سابقا . وحدود عمالتنا هي التي نتصرف فيها كما وجدنا مَن قبلنا ، لم نتجاوزها . واما تجديد التحديد أو إ بدال بعض العمالة بجزء من غيرها ، فمعلوم اننا نتوقف فيه على المشورة من جهة الدولة العثمانية .

وان كان لنا التصرف العام في الإيالة بما يقتضيه اجتهادنا من المصلحة . اما التنقيص منها او إ بدال بعضها فلا يحسن منّا بغير إعلام مولانا السلطان ، وتقرير ما ينشأ لنا من المضرات بسبب ذلك لجنابه العلي . ولا زائد الا الخير والعافية . وكتب في 8 ذي الحجة (3) الحرام سنة 1253 (الاثنين 5 مارس 1838 م.) .

وفي العشرين (4) من صفر سنة 1254 ، اربع وخمسين ، (الاثنين 14 ماي 1838 م.) قدم مصطفى البلهوان [باش حانبه من اسلامبول] (5) وقدم معه من الاعيان ريالة (6) باي واسمه عثمان في فرقاطة عثمانية . وأتى بنيشان وسيف مرصّع وعشرة مدافع برية بخزائنها(7) وجميع لوازمها ، عدا الخيل . واحتفل الباي لتلقّيه احتفالا لم يُعهَد مثله في تونس .

وذلك انه أوقف سائر الفرسان من أوجاق الصبايحية والحوانب وسائر المزارقية وفرسان العروش الذين قدموا للبيعة ، من باب حلق الوادي إلى باب الخضراء ، كل واحد على فرسه [بسلاحه] وثياب زينته . وأركب لتلقّيه وزيرَه ابا النخبة مصطفى آغة ، في اعيان

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ولاية الجزائر » .
(2) الخلاص : استخلاص الجباية .
(3) كذا في خ و ع ، و في ق : « في 8 ذى القعدة » .
(4) اى في 19 صفر (حسب التقويم) .
(5) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(6) كذا في خ ، وفي ع و ق : « اريالة » ، ولفظ ريالة في الاصطلاح العسكرى العثمانى معناه نائب أمير البحر .
(7) الخزائن : صناديق البارود .

من الخواص . ولبس الباي النيشان والسيف يوم الاحد السادس والعشرين (1) من الشهر ، في موكب حافل برجال الدولة والعلماء والداي واعيان العسكر ، على العادة . وبالغ في إكرام الرسول عثمان ريالة باي على قدر مقامه . ثم أدّى الرسول المذكور رسالته في طلب الدولة مقدارا معينا من المال في كل سنة ، وبالغ في تقليل كميته مع تحذير . فأجابه الباي بعدم الامكان لوجوه ، منها ان الذين تعرضوا لك في الطريق لكل واحد منهم مرتب على قدر الانتفاع به ، وقوام المملكة بهم . ومنها ان المملكة في نفسها فقيرة ، لقلة وجود مواد الثروة من الصناعات والتجارات وامثالهما ، حتى انها تحتاج إلى الاستعانة بفضل مولانا السلطان ، لا سيما وقد ترتب فيها العسكر النظامي المقتضي وجوده زيادةَ الإنفاق في مسكنهم وقُوتِهم وملبسهمَ وسلاحهم على مقتضى الترتيب . ومنها ان عربان المملكة ، وهم السواد الاعظم ، يرونها جِزية ، والاسلام يحجبهم عنها ، وتأنف نفوسهم من إخراج مال من بلادهم لغيرها على وجه حتمي ، ويرضون بالهدية وان كانت فوق المطلب بكثير . ولا يمكن غصبهم الا بحرب مجهول العاقبة . والمملكة لا تريد خرق عادة ورثها الخلف عن السلف ، وعلى اساسها بُنيت الطاعة ، وانتظم بها سلك الجماعة ، الى غير ذلك من الاعذار .

ثم رجع الرسول معظما مكرما ، ويوم الوداع أعاد المطلب للباي وقال انه أمر لا بد من وقوعه ، فتغافل عنه وأحاله على الجواب الاول .

وفي الحادي والعشرين من ربيع الاول (الخميس 14 جوان 1838 م.) (2) توفي العلامة القاضي شيخنا [ابو عبد الله محمد] (3) البحري بن عبد الستار ، وتولى خطة القضاء الفقيه الحافظ الشيخ محمد السنوسي الكافي ، وتولى القضاء بباردو عوضه الشيخ الفقيه ابو عبد الله محمد بن سلامة ، وتولى القضاء بالمحلة الفقيه ابو العباس احمد بن الطاهر .

⁂

ولم يزل الباي يفكر في أمر مطلب الدولة من المال . ثم جمع رجال دولته وتكلم معهم في هذا الشأن وقال : « لا أكون سببا في خرق عادة المملكة ولو أدّى ذلك الى

(1) هو 25 حسب التقويم .
(2) في ع و ق اغفل اسم الشهر ، وفي هامش ق ما نصه : « مصروف على تجهيزه في ربيع الثاني سنة 1254 ريالات 1045 كذا بدفتر الدولة » .
(3) الزيادة عن ع و ق .

زوالي » ، فوافقه جمعهم ، حتى قال بعضهم : « إن غَصَبَتنا الدولة العلية بقوتها على هذا الامر ، فلنا ان ندافع عن انفسنا وأموالنا بما نستطيع من وجوه المدافعة » .

وأشار عليه الوزير الفاضل ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع بأن المكافحة (1) بالعصيان ابتداء لا تحسن ، والاَوْلى ان نقدم معذرة بعدم الإمكان ، وانه تكليف بمستحيل ، وان يكون ذلك بواسطة شيخ العصر وبركة المصر ابي اسحاق الشيخ ابراهيم الرياحي ، فاستصوب الجماعة رأيه .

وبعث الى الشيخ وقصّ عليه الخبر ، فارتمض (2) لذلك وقال : « اني حاضر للسفر متى أمرتني » ، فأحضر له كرويطة ، وعيّن معه للسفر الكاتبَ الفقيه ابا الثناء محمود بوخريص .

وسافر يوم السبت ثامن (3) ربيع الثاني من السنة 1254 (30 جوان 1838 م.) ، وأصحبه بمكاتيب باللغة العربية ، وهو أول من كاتب الدولة العلية باللسان العربي ، متعللا بأنه لا يضع ختمه الا على ما يفهم خصائص تراكيبه ، [بعد ان قرئت المكاتيب على الشيخ بين يديه واستحسنها] (4) ، ونصُّ المكتوب بقلم العبد الفقير :

« اللهم بالثناء عليك ، نتقرب إليك ، يا فاتح ابواب القبول والإقبال ، ومانِحَ المِنَح التي لا تمرُّ شواردها على البال ، تنزّهتَ في العظمة والجلال ، ولم تُولِ عِبَادَكَ الإهمال، بمحض الرحمة والافضال ، فأقمت لهم خليفة تُعرض عليه الاحوال ، ويَدفع عنهم باعانتك الاخلال ، ويسوسهم لصلاحهم في الحال والمآل ، صلِّ على سيدنا محمد خاتم الارسال ، والملجأ المنيع عند اشتداد الأَزْمَة والاهوال ، وعلى آله واصحابه الذين وَرِثوه في الاقوال والاعمال ، وسرت مكارمهم مَسْرَى الامثال ، ونستوهب منك عزًّا لا يُبلَغ حدُّه ، ونصرا يمضي في الاعداء حدُّه ، لهذه الدولة العلية ، والسلطنة العثمانية ، والمملكة الخاقانية ، التي رفعت من الملّة الحنيفية أركانا ، وشيّدت من معالمها بنيانا ، وأقامت للحق قِسْطاسا وميزانا ، ورَوت احاديث العناية الربانية صحاحا حسانا ، ووَرِث ملوكُها الارض وهم الصالحون سلطانا يتبع سلطانا ، حتى استنار الوجود ، بخليفة الوقت

(1) المكافحة : المواجهة ، المجابهة .

(2) ارتمض : اشتد عليه الامر واقلقه .

(3) هو 7 حسب التقويم .

(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

الموجود ، وهو مولانا السلطان الاعظم محمود . اللهم أعِنّا على ما أوجبت له من فروض الطاعة ، وتأدية الحق بجهد الاستطاعة ، واحفظنا بعدله ورفقه من الإضاعة ، واجعل الملك فيه وفي عقبه الى قيام الساعة ، وعطّف قلبه لسماع هذه الضراعة ، من ايالة تونس ومَن بها من الجماعة ، على لسان احمد المقيم على طاعته فيها ، والمجتني من ثمرتها ما يلزمها ويكفيها ، وطاعة خلافتك فرض ، على أهل الارض ، وهي عند الله أنمى فرض ، فاذا لم يُعرَض الحال لديك فعَلَى مَن العرْض ؟

تونس موضع شعائر الإسلام ، غريبةٌ ببُعدها عن استمطار أياديك الجسام ، ومساحةُ معمورِها مسير نحو الستة أيام ، شأن أهلها التمعّش (1) من الزيت والبُرِّ ، والصوف والوبَر ، يعانون في تحصيلها ألَمَ الحرِّ والقرِّ ، هذا غالب ما يَسُدُّ لهم الخَلّة ، ويوجد غيرُها لكن على قلّة ، ومقدار زكاة ذلك لا محالة ، بحسب اتّساع العمالة ، فما يَفضُل من خِصبْها فهو للقَحْط عُدّة ، وبذلك دام عمرانها لهذه المُدّة ، لا فضل من ذلك لِترَف ، ولو في سبيل شرف . هذا معظم دخل القُطر ، ان جاد السحاب بالقَطر ، ويلزمه ضرورةً لحفظ عمرانه ، وحماية أوطانه ، وتأمين سكّانه ، وإصلاح مراسيه وبلدانه ، حُماة وأجناد ، في كل جهة وبلاد ، لتأمين الجبال والوهاد ، وردع أهل الفساد . ويلزم العساكر الكسوة والإطعام ، والمرتّب على الدوام ، ولا بدّ لهذا العَدَد ، من آلات وعُدَد ، وقِوَام هذا بالمال ، وهو السبب في عرض الحال ، فان الدخل على قدر الإنفاق ، وذلك بشهادة الله غاية ما يطاق ، واذا كلّفنا الرعيّة المشاقّ ، ونزعنا الرفق والإشفاق ، كان ذلك ذريعة للنفاق (2) ، وسُلّما للشقاق ، وربّما هرعوا للدولة شيوخا وولْدانا ، وكهولا وشبّانا ، يسوقهم العجز ويقودهم الامل ، الى من في طاعته النيات منّا والعمل ، فالسلطان ظل الله في أرضه يأوي اليه كل مظلوم ، وهذا من الواضح المعلوم ، وعبدكم حسبه تأمين البلاد ، وحفظها من طوارق الفساد ، بمن معه من الحماة والاجناد ، سَهَرُنا لإنامة أجفانها ، وتَعَبُنا لإراحة شيوخها وولدانها ، واقتحامُنا المخاوفَ لامانها . وما تنتجه غلاّتها ، تُسَدُّ به خلاّتها ، وعلى هذه السيّرة وُلاتُها ، لا يقتنون لانفسهم مالا ، ولو بسطوا لذلك آمالا ، إلاّ ما يقتضيه الحال من العادات المألوفة ، والمراسم المعروفة ، يصدّهم عن ذلك عدمُ اليَسار ، لا زهد الابرار ، والله المطلّع على الاسرار .

(1) تمعش : عاش ، من المعاش او المعيشة .
(2) النفاق : العصيان ، التمرد ، الثورة .

وبما بسطنا من الكلام ، في حال هؤلاء الإسلام (1) ، يظهر للقائم بمصالح الانام ، أن لا قدرة لهذه الإيالة على أداء المال في كل عام .

هذه ضَرَاعة رعيّتك ، المستمسكين بطاعتك ، المستجيرين بحمايتك ، المرتَجين لعنايتك وإعانتك ، قمتُ بتبليغها بين يدي سلطنتك الخاقانية ، وهمّتك العثمانية ، وتبليغُها من الواجب في حقّي ، وهو ثمرة طاعتي وصدقي .

والمأمول من تلك الهمّة ، النظر لهذا القُطر بعين الرحمة ، وهذا المال في خزائن الدولة لا يزيد ، وثقله على هذا القطر شديد .

فارحم أيها المولى ضراعتنا ، ولا تفرّق بما لا نطيق جماعتنا ، فالامر جلل ، وما قررناه بعضٌ من الاسباب والعلل ، وقد فكّرنا وأعيتنا الحِيل ، فلم نجد إجابة المطلب الا بتنقيص (2) عمل ، يفضي الى نقص وخلل ، او تثقيل يقطع من الرعية الامل ، ويضعف بسبب ذلك هذا العمران ، وتشتد الحاجة الى الاستمداد من كرم مولانا السلطان ، والله يجيرنا من حوادث الازمان . هذه وسيلة مَن بعدت داره ، ولم يكن بيده اختياره ، على لسان مملكة تونس ، مع قدوتها المونس ، صالح مصرها ، وإمام عصرها (3) ، شيخ الجماعة ومفتيها ، الذي دانت له البلاد ببنيها ، ونالت به الملّة أقصى أمانيها ، الساري ذكر تآليفه في النواحي ، السيد ابراهيم الرياحي ، وجّهتْه حالتُنا وانتظرتْ ، ومن سحائب رحمتك استمطرت .

اللهم أنت أعلم بنا منّا ، فلا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا ، وارزقنا الرحمة من سلطاننا ، وألهِمْه لإعانة أوطاننا ، انك على كل شيء قدير .

وكُتِب أواخرَ اشرف الربيعين ، سنة 1254 » .

وكتب أيضا في هذا الغرض الى شيخ الاسلام ، ونص المكتوب من إنشاء العبد الفقير :

« أدام الله وجود شيخ الاسلام ، هدًى للانام ، ولا أطيل بالثناء عليه ، فالذي ملا الكون يكفيه . اما بعد تقديم التحيّة ، المناسبة لتلك الرتبة العلية ، فان العلماء ورثة

---

(1) الاسلام : المسلمون .

(2) في خ : « بتنقيص » ، وفي ع و ق : « بترك »

(3) كذا في خ و ق ، وفي ع : « مصرنا ... عصرنا » .

الانبيا ، وهم الملجأ لاهل الدنيا ، يرحمون بشفاعتهم يوم العرض ، أحْرَى في هـذه الارض . وهذا قطر تونس موضع الرِّباط والجهاد ، ومقرٌّ العساكـر والاجناد ، مساحة أرضه قصيرة ، وأعين من ناوأه بصيرة ، وعمرانه بالفـلاَحة ، على ضيق الساحة ، هذا معظم عُمْرانـه ، في غالب أوطـانه ، وما يحصـل من ذلك بيد وَاليـه لا يقـوم بالمـراد ، لـولا الاقتصاد ، والوقوف بالمِرْصاد ، والله يعلم ان ذلك جُهْد سكـّانه ، ولـو زِدنا شيئـا يَنْقُص بمقداره من عُمْرانه . وقد وقع من الدولة العلية أدام الله علينا ظلّها ، وبسط فضلها ، طَلَبُ قَدْر معيّن من المال في كـلّ سَنة ، فارتاع أهلها لسماع ذلك وطارت من أعينهم السِّنة ، اذ هو تـكـليف بما لا يُطاق ، وذريعة لتفرُّقهم في الآفاق ، يخرجون من أوطانهم ، ابتغاءَ معيشة أهلهم ولِدْانهم . أما إذا أصرّوا على الامتناع ، ومَدّوا يَدَ الدِفاع ، وقالوا : مَن أراد أن يطاع فيأمر بما يُستطاع ، فقد ذاع السرّ وانـكـشف القناع ، وربّما يجدون من الشريعة تأويلا يعتمدونه ، وللمال من الحُرْمة ما يقتضي أن ربّه يموت دُونَه ، وان دفعنا هذا القدر مما يؤخذ منهم في كـلّ عام ، فهو المؤذن لهذه الإيالة بالانصرام ، اذ الحُماة والكـُفاة ، لا بدّ لهم من الاقوات والمرتّبات ، والسلاح والآلات ، وغير ذلك من الضروريات . وقد ذكـرنا الحال لمقامكم العلمـي على سبيل الإجمال ، والرسول يوضحه بالمقال ، وهو الشيخ العَلَم ، ورُكـْن المالـكـية المُستَلَم ، رأس الفتوى ، وركن العلم الاقوى ، صالح عصرنا ، وإمام مصرنا ، السيد ابراهيم الرياحي . وجّهناه الى الدولة العلية بعرض حالنا ، وتقرير أعمالنا ، ورجونا بلوغَ آمالنا ، والدولة العليّة ترحم الضراعة ، وتَرِقّ لهذه الجماعة . وأنت عَلَم الهُدى ، وركـن الاقتدا ، وعلى يد العلمـاء تطلب الرحمـة ، وتدفـع بعلـومهم الخطـوب المدلهمّة ، والدين النصيحـة لله ورسوله وأيمـّة المسلمين وعامتهم . وجنابكم من أهل الذّكْر ، وهذه نعمة يجب لها الشكر .

وقد وجّهنا الرسولَ إلى بابـكم ، وطلبنا الإعانةَ بالحق من جنابـكم ، والله يجعـل مساعيـكم ناجحة ، ويرينا نتيجة مقدمات أعمالـكم الصالحة ، ويبقيـكم للدين عُـدّة ، ويفسح لـكم في المُدّة ، ويرحم بأقوالـكم الشرعية هذه الإيالة ، بحرمة مَن خُتـِمت به الرسالة . حُرِّر في أواخر أشرف الربيعين ، سنة 1254 » .

فأنت ترى هذا الباي كـيف قرر حال البلاد ، وكـانت يومئذ كما قال ، وإن غفل عن تقريره لِمَا حمّلها من مصاريف العسكـر ما أوهن قواها ، كـما تراه ان شاء الله في بقية اخباره . ومن كـرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته .

ولما وصل الشيخ الى اسلامبول أحسنت الدولة قِراه واكرمت مثواه ، على عادتها في اكرام الضيف لا سيما اذا كان من أهل العلم . وقابل السلطانَ ، ولما رآه قرأ فاتحة الكتاب وتلا قوله تعالى : « يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ » الآية (I) وأنشد قصيدته المشهورة :

العزُّ بالله للسلطان محمودِ ابنِ السلاطينِ محمودٍ فمحمودِ
خليفةِ الله ما أعلاه من شبه بالصالحين وبالنبي داوود
من آل عثمان سادات الملوك ومَن جاؤوا كعقد من الياقوت منضودِ
هم السلاطينُ ما ذرَّت ولا غربت شمس على مثلهم في نصر توحيد
وجاء سلطاننا المحمودُ بَعْدَهُمُ بكل رأي من الآراء مسعود
لم يُعطِه الله مُلْكا في خليقته الا لمعنًى من الأَغْيَار مفقود
دانت لدولته الاعناق خاضعة من كل ذي والد منهم ومولود
تخشى السلاطين مِن بُعْد بَوَادِرَه لما له من جلال غيرِ مجحود
وكلُّ باشا وإن جلّت مكانته فليس غيرَ فتى في الرقِّ مصفود
يا عزَّ دين الهدى ان يخش مَنْقَصَة بكلِّ قَرْم من الإسلام صِنْديد
وقوة من لدن ربٍّ العلا بهرت برا وبحرا بنظم غير معهود
العُجْم تَشْهَدُها والعُرْب تعلمها شرقا وغربا من البيضَان والسّود
أنت المؤمَّل في كلِّ المهمِّ فمن أتى لبابك قصدا غيرُ مطرود
وقد أتيتك من أقصى البلاد وفي ظنّي الجميلِ بلوغي منك مقصودي
دامت معاليك للاسلام مَرْحَمَة وللطُّغاة عذابا غيرَ مردود
بحرمة المصطفى أهدى الإله له أزكى تحيته من غير تحديد
تعمُّ أتباعه في الدين قاطبة والخلفاءَ إلى السلطان محمود

ولما اجتمع بالوزير الصدر الاعظم رشيد باشا انشده :

الصدرُ الأَعْظم مَقْصِد المتوسّل وهو المؤمَّل في القضاء المُنْزَل
ولذاك من أقصى البلاد أتيتُه لأَفوز منه بِبُرْء داءٍ مُعْضِل

(I) س 38/آ 26 .

يا ملجأ الصلحاء والعلماء والوزرا ومن في الناس ذو قدر علي

فبما حباك الله من خلق سرى كالراح في الارواح لا في المفصل

وحباك من خلق كأن الشمس في شرف تسرى في وجهك المتهلل

إشفع لنا فيما دهى ترشيش من إلزامها غرم الخراج المثقل

الفقر يمنعها وما تخشاه من شر الحوادث في الزمان المقبل

أرجو لك البشرى بنيل شفاعة تأتيك من عند الرسول الافضل

دامت علاك لمن أحبك جنة بنعيمها قلب الحواسد يصطلي

ومدح السلطان ايضا بقصيدة طويلة مطلعها :

ركبت متون اللج وهي لها وجف وارواحها بالسابحات لها عصف

ولي منه أهوال يود رهينها ، وقدخشي الإغلاق(1)، لوجاءه الحتف

ولكنني ما زلت أمزج مرها بحلو رجاء طاب منه لي الرشف

ومنها :

نعم يا أمير المؤمنين وكهفهم اذا مسهم ضر فمنك له كشف

أتيتك ضيفا مستغيثا وشأنكم إغاثة لهفان وأن يكرم الضيف

توالى علينا الضعف من كل جانب وما زال ذاك الضعف يتبعه ضعف

فجئناك نبغي العفو واللطف والرضى وهل من سواك العفو يطلب واللطف

فعيشة من ترضى عليه هنيئة وكيف لعيش دون عفوك أن يصفو

رضاك رضى المولى لانك ظله وللظل من أوصاف صاحبه وصف

أدام لنا المولى إضاءة شمسه وليس لها يوما غروب ولا كسف

وقال الشيخ يمدح القسطنطينية :

بلد الخلافة في الجمال فريدة ولشأنه عرض مداه بعيد

من ظن يحسن وصفه فكأنما نحو الصعود الى السماء يريد

(1) غلق الرهن (على وزن حسب) في يد المرتهن : استحقه المرتهن ، وذلك اذا لم يفتك في الوقت المشروط (اللسان) .

وامتزج الشيخ بعالم المشرق وفخر الايمة ابي العباس احمد عارف باي ، ووقعت بينهما مراسلات بالشعر والنثر ، وعرف كلٌّ منهما ما لصاحبه ، فاستجاز الشيخَ وأجازه نظما منه :

واذا سمعتَ علومَه فاسمع الى	تلك البحور طمت فهل من غارف
قسما بما يحويه من حسب ومن	نسب وفضل لاحق أو سالف
لو أبصر النعمان بهجة سَمْتِه	لاهتزَّ عطفا كاهتزاز العاطف
هذا ومن عجب رأيت سؤاله	مني إجازتَه كشيخ عارف
كلاًّ وانـي والذي رفع العلا	أحرى بأن أرْوِي عليه صحائفي
لكنّني لا استطيع خلافَه	وعليه فيما شاء لست بحائف
فأقول إني قد أجزت له الذي	قد صحَّ لي من تالد أو طارف
موصًّى لابراهيم منه بدعوة	يرجو الرياحي بها أمانَ الخائف

ورجع الشيخ اواسط رجب من السنة 1254 (اوائل اكتوبر 1838 م.) ، بالغا من سفارته شيئا (1) من الامل ، وهو ان الدولة لا تلحُّ في الطلب ، ويتوقّف الحال لوقت آخر ، واذا افضى هذا المال لضرر فلا حاجة به .

وفي ليلة الثلاثاء الخامس عشر (2) من رمضان السَّنة (3 ديسمبر 1838 م.) ، توفي الوزير الشهير الطيّب الذكر ابوالربيع سليمان كاهية ، ودفن بموكب عظيم في صحن التربة الحسينية .

⁂

واقبل الباي ، بعد قدوم ريالة باي ، في جمع العسكر وترتيبه وتدريبه ، وصرَف كل عنايته لذلك ، حتى جمع جموعا لم تنتظم لغيره من ملوك تونس ، وإن أجحفت بدخل المملكة وخرجها [وهي فقيرة كما شهد بذلك في مكاتيبه للدولة المتقدم ذكرها ، وكما شهد عالمها ومفتيها وإمامها ، وصالحها في شعره المتقدم ذكره] ، حتى لزمه إحداث ضرائب ومكوس تغافل فيها عن الملتزمين . وهذا أثّر نقصانا كثيرا في ثروة

(1) في ق و ع : « غالب الامل » .

(2) يوم الاثنين 16 حسب التقويم .

المملكة وعمرانها [الناقص] (1) ، مع غَلَث (2) السكّة المتقدم ذكره في ايام عمّه أبي عبد الله حسين باي رحمه الله .

ولم يزل حريصا على إتْمام قصره البديع بباردو ، وتمّ في أسرع وقت . وسكنه يوم الاحد الرابع عشر (3) من شوال السنة 1254 (30 ديسمبر 1838 م.) . واقترح ان يكون اولَ داخل له هو الفاضل الفقيه ابو عبد الله محمد بن عبد الكبير الشريف إمام الجامع الاعظم ، تيمنا بنسبته العلوية ، لما له من التشيّع الحبّي في آل البيت . ثم دخله اهل المجلس الشرعي ، ثم دخل الباي إثْرهم وعظّم مَقْدَمَهم وأحسن مؤانستهم ، وخرجوا داعين مسرورين .

وجعل الباي في هذا القصر قشلة داخِلَه عمّرها بألف من العسكر النظامي لحراسته الخاصّة ، على التناوب من سائر العسكر ، وداخَلَهم مداخلة التحام للعصبة .

*

وفي أيامه تقوّى المتجر [في الزيت] بالساحل ، وأكثره للواردين على المملكة من التجار ، فكثرت لديه الشكايات [من أهل الساحل] وأضجره ذلك وأهمّه . وسبب ذلك حيف العُمّال ، لانهم يريدون انتزاع ما بأيدي الرعايا لاسباب تنوعوا في اختراعها ، وهم مدينون لغرمائهم من الواردين على المملكة ، بل كثيرهم مستغرق الذمّة لهم . وانفتح من يومئذ بابُ الاحتماء . واذا جاز للمسلم ان يقاتل الصائلَ على ماله ، مع ما في الشريعة من حرمة النفس ، فالاحتماء بالواردين من باب أحرى ، وان كانوا من غير اهل الملّة . فلزمه ، والحالة هذه ، انتخابُ ثقة أمين . فاختار لولاية سوسة الحازم الكيّس الذكيّ (4) أبا عبد الله مَحمد خزنه دار ، وقال : «حاجتي إليه بين يديّ قوية ، وأقوى منها كفاية هذا المهمّ مع الواردين» ، فزان خطته [وعمل فيها بالعقل لا بالشهوة] (5)

(1) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) فى ع و ق : «بغلث» .

(3) هو 13 حسب التقويم .

(4) فى خ : «الذكى» وفى ع و ق : «الكامل» .

(5) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

وبطلت الشكايات حتى كان يقول : « مالي لم أسمع ذكر سوسة ؟ » ، وسار في الرعية سيرة عدل ، وآثر الحق ، ودانت الاجانب لاحكامه عليهم ، حتى كان البـاي يسمّيه في مغيبه « قاضي سوسة » .

وفي السنة 1254 ، أمره بجمع المجلس الشرعي عنده يوما في الاسبوع ، على عادتها السابقة.

*

وفي السنة 1254 ، أبطل الترتيب المعتاد للملوك الحضرة ليلة العيد ، وقد كانوا يحتفلون ببيت الباشا من باردو ، وتقف الاعيان [والمخازنية] سماطين ، ويدخل المغنّون من الترك بآلات طربهم ، ويجلسون أمامه ، ويغنّون برطانة الترك برهة ، تودّدا للجند ، وبعدهم يدخل المغنون بالعربية بآلات الموسيقى برهة من الزمن ايضا ، والشموع تنوّر ودخان الطيب يعطّر الارجاء ، وقد ذكر هذا الترتيبَ الوزيرُ ابو محمد حمّودة بن عبد العزيز في تاريخه [عند ذكر ما لمخدومه من التراتيب] (1) ، فأنف ، لسمو همّته ، من ملك يجمع رجال دولته لسماع الغناء على رؤوس الاشهاد ، في ليلة موسم شرعي ، وإمامه في الصلاة حذوه ، فأبدل ذلك بما هو المناسب ، وهو أنه لما يجتمع الديوان ، يأتي الامام بجامع الصرايا ، والخطيب بجامع باردو ، والخوجات ، فيجلسون ، ويقرأ باش خوجه ربع حزب من القرآن ، كقوله تعالى : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن » ، اذا كان عيد فطر ، وكقوله تعالى : « وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا » ، اذا كان عيد اضحى . ثم يقرأ الإمام أحاديث من صحيح البخاري في فضل الصوم او فضل الحج . ثم يختم المجلس بدعاء أمرني بانشائه ، وهو :

« يا حيٌّ يا قيوم ، يا مَن لا تأخذه سنة ولا نوم ، علّقت على كرمك جزاءَ الصوم ، ولا يشغلك شأن يوم عن يوم . نسألك بتقدس ذاتك ، وتنزيه صفاتك ، وباهر آياتك ، وعلمك المحيط بسائر مخلوقاتك ، أن تصلي وتسلّم على مركز دائرة الاكوان ، وتاج هامَة أولي العزم والشأن ، سيدنا ومولانا محمد الذي أيّدته بمعجزة القرآن في رمضان ، وعلى آله وأصحابه السادة الاعيان ، الباذلين في محبتك (2) الارواح والابدان . اللهم بباب

(1) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « في محبته » .

كرمك أنـخْنا رحالنـا ، وبواسع فضلـك علّقنـا آمـالنّا ، متوسّلين برسولك الكـريم ، القائل : توسّلوا بجاهـي فان جاهـي عند الله عظيم ، ان تملا قلوبنا إيمانا ، وخشية وعرفانا ، وارزقنا منك المغفرة والرضى ، واللطف في القدر والقضا .

اللهم امدُدْ هذه الدولة ، بالدوام والصولة ، ببقاء ناشر فخرها ، ورافع قدرها ، ومخلّد ذكـرها ، وكـفُـئها المليـيّ بـمَـهْرها ، ملـكـنا وسيدنا أحمد ، لا زالت مآثره في السماء والارض تُحمَد .

اللهم ارزقه النصر والاسعاد ، وأعنه على القيـام بمصالح العبـاد ، وعمران البـلاد ، والاستعداد لسدّ ابواب الفتن والفساد ، وحـكّـم سيفه في أهل البغـي والعناد ، وبلّغه من الخير غاية المراد ، حتى يـكـون أحمدَ حامدٍ وأحمدَ محمود ، ما دام هذا الوجود .

اللهم أعنّا على ما أوجبت له من فروض الطاعة ، واجعل الملك فيه وفي عـقـبه إلى قيام الساعة ، يا مَن يجيب الدعاء ويقبل الضراعة .

اللهم احفظ من الزيـغ اعتقادنا ، واحرس بحفظك بلادنا ، وأصلح أهلنا وأولادنا ، وانصر حماتنا وأجنادنا ، ووفّر في الإيمان أعدادنا ، واحفظ جموعنا وآحادنا ، واكـفـنـا حسّادنا وأضدادنا ، وزيّن بطاعتك مواسمنا وأعيادنا .

اللهم لا تجعل في جمعنا هذا شقيّا ولا محروما ، ولا مذموما ولا ملوما .

اللهم أصلح المؤمنين ، وبلّغ الحجاج والمسافرين ، ونفّس كـرب المكـروبين ، واختم لنا ولجميـع المسلمين ، بما ختمت به لاوليائك المتّقين . سبحان ربك ربّ العزة عمّا يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » . وعند تمـام الدعاء تُقـرَأ فاتحة الـكـتاب وينفضّ الموكـب .

واستمرّ هذا الترتيب بهذه السُّنّة الحسنة إلى يومنا هذا .

☘

وفي الثالث والعشرين من محرم ، فاتح شهور سنة 1255 ، خمس وخمسين ومائتين والف (الاثنين 8 افريل 1839 م.) ، بعث الباي وزيره وابن تربيته أبا النخبة مصطفى خزنه دار ، ومعه المقرب جوزاب راف ، وفرحات قرجي وكـان يومئذ قائمقام بعسكـر الخيّالة ،

والكاتب أبا محمد حمودة الطرابلسي ، إلى السلطنة الفرنساوية ، وصاحبها يومئذ السلطان لويز فليب ، لمخالفة وقعت مع القنصل بتونس في نوازل . وكتب الباي لوزيره مكتوب تفويض صريح بالتزامه جميع ما يفعله الوزير ، وكان اذ ذاك في عنفوان شبابه . وعارضه الوزير ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، والوزير ابو عبد الله محمد الاصرم رئيس الكتاب ، بأنّ حالة الشباب لا تقتضي مثل هذا التفويض المطلق ، وأجابهما الباى بأن الفطرة السليمة تسطو على غليان الشباب .

ووصل الى فرانسا فقابلته السلطنة بما يناسب فخامتها .

وفي مغيبه مرض الباي بالحمّى واشتد مرضه وخيف عليه ، وهو مع ذلك يخرج كل يوم من فراشه [الى بيت الباشا] (1) بتكلف للقاء الناس ، والوزير مصطفى صاحب الطابع يباشر الامور عن إذنه .

ولما عوفي أتاه وفد التهنئة من الحاضرة ، ولما دخلوا عليه مستبشرين حامدين شاكرين ، حيّاهم وأحسن لقياهم وقال لهم : « وأنا أشكر الله الذي أحياني لخدمتكم » ، فاستعظموا هذا المقال ، اذ لم يكن مألوفا من ملوك الإطلاق لرعاياهم ، لان غالب رعايا المسلمين يومئذ لا يعرفون من ملوكهم الا الاستعباد .

ولما دخل قصره أعَدتُ عليه مقالته وذكرت له ان الناس استعظموها ، وشمّ مني رائحة الإنكار فقال لي : « هل انا الا وكيل عنهم في مصلحتهم ؟ والوكيل في الحقيقة خديم الموكِّل ، وما يمنعني أن أقولها ويراها الناس فضلاً ؟ » ، وقد لاح له من طبع الزمان ما سهّل عليه مقالَها .

ثم رجع الوزير من فرانسا ، بعد أن سرّح نظره في حواضر أروبا ، فوجد الباي بحلق الوادي إثر إبلاله من المرض ، وتمّ برؤه برؤية وزيره ومقام ابنه ، مع قضاء بعض الوطر .

وبعد أيام أتى الوزير بمكتوب التفويض للباي بمحضر الجماعة وطلب منه أن يمزّقه ، ففعل .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

وفي هذه السنة ، 1255 (1839/40 م.) ، جعل الباي عسكر الخيّالة ، وهو في غُنْية عنه ، وأسكنهم البرج الكبير بمنّوبة ، وقال : « لْأَنْ يكون رباطَ عسكر أحسنُ من بقائه قصر نزهة ، وهو يسع العسكر وضبّاطهم وخيولهم » .

وصورة جمعه لهذا العسكر أنه أذن بتسريط (1) الفرسان على العادة ، وقعد المقعد الخاص لذلك ، فانتخب حال مرورهم عليه جمعا من حوانب الترك ومماليك السقيفة وصبايحية الترك ، ولم يأخذ أحدا من حوانب العرب ولا من الصبايحية ، لانهم جند مستقلٌ من الفرسان ، بل هم فرسان المملكة على الحقيقة ، يكابدون الاسفار ، ويقتحمون المخاوف والاوعار . ورَسَمَ جميع من انتخبه في ديوان الخيّالة ، على الترتيب النظامي ، وأمّر عليهم مملوكَه ابا العباس أحمد ، أخا وزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، وكان فارسا مقداما . ووجّه لهم شطر عنايته ، ويركب لتفقد قشلتهم غالب الايّام . وأبطل ديوان صبايحية الترك من يومئذ . وزاد في هذه القشلة أبنيّةَ بعد ذلك ، على يد أبي محمد خير الدين لمّا صار أمير لواء .

وفي ذي الحجة من السنة 1255 (فيفري 1840 م.) ، تمّت قشلة الطبجية بالمحل المعروف بالقنديل من الفدّان خارجَ الحاضرة [وهي من الامور المحتاج اليها اذ غالب الدفاع بالمدافع في هذا العصر] (2) ، وجاءت كأحسن ما أنت راءٍ ، ودخلها العسكر يوم الجمعة ثالث الشهر (7 فيفري) .

وأصلها قصر نزهة لعمٍّ أبيه ابي الفداء اسماعيل باي ، فزاد فيها الى ان صيّرها تَسَعُ آلايَيْن (3) من الطبجية بمدافعهم وخزائنهم وخيولهم . وجعل بها دار صناعة لإنشاء السلاح وضروريات المدافع ، وأحكم بها خزنة للمهمّات ولوازم الحرب . وجميع عسكرها من الطبجية السابقين والقادرين على الخدمة النظامية من جند الترك وغيرهم . وأمّر على الطبجية ابا اسحاق ابراهيم التركي ، من كبراء عسكر الساحل ، وكان يثق به ويستخلصه ويستنجبه ، وصدقت فراستُه فيه . ووجّه العناية لهذه القشلة ولم ينس غيرها . ولم يزل حسن ترتيب الطبجية يزداد إلى ان بلغ به المراد .

(1) التسريط : مرور الجند امام القائد ، عرض الجيش (بوسيه) .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « تسع اربعة آلاف » .

وفي هذه السنة 1255 ، أحدث الباي لزمة الصابون الطريّ بحيث [لا تصنعه و] (1) لا تبيعه الا الدولة ، وبنى لذلك مصنعا . ورتّب على الصابون اليابس الذي يخرج من المملكة أداءً على القنطار ، يسمّى « القنطرية » ، يدفعه صانعه ، واذا خرج يؤدّي مشتريه السراح .

وأحدث أيضا لزمة الصاع ، وهو ان بائع الزيت بغير الحاضرة يؤدي صاعا على كل مطر (2) ، اما بيعه بالحاضرة فله قانون مخصوص في فندق الزيت ، لا يقبل الزيادة .

وزاد أيضا في سعر الملح ، الذي لا تبيعه الا الدولة ، زيادةً بالغة .

ورتّب المحصولات في بلدان الإيالة مثل المرتّب بباب البحر [من الحاضرة ، والتزم ذلك ناس] وحَجَّرَ بيعَ الدخان [بالحاضرة وبلدانها واسواق عربانها] (3) بحيث لا تبيعه الـ لدولة ولا يشتريه غيرها من أهل زراعته ، وسعّر أنواعه في الشراء من الفلاّحة كما سعّر بيعه .

وأول من التزمه [في المملكة] ابو عبد الله محمد بن عيّاد وربح فيه [ربحا ذريعا] وأهدى من الربح مركبا بخاريا للدولة ، وهو اول فابور ملكته الدولة ، وسمّاه الباي « ابن زياد » . وانكسر في شعبان من سنة 1257 ، سبع وخمسين ومائتين وألف (سبتمبر — اكتوبر 1841 م.) على ساحل المعمورة [من بلدان الوطن القبلي] (4) عند رجوعه من مالطة ، بعد ان قاسى من عُباب البحر أهوالاً .

واضطره مصرف العسكر الى هذه الضرائب [المنوعة] التي أثرت نقصا على نقص من عمران المملكة ، [وان كان لا يخلو المرء من عدوٍّ يقدح وودود يمدح] (5) .

*

وفي السنة 1255 بلغ للحضرة وفاة السلطان محمود خان في التاسع عشر من ربيع الثاني (الثلاثاء 2 جويلية 1839 م.) ، وولاية ابنه السلطان عبد المجيد خان [صاحب

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) مطر : مكيال للزيت يتراوح بين 18 و 28 كيلو ، ويختلف باختلاف الجهات (بوسبه) .

(3) الزيادة عن ق و ع فى كامل الفقرة .

(4) الزيادة عن ق و ع فى كامل الفقرة .

(5) الزيادة عن ق و ع فى كامل الفقرة .

التنظيمات الخيرية ، فكتب الباي أوامره لبلدان المملكة يعلمهم بذلك لتدعو الخطباء على المنابر للسلطان عبد المجيد] (1) ، وعيّن مركبا حربيا لتعزية السلطان وتهنئته ، وكاتَبه بقلم العبد الفقير بما نصّه :

« لك الحمد ونحن على المصيبة صابرون ، انا لله وانا اليه راجعون ، نحمدك وأنت المبدىء المعيد ، مقلّد الامانة من جيد الى جيد ، ومعرّف عوارف اليمن الجديد ، بخليفتك عبد المجيد ، ومظهر العناية بالاسلام للقريب والبعيد ، ربطت عوائد النصر والتأييد ، بمبادىء التوفيق والتسديد ، لاولي المزية التي اقتضتها ارادة المريد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ناظم الخلال السنية نَظْمَ الفريد ، والملجأ الاعظم في الخطب الشديد ، مظهر أنوار التوحيد ، والهادي الى صراط العزيز الحميد ، وعلى آله وأصحابه أولي القصد السديد ، السادة القادة الصيِّد ، القائمين في أمّته بحفظ ما أنزل عليه من الوعد والوعيد ، والرضى عن الخلفاء أولي الظل المديد ، من الخليفة أبي بكر الى السلطان عبد المجيد .

هذا وانه ورد الى الإيالة التونسية ، من الابواب العلية ، التي تعنو لعزة قدرها الابواب ، وتعزى الى عدلها الحكمة والصواب ، لا زالت محلّ صدور المآثر العظام ، مأمونة من اختلال النظام ، إعلامٌ بخطب روّع السِّرْب ، وكدّر الشِّرْب ، وهو انتقال مولانا السلطان محمود الى دار البقاء ، وإقباله على معارج الارتقاء ، ألحقه الله بالخلفاء الراشدين ، وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين . فيالَه من إعلام ، اهتزت له رواسخ الاعلام ، أشرق المحاجرَ بماء دموعها ، وأضرم الجوانح بنار وَلُوعها ، نَعَى الى المجد إنسانَ عينه وعينَ إنسانه ، وإلى الاسلام سلطانَ محموده ومحمودِ سلطانه ، شأن الدنيا أن لا تَفْتُر عن سهمٍ تسدّده لغرض ، وجوهر ترميه بعرض . ولو كان داعي الرَّدَى ، مما يقبل الفدا ، كانت نفوسنا بعض فدائه ، والمبادرة تَسْبِق أوّلَ ندائه ، لكنّه حكم لا يعترض فصله ، ولا يُؤَوَّل مستنده ولا أصله ، لم يغن فيه الدفاع ، ولم ينفع فيه غير الاسترجاع ، بالرضى تلقّيناه ، وبالصبر قبلناه ، والدنيا ليست بدار قرار ، وما عند الله خير للأبرار ، فرزيّة المسلمين به واحدة ، وظواهرهم على بواطنهم شاهدة .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

غير ان هذا الإعلام الذي فجع ، ومنع القلوب أن تقرّ والعيون أن تهجع ، غمرته البشرى ، وغلبته المسرّة الكبرى ، وهي ان المجيد سبحانه قلّد السلطنة لعبده ، والسلطان محمود خلفه ابنه وولي عهده ، فأصبح الاسلام بعزٍّ وتأييد ، وأمل جديد . هذه نعمة أبدلت العزاء بالهناء ، وفتحت ابواب المُنَى ، وأي تَرَح ، يبقى بعد هذا الفرح ؟ قام بالامر مَن اختاره الله لحمله ، وبقي النور الساطع في محله ، ولم ينتقل سرٌّ الله من أهله ، إذ الآمال ببقاء آل عثمان منوطة ، وسعادة الاسلام بسلطنتهم مشروطة ، وفي هذا الموجود ، ما يزيد بفضل الله على المفقود ، ولذلك اهتزّت بولايته الارض وربَتْ ، وبشكر الله أعربت .

وهذه المملكة التونسية ، منبت طاعة السلطنة العثمانية ، أخذت من العزاء والهناء النصيب الاوفر ، والحظ الاكبر ، على عادة طاعتها ، ومنتهى طاقة جماعتها ، واهتزّت منابرها بشكر الله الحميد ، على إقبال دولة السلطان عبد المجيد ، قام بتبليغ ذلك للباب العالي ، ومصدر المعالي ، عَبْدُ الدولة والمتقرب الى الله بطاعتها ، وخادمها في مصالح تونس وحفظ جماعتها ، أحمد باشا باي .

والباب العالي زاده الله علوًّا ، وإجلالاً وسموًّا ، يقبل بضاعتنا على قدر مقامها ، اذ لا نقدر على أداء ما يجب للدولة من إعظامها ، واذا عظم المَقام الكبير ، وتسامى عن التقدير ، تساوى فيه الجمّ واليسير ، والتافه والخطير .

فحسبنا الدعاء بالنصر وطول الدوام ، وهو في الحقيقة لسائر الاسلام .

اللهم أعنّا على ما أوجبت لسلطاننا من فروض الطاعة ، واحفظنا بعدله من أسباب الإضاعة ، وأدِم السلطنةَ في سلسلته (1) الى قيام الساعة ، واحرس بشوكته السُّنّة والجماعة ، بحرمة سيد الاتقياء ، وخاتم الانبياء ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، في البدء والختام .

حرر في تونس سادس جمادى الثانية من سنة 1255 ، خمس وخمسين ومائتين وألف (السبت 17 اوت 1839 م.) .

وأتى من السلطنة الجواب الحسن ، بتقرير العادة على أحسن سَنَن .

(1) كذا فى خ و ع ، وفى ق : « فى عقبه » .

وليلة الاربعاء الحادي والعشرين (1) من أولى الجمادين من السنة 1255 ، توفي اكـبر الايمة بالجامع الاعظم جامع الزيتونة ، العالم الفاضل ابو عبد الله محمد بن عبد الكـبير الشريف ، وتزاحمت الافاضل على شهود جنازته وحمل جسده الشريف . وأوْلىَ الباي عوضه إمامَ العصر ، وصدرَ أفاضل هذا المصر ، شيخَنا ابا اسحاق ابراهيم الرياحي . والإمام الثاني يومئذ هو الشريف الفاضل المنصف ابو الثناء محمود محسن ، فلم يستنكـف من تقديم الشيـخ عليه ، بل عدّه من الانصاف . ولم يلبث ان عرف كـلٌّ منهما ما لصاحبه من الفضل ، وقدّمه على نفسه ، والفضل يعرفه ذووه .

وفي [غرة] (2) شعبان من السنة 1255 (الخميس 10 اكـتوبر 1839 م.) ، عقد الباي شروطا مع دولة البلجيك ، وقبل قنصلـَها باجلال واحترام ، كما ينبغـي لامثاله .

وفي غرة رمضان السنة 1255 (الجمعة 8 نوفمبر 1839 م.) ، توفي الفقيه العالم ابـو عبد الله محمد السنوسـي الكـافي القاضـي ، وقدّم الباي عوضه الفقيه النحرير العالم ابـا عبد الله محمد بن سلامة .

*

ولم تزل عنايته مصروفة للمهمّات والاجناد ، وتقوية روابط الالتحام والوداد ، بين الجموع والآحـاد ، من أهل البـلاد . ولذلك جعـل مرتّبا للفقهـاء المالـكية مع العسكـر النظامـي مثل مرتب الفقهاء الحنفية مع جند الترك .

وأصل هذا المرتب للحنفية اذ جند الترك مشروط على جميعهم انه اذا وُلـد لاحدهم ذكـَر يأتـي لتقييـد اسمـه بدفتر الجنـد ، ويرُسـم فيه بفلس ، واذا مات أبوه يـرسـم بفلسين ، حتى يبلغ الحلم فيرسم باربعة نواصر (3) . ويباشر الخدمة من السفر في المحالّ ، والنوبة وهـي حراسة الحصون في بلدان المملـكـة ، وغير ذلك ، مترقيا في سلم الخدمة الى نهاية المرتب . ومن لم يفعل ذلك مسّه العقاب ، ليـكـون جند الترك مختلطا بالمولودين في

---

(1) ذكر فى التراجم ان الوفاة كانت فى 27 جمادى الاولى دون اسم اليوم ، وذكر هنا اليوم وهو (الثلاثاء) ليلة الاربعاء ، وذكر أنها توافق 21 من الشهر ، وجمعا للمعلومتين يمكن القول ان وفاة هذا الامام كانت ليلة الاربعاء 27 جمادى الاولى 1255 حسب الرؤية ، و26 منه حسب التقويم .

(2) الـزيـادة من ع و ق .

(3) كـان الفلس فى تونس نقـدا نحـاسيا قيمته نصف ناصرى ، أو سدس الخروبـة ، أو جـزءا من تقسيم الـريـال الى 104 ، والـريـال ستون صانتيما (الفريـد نيكولا) . والنـاصرى اربعة منـه تساوى 7 صنتيمـات (دوزى) .

المملكة . وربما تُثبت الدولة في ديوان الجند من كان خاملا من أهل البلاد ، بدعوى أن أباه او جدّه كان تركيا . بخلاف جند الجزائر ، فان ابناءهم من عامة البلاد ولو كان أبوه دايا ، إذ لم يكن فيها بيت ملك ، كما تقدّم ، لان ذلك ينافي تلقّف الامر بينهم . وأولاد الجند التونسي المحسوبون في ديوان الجند تنجم فيهم العلماء المحتاج إليهم في الخطط العلمية كالقضاء [بالمذهب الحنفي] ، والفتوى والإمامة والتدريس والتوثيق ، وتشحّ الملوك بطرحهم من ديوان الجند ، فتجدهم في ابتداء أمرهم يعطون بدلاً في السفر بمال ينتفع به القادر على المشقّة ، فاذا تأهل لِخُطّة يكتبون له تسريحا من الخدمة بحيث لا يلزمه العوض ، ويُبقُون له مرتبه الجندي . وتوالت على ذلك الازمنة ، وظن بعض الناس ان ذلك عناية بعلماء المذهب الحنفي الذي هو مذهب الامراء بعد انقراض الدولة الحفصية [ويشهد له ظاهر الحال] (1) وربما تأثرت نفوس المالكية من ذلك ، وهم السواد الاعظم في المملكة ، ولا نسبة بينهم وبين الحنفية في العدد .

وفي العشرين من ذي الحِجّة في السنة 1255 (الاحد 24 فيفري 1840 م.) ، أمر بجمع أهل المجلس الشرعي من المالكية والحنفية أمام محراب جامع الزيتونة بين الظّهرين، وأرسلني إليهم بمكتوبه الذي مضمونه انه جعل لعلماء المالكية مرتبا مع الجند النظامي مثل مرتّب الفقهاء الحنفية مع جند الترك ، دفعا لما عسى ان يتوهم من الحيف في عدم التسوية ، « وكلّهم من رسول الله مُلْتَمِس » .

وقرأ المكتوب على المشائخ أمام المحراب شيخُنا صدر المالكية ابو اسحاق ابراهيم الرياحي ، ولم يَحضُرني لفظه .

ولما حصلت هذه التسوية المجبول عليها الطبع البشري ، وقعت في المملكة الموقع الحسن ، وعلّقت في أعناق بنيها المِنَن ، وأظهرت ما في نفس مَلِكهم من حبّ الوطن ، وللناس ما ظهر ولله ما بطن ، حتى اهتزّ لذلك طود العِلْم وموضع التقوى الشيخ ابو اسحاق ابراهيم الرياحي ، وكاتب الباي بما نصّه :

جبرتَ باحسان لمذهب مالك قلوبا كواها الكَسْرُ يا خير مالك
وما جبرها نيلُ الحطام وإنما بتنوير ليلٍ من دجى الحيف حالك

---

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من غ ، مثبت في ع و ق .

تداركت تفريطا من الناس غفلةً ... وكم لك من رأي عزيز المدارك
فسوّيت ما بين الافاضل رتبة ... فهم من بساط العدل فوق أرائك
أتيتَ بمقياس عزيز تباشرت ... بفرحته الارواح من كل ناسك
يمينا لو النعمان قُرِّر عنده ... لَقَرَّ بِه عينا ، ولست بآفك
جرى لَبَنٌ من ثدي أحمد فارتوى ... به حنفيٌّ في الإخاء ومالكي
بما أودع الرحمانُ فيه وما يُرى ... لسيدنا الباشا به من مشارك
أدام لنا المولى سعادة جدّه ... بوجه وجيه باسم الثّغر ضاحك
وأيامه يُروَى صحيحُ حديثها ... عن العِزّ عن نصر له متدارك

وقال العالم الاديب القاضي ابو عبد الله محمد بن سلامة :

نظمتَ القومَ في سلك انتظام ... فثَغْر المالكية في ابتسام
وأعززتَ الجماعة بانتساب ... وليس العِزُّ في كسب الحُطام
فسوّيتَ الورى في عدل قَسْم ... نسختَ بصُبحه حَيْفَ الظّلام
محال أن يظن الناس هذا ... وكاد يكون من نوع الحرام
ولولا الله ارشد منك قلبا ... لما لاقته حتى في المنام
ولكن الإله أراد خيرا ... فأرشدك السبيل إلى القَوَام
فألّفتَ القلوب به جميعا ... وآخيتَ البريّة بالتمام
فأنت اليوم أعدلُ مَن رأينا ... بك المبدا وخاتمة الختام

⁂

وفي غرة محرم من سنة 1256 ، ست وخمسين (الخميس 5 مارس 1840 م.) ، رتّب الباي مكتبا حربيا بباردو ، وجعله في صرايته التي انتقل منها الى قصره الجديد ، لتعليم ما يلزم العسكر النظامي من العلوم كالهندسة والمساحة والحساب وغيرها ، ولتعليم اللغة الفرنساوية ، لان أكثر كتبها مدونة بهذه اللغة . ورئيسه العالم الماهر الامير آلاي كالي قارس (1) ، من أعيان إيطاليا . وجعل به معلّما للقرآن ومدرسا لعلوم العربية وما يلزم ديانةً .

(1) مستشرق ايطالى درس العربية فى الشام ، وعمل بالعسكرية التركية ثم بالبلاد الحسينى بتونس من عهد حسين باى الثانى ، وضع كتابا عن سيرة نابليون ، وترجمه الى العربية تلميذه الجنرال حسين بمراجعة الشيخ محمود قبادو .

وأول مدرس به العالم الشريف الاديب البليغ ابو الثناء محمود قابادو (1) ، بحيث يخرج التلميذ عالما بما يلزمه ضرورةً في غير العلوم العسكرية ، متضلعا باللغة الفرنساوية وبما يلزم العسكر من العلوم العقلية .

واعتنى بهذا المكتب وكان يزوره ومعه خواصّه ، وتُسأل التلاميذ بحضرته ، ويثني على النجيب منهم ، ويمنّيه بما يؤول اليه حاله ، ويرغّبهم في اكتساب المعارف التي هي آلة التقدم الحقيقي ، وينفّرهم من معرّة الجهل .

وجلب إليه المراهقين فمن دونهم ، ونجبت فيه تلاميذ خرجوا يوزباشية . ومنهم من تقدّم الى الرتب السنيّة كأبي عبد الله حسين وهو الآن أمير لواء ورئيس المجلس البلدي ومستشار الوزارة ، وأبي الضياء رُسْتم وهو الآن وزير وأمير لواء ، وأبي محمد جمعة القرقني وهو الآن من أعيان عسكر البحر ، وأبي حفص [الحاج محمد بن] (2) الحاج عمر وهو الآن أحد الرؤساء بوزارة الحرب ، وغيرهم ممن حصل الانتفاع به في التنظيم العسكري وغيره .

⁂

وفي هذه السنة 1256 (1840/41 م.) ، قدّم الباي ابا عبد الله محمد بن عيّاد وكيلاً على قبول الاعشار [من قمح وشعير] (3) برابطة الطعام في الجبل الاخضر ، واليها ينسب برج الرابطة . ولاقى الناس من تطفيف الكيل ما أثّر نقصا في الزراعة حتى كادت الفلاحة ان تبطل بالمرّة ، وتغافل عنه لِمَا هو مضطرٌ له مِن قُوت العسكر وعَلَف الخيل . وآل الامر إلى أن صار القمح والشعير يُجلَب للمملكة من خارجها . ويرحم الله القائل : « التقدم للغاية تأخرٌ عنها ، والزيادة على الكفاية نُقْصان منها » .

⁂

وفي محرم السنة 1256 (مارس 1840 م.) ، ورد من الدولة العلية العثمانية فرَمان التنظيمات الخيرية المبني على أساس العدل والحرية ، وتقدم تعريبه . فجمع موكبا مشهودا بالعلماء والوزراء والداي وأعيان العساكر وغيرهم ، وقُرِئَ عليهم الفرَمان .

---

(1) رجوع الشيخ قبادو من اسلامبول كان خلال سنة 1258 ، وتاسيس المدرسة الحربية كان سنة 1256 ، وعليه فالظاهر ان العربية والعلوم الدينية لم تكن مقررة عند التأسيس .

(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(3) الزيادة عن ق و ع .

وأجاب الدولة إجمالا باللغة التركية بما محصّله : « ان هذا غرض محمود ، ولا بدّ من زمن لإبرازه الى الوجود ، لاختلاف الطباع والبقاع ، وهو أمر لا محيص عنه ولا بدّ منه » . ورجع الرسول بالوعد ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

*

وفي صفر من السنة 1256 (افريل) ، ظهر دَين على الوزير ابي عبد الله حسين خوجة ، تداينه لنفسه [وعظم بالرِّبا] ، وطلب الغرماء ذلك من الدولة أو تفليسَه وسَجْنه [كسائر المفلسين] . وكلّم الوزيرُ مصطفى صاحب الطابع الباي في التفضل بدفع الدين عنه ، فامتنع كلّ الامتناع وقال : « إن مال المملكة نصرفه في مصالحها كالعسكر وآلاته ، وكيف يسوغ لي ان نصرفه في ديونكم الناشئة عن الإسراف ؟ نعم ، ان هذا الرجل كان وزيرا لعمّي ، ومن أعيان الدولة ، فهلمّوا نفرض دَينه على خاصّة أنفسنا ، ويدفع ابن عمي الذي هو صهره ، وتدفع أنت وأمثالك ، وادفع أنا قسطا معكم » ، فأبوا ، وتغير (1) الوزير صاحب الطابع وقال : « انا ادخل السجن قبله » ، فقال له : « انا لا أسجنك ، وأمْرُ نفسك بيدك » . وآل الحال الى تفليسه وبيع كسبه وسَجْنه في محل بقصر باردو مدة طويلة حتى تحقق عُدْمه (2) ، ثم سرّحه (3) .

وفي هذه السنة وقع في وطن الاعراض شيء من بوارق عصيان ، خاف الباي سَرَيَانَه في المملكة ، لاتّحاد السبب . وذلك ان هذا الباي لما صرف عنايته الى تكثير العسكر [من غير التفات الى طاقة المملكة] (4) لزمه زيادة المصرف ضرورةً ، فرتّب مغارم على ما يباع من الطعام والبقول ونحوها ، تعرف بالمحصولات ، كما تقدّم . وقد كانت قبل ذلك بالحاضرة على إهمال ، فرتّبها وعمّمها في المملكة واسواق العربان . والتزمها ملتزمون وقع التغافل عنهم . وبقدر امتداد ايدي العُمّال ، تنقص الآمال والاعمال. ومن هؤلاء أحدُ أتباع أبي عبد الله محمد بن عيّاد ، التزم محصولات قابس . ولابن عيّاد وأبيه سالف عمل بالاعراض اقتضى امتزاجا ببعض أعيانه ، فاعتمد هذا المتولي على

---

(1) تغير : استاء ، امتعض ، تكدر .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ... مدة طويلة يتحقق العدم بأقل منها » .

(3) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(4) الزيادة عن ع و ق .

ذلك ، حتى قيل إنه يطلب « المحصول » على دفن الميت من بني آدم ، وغير ذلك من أمثاله ، والله أعلم ، فهجم عليه بعض العامّة وقتلوه باغراء من الخاصّة . ومن أمثالهم : « العامة تَبَعٌ لكل ناعق ، لا سيما فيما يلائم الطباع من الشحّ المُطاع » .

ولما بلغ الخبرُ للباي ، وتحقّق عنده أن سائر عُرْبان المملكة استحسنوا ذلك وتآمروا عليه (1) ، تلافَى الصغير قبل ان يكبر ، والقليل قبل ان يكثر ، وعنده يومئذ من العدد والعدة ما يقدر به على المراد ، فنهض بنفسه الى الاعراض يجرُّ وراءه عرموما من العسكر النظامي والطبّجية بمدافعهم ، وعسكر الخيّالة والحوانب والصبايحية من تونس وغيرها من الاوجاق .

وجرت العادة ان كل عرش من عروش العربان به عدد يسمّون المزارقية ، [ولهم مرتّب] (2) اصحاب المزراق وهو الرمح ، يسافرون مع المخازنية في البعوث لانهم في معنى الصبايحية ، فاقتضى نظره أن لا يأمرهم بالخروج معه في هذه الوجهة ، ولا يردّ مَن أتى متطوعا . واكتفى بمن في الخدمة من العسكر والمخازنية . وجهّز أسطولاً في البحر بالمهمّات والآلات والاقوات وغير ذلك مما يلزم . وترك الحاضرة لنظر ابن عمّه ، ومعه الوزير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع .

وخرج يوم الخميس رابع (3) ربيع الاول من السنة 1256 (7 ماي 1840 م.) ، ومعه أعيان الدولة ، وقاضي الحاضرة الشيخ محمد بن سلامة ، ونابه المفتي الشيخ الشاذلي ابن المؤدب في مغيبه ، والامام ابو العباس احمد البازودي . وزار مقام الامام الشاذلي [ومغارته] (4) رضي الله عنه . ولما ركب من مقامه انكسر عَلَم من علميه يعرف بالطوق ، فتغيّر لذلك وتطيّر ومضى متوكلاً على الله .

ومرّ على بلدان الوطن القبلي وبلدان الساحل وصفاقس ، يقيم لإراحة العسكر في ضواحي ما يمرّ به من المدن ، والاسطول يحاذيه في البحر . ومدبّر المحلة ابو عبد الله محمد بن عَيّاد يشاغب عُمّال البلدان ، فتوجهت تلقاء مدينه الآمال ، لانه الواسطة بين الوزير ابي النخبة مصطفى خزنه دار وبين الناس . وحرّك أهلَ سوسة للشكاية بالعامل

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ... استحسنوا ذلك ، وهو طليعة الاتفاق » .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) هو 5 حسب التقويم .

(4) الزيادة عن ع و ق .

وهو ابو عبد الله محمد خزنه دار ، فلم يتحركوا ، فأشار للباي ان يأتي منزل العامل تنويها به ، وحرّك المسجونين للصياح اذا مرّ بهم الباي ، ففعلوا ، فوقف وسأل ، فتقدم له محمد خزنه دار وبيده زمام في أسمائهم ومدة سجنهم وأسبابها [واكثرهم في الديون] (1) . وطلب منه ان يرسل لهم كاتبا يطبّق الزمام على ما في الخارج ، فقال له : « مثلك لا يُتّهَم » .

ولمّا رأى حزمه ، وجّه عنايته إلى إظهار احترامه في الناس ، وأعرض ابن عيّاد عن رأيه .

وحاسب الباي وكلاءَ أعشار الزيت ، واستخرج منهم أموالاً وان كانت لا تخلو عن شيء من الحيف إلاّ أنه لا يظهر مع مظلمة التطفيف . وجزاء سيّئة سيئة مثلها . وقد يُدفَع الشرُّ بمثله اذا أعياك غيره .

وفي مدة إقامته بصفاقس أتاه إبراهيم الجويني خليفة عامل الاعراض وأخبره بجدب الصحراء ما بين صفاقس والاعراض ، ونزوح مائها مع قِلّته ، بحيث لا يكفي العسكر وما معه من الخيول والإبل ، فأبقى العسكر النظامي والطبّجية والخيّالة بصفاقس لنظر وزيره أبي النخبة مصطفى باش آغة ، وسرّح المخازنية بمحلة لنظر أبي العبّاس أحمد آغة الى الاعراض ، ووجّه معها وطقه وأخبية خواصّه ، وركب البحر في كرويطة ومعه خاصّته والاسطول وراءه .

وأتى جرْبة فبات بها ليلة بمنزل ابن عيّاد ، وزار مشاهدها وزاوية سيدي ابراهيم الجمّني ، وتفقّد الابراج والحصون .

وركب البحر الى قابس بعد وصول الآغة أبي العبّاس أحمد ، فوجد وطقه مرفوعا والمحلّة محدقة به . ولما نزل قال له أعيان المحلّة : « ان ما بلغك من الخليفة كذب ، فان الصحراء بها أثر الخصب ، والماء كثير يكفي هذا العسكر واكثر منه ، وقد تمّت المكيدة لاهل الاعراض حيث بقي العسكر بمدافعه بعيدا منّا ، إلى غير ذلك » ، فخلا بوزيره خزنه دار واستدعاني لخيمة الوطق ، وأمرني أن أكتب للوزير أبي النخبة مصطفى باش آغة أن يكون على أهبة للقدوم الى الاعراض حين يرد عليه الإذن بذلك ، ومكتوبا آخر بالإذن أبقاه حاضرا لوقت اللزوم ، بحيث لا يزيد فيه الا التاريخ .

(1) الزيادة عن ع و ق .

وخرج للديوان بالوطق وسأل عبد الوهاب باش حانبة عن حال الطريق ، فأجابه على رؤوس الملا بكثرة الماء والكلأ ، فقال للخليفة : « لِمَ تخبرني بغير الواقع ؟ » ، فَسَكَتَ وبُهِتَ ، فأمر بقطع رأسه . ولما حُمِل لموضع القتل ، تطارح عليه وزيره ابو النخبة مصطفى خزنه دار وطلب منه العفو ، فعفا عنه من القتل وسجنه مدة وسرّحه .

ودخل بعد خروج الديوان الى الخيمة ليختم مكاتيب كنت أنتظره بها . ودعا لوزيره حيث أنقذه من سفك دم في وقت غضب . ولم يزل رحمه الله يذكرها للوزير ويعدّها من حسناته .

وفرّ رؤوس الفتنة وهم محمد بن محمود وابنه وغيرهما ، واعتصموا بجبل مطماطة .

ولما جاءت جموع الاعراض للسلام على الباي ، قَبِلَهم جمعا بعد جمع ، وقبض يده عن جمع مطماطة وأمر بسجنهم ، وقال لهم : « ها أنا أريد إخراجَ مَن هرب لجبلكم، فان تَلَكَّؤُوا (1) في الخروج فرؤوسكم تقطع قبل رؤوسهم » . ووجّه الاضه باشي حسين بوحرام في عقد من الخيل فأتَوا بهم ، فسرّح أهل مطماطة في الحين ، وأحضر هؤلاء [الذين هربوا] (2) بين يديه وقال لهم : « ان فعلكم هذا من الفساد في الارض ، لانه يؤدي إلى عصيان يؤدي الى حرب وسفك دماء » ، فَوَجَمُوا ، ولاذُوا منه بالصفح ، فأمر بقتلهم ، وكانوا خمسة ، منهم من باشر قتل لزّام المحصولات . وانحلّ عَقْدُ ما أبرموه ، وكان للشيخ سعيد الشعلي ، من رؤوس بني زيد ، أثر جميل في هذه النازلة ، وكذلك قومه .

وتغافل الباي عن بقية رؤوس الفتنة ، وسدّ سمعه عن الوشاية ، كما هو الواجب شرعا وعقلا في سياسة البشر بعد القدرة [شأن الكريم اذا غلب] . وقال [في الموطن على رؤوس الاشهاد] : « لم يثبت لديّ ذنب إلا على الذين قَتَلوا وأغْرَوا ، وعلى جميع اهل الاعراض مَلام حيث سكتوا ولم يضربوا على يد السفهاء ، مع القدرة على ذلك » . وطلب منه أعيان الاعراض ان يجعل عليهم مالا ليكون مظهرا لمرضاته عنهم فجعل عليهم ستمائة ألف ريال ، أبقى عاملَ الاعراض لخلاصها ، وهو صهره وخديم

(1) تلكأ : تأخر ، تباطأ ، قاوم ، عصى (وانظر دوزي) .
(2) الزيادة عن ع و ق .

أبيه ابو محمد رشيد . ولم يُطِل الإقامة في الاعراض ولا دار في تلك النواحي وانما زار صاحب رسول الله السيد ابا لبابة الانصاري رضي الله عنه ، في قليل من خاصته ، وركب البحر قافلاً الى صفاقس ، وأمر المحلة بالرحيل إثره (1) .

واقام بصفاقس أياما ، وأتى المهدية ورأى آثار بني عبيد ، ثم دار في بلدان الساحل [وأتى قصور مساكن بلد الاشراف] (2) . وأقام بسوسة . وأتى القيروان .

وفي هذه الوجهة بلغه ان فرقة من الهمامّة شنوا الغارات ، وأخافوا السبيل [على عادتهم] (3) ، فبعث لهم أبا العباس أحمد آغة في عقد من الخيل ، فأجفلوا أمامه ، وتمكّن على رؤوس منهم ، وقتل منهم واحدا اسمه ضَوْ ، وهو أشدهم تعديا ، وسجن الباقين ، ثم قفل راجعا الى حضرته .

وعادة الملوك اذا رجعوا من سفرهم وقاربوا الحاضرة بمرحلتين ، يعجّلون الاوبة الى منازلهم ، ويسمّون ذلك « التسريح » ، ويأتي العسكر بعدهم مع الآغة ، فلما قرب من الحاضرة سأله بعض خاصته : « من أي موضع يكون التسريح ؟ » فقال لهم : « معاذ الله ان اترك عسكري في مشقّة سفر ، وأستأثر عنهم براحة ليلتين في داري ، أدخلُ معهم كما خرجتُ معهم » . وفعل قريبا من ذلك لمّا سافر بمحلة الجريد في حياة أبيه ، فانه بقي بوطقه في المحلة . ولم ينزل دار توزر على عادة من تقدّمه ، وقال : « لا أستأثر براحة عن جندي » . ولما بلغ ذلك لوالده قال : « ان ابني أحمد لم يسلك عادتنا في سكنى دار توزر ، تعاظما عن سكنى تلك الدار المسقّفة بجريد النخل » .

ولما وصل باردو سرّح العسكر لاماكنهم ودخل المحكمة فسلّم عليه الناس ، ثم أتى بيتَ الباشا فسلم عليه اهل المجلس الشرعي . وكان ذلك يوم الاربعاء الثامن والعشرين (4) من جمادى الثانية سنة ست وخمسين (26 أوت 1840 م.) .

ومن الغد جاءه وفد الحاضرة مسرورين بأوبته مستبشرين برؤيته ، بعد قضاء وطره .

---

(1) ما بين القوسين فى الفقرة ساقط من غ ، مثبت فى ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) هو 27 حسب التقويم .

ورتب الباي في هذه الوجهة أمورا ، منها قانون الزيتون بالساحل ، وذلك انه لما حاسب وكلاء الاعشار وجد زيوتا لها بال تخلّدت في ذممهم ، مع ما استحلّوه لانفسهم وقاسموا الشهود بجزء من ذلك ، فنكّل ببعضهم وضربهم وسجنهم وصادرهم بأموال . ورأى من الضبط أن يُسقط اشياء عن اهل الساحل ممّا اعتادوا أداءه ، وهو ذريعة لامتداد أيدي العمّال في أموال الناس ، ويوظّف على أصول الزيتون شيئا معلوما في كل سنة ، أثمر أو لم يُثمر . وكان ممّن أشار بهذا الرأي القائد يوسف بيشي [اليهودي] ، قابض اموال الدولة ، ووافقه على ذلك وزراؤه ، بل وغالب أهل الساحل (1) ، لتكون غلّتهم لاختيارهم يجمعونها متى شاؤوا ولا يتوقفون في عصرها على حضور عشّار ، بعد أن حرّر دخل العشر في عام الصابة ودخله في غير الصابة ، ورتّب ذلك باعتبار السنة المتوسطة ، كما زعم القابض ، [جمع اعيان سوسة واخبرهم بالمقدار ، فوجموا مستعظمين ، فقال شيخ من أعيانهم : « لا طاقة لنا على تحمّل هذا القدر ، فالأولى أن سيّدنا يأخذ هذا الزيتون » ، فأمر بسجنه لصدور هذا اللفظ منه ، وخرج الباقون واجمين] ، وكتب بذلك أوامره لسائر بلدان الساحل وقُراه ، وأمرني بالإطناب فيه ، [فاستعمل العبد الفقير ما استطاع من الخطابة] (2) ، ونصه : « سبحان من أناط العمران بسياسة العباد ، ونوّع أحكامه فيهم على حسب ما أراد ، وغيّر بتغيّر أحوالهم قضايا الاجتهاد ، لم يوقفها على ألف ولا اعتياد ، ربط بالعدل الصلاح والسّداد ، أحمده حمدا يستغرق الحصر والأعداد ، وأصلي على سيدنا محمد الهادي الى سبيل الرشاد ، ومن اليه المفزع وعليه الاعتماد ، في هذه الدنيا وفي يوم التّناد ، وعلى آله وأصحابه السادة الامجاد ، أركان الإسناد . اما بعد فهذا ظهير وثيق البنيان ، ينتج ان شاء الله الخير والعمران ، ويدوم نفعه على اختلاف الازمان ، بُني على التسوية بين الامة أساسُه ، وزكت بالعدل فصولُه وأجناسه ، صدر منّا الى كل من يقف عليه ، ويتدبر ما لديه ، من كافّة اهل سوسة على اختلاف أصنافهم ، وتباين خططهم وأوصافهم ، وعامّتهم وأشرافهم ، لمّا خرجنا في مصالح الرعية وحفظ أموالهم (3) ، وتفقّد اعمالهم وعُمّالهم ،

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ووافقه على ذلك بعض وزرائه لما رأوا أن بعض الشر أهون من بعض ، وربما استحسن بعض أهل الساحل ذلك » .

(2) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(3) في ع و ق : « احوالهم » ، فغيرت الى « أموالهم » .

رأينا اكثر الاداء مرتبا على الذوات ، وعدم الإنصاف في المساواة ، وما رُتِّب منه على الكسب ، مُعرَّض للخيانة والغصب ، لِمـا في طبع الانسان ، من الميل الى الرغبة (1) والعدوان ، وقلّة العدالة وضعف الامان ، وهو السبب فيما يعتري الخلق من النقصان ، وإن صلح هذا الترتيب بالأُوَل ، وجرى به عملُ مَن تقدَّمنا من الدول ، فالاحكام تدور مع العِلَل ، وتختلف باختلاف العمل ، اشرفها ما أزاح الحيف وجدَّد الامل . فلذلك اقتضى نظرُنا الحكمَ باسقاط الفصول السبعة المرقومة أعلاه عن سائر بلدان الساحل إسقاطا تامّا ، مطلقا عامّا ، لا استثناء فيه ، ولا طلب يُنافيه ، إذ بعضه ممنوع لذاته ، وبعضه تعذَّر القيام بواجب صفاته ، وناهيك ما في عقوبة المال ، من فساد الاعمال ، وما في الاداء على الرِّقاب ، من البعد عن الصواب ، فتجد الغنيَّ في ترف لذّاته ، والفقير يؤدي على وجود ذاته ، إذ لا شيء لديه حتى يُحسَب الاداء من زكاته ، وكل وقت تناسبه أحكام سياساته ، فلذلك رتّبنا على زيتون الساحل قانونا في مقابلة ما أسقطناه يؤدِّيه مالكُه في كلِّ عام على كرَّتين ، كلُّ كرَّة بعد مضيِّ ستة أشهر من اكتوبر سنة التاريخ . وقسمناه الى ثلاثة أصناف ، عال ومتوسط وسافل . فالاول يؤدي عُودُه (2) ربعَ ريال وأحد عشر ناصريا والمتوسط يؤدي عوده ربع ريال وخمسة نواصر ، والسافل يؤدي عوده اثني عشر ناصريا . هذا في الذي يُثمِر ، أما الناشيء الذي لم يبلغ حدَّ الإطعام فان عوده يُرسَم ولا يؤدي شيئا ، الا إذا أثمر فيلحق بالصنف الثالث ، حتى يكون كالصنف الثاني فيلحق به ، وهكذا . ويؤدي على كل مائة ريال من القانون ريالا ونِصفَه للقبّاض في مقابلة نقص عدد الدراهم . وان تلدَّد احد المالكين في دفع القانون حتى لزمه الغضب بالتعيين ، فانه يؤدي نصف ريال خدمة على كل عشرة ريالات ، هذا اذا كان التعيين من حضرتنا ، اما اذا كان من القايد فانه يؤدي ربع ريال على العشرة ، لا زائد على ذلك . ومن لا زيتون عنده فلا قانون عليه ، وأداء الانسان على حسب ما لديه ، كفى الضعيفَ القيامُ بسدِّ خلّته ، ومُعاناة معيشته . ومصلحة هذه السياسة أوضح من الصبح ، غنيّة عن الشرح ، لا يدخلها تطفيف ولا حيف ، ولا تمييز مشروف عن شريف ، سوّينا في ذلك بين صغيرهم وكبيرهم ، وجليلهم وحقيرهم ، وأزلنا الفرق بين المحرَّر والرعية ، فالكل عيال الله ولهم حرمة مرعية ،

(1) الرغبة : الطمع ، الجشع ، الحرص .

(2) العود : الشجرة .

لانه بفضله استرعانا جماعتهم ، ووهب لنا طاعتهم ، وأرانا استطاعتهم ، وحرّم علينا إضاعتهم ، فما نأخذه منهم ، ندفعه في مصالحهم عنهم . والله يصلح احوال العباد بفضله ومنّته ، ويجازينا على نيّتنا يوم يسأل كلّ راع عن رعيته ، فاقرؤوا هذا الرقيم على جمعكم ، حتى يتقرر في قلبكم وسمعكم ، واحفظوه في جامع صلاتكم ليبقى لكم حجّة ، على سهل هذه المحجّة . والله يحكم لا معقب لحكمه . والسلام من الفقير إلى ربه أحمد باشا باي وفّقه الله .

وكتب في رابع جمادى الاولى سنة 1256 ، ست وخمسين ومائتين وألف (السبت 4 جويلية 1840 م.) .

والمطالب التي أسقطها أولها عشر الزيت ، لما فيه من عسف الوكلاء في اختيار الجيّد الصافي ، والتطفيف الذي لا يقف عند حدٍّ ، بل هو بحسب حال الدافع ، فقد تكون العشرة اثني عشر الى الخمسة عشر ، على حسب مروءة القابض . « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » (1) .

ولا يخفى على المسلم العاقل ان ذلك ليس بعذر يبيح (2) إبدال الزكاة التي هي أخت الصلاة بهذه المظلمة التي لم تنتج فائدة الا للقابض ، لان ما [كان] يحصل من زيت العشر تبيعه الدولة للتجار [والواردين] ولا يدفعون على أثمانه قبّاضة ، ولما صار مالاً في الذمة على الرعية يأخذ عليه القابض ، لا سيما وهو منصوص عليه في الامر . على ان الله تعالى أعلم بمصالحنا منّا ، وهو الحكيم الخبير ، [والشريعة المحمدية المبعوث بها خاتم المرسلين صلوات الله عليه صالحة في كل زمان ومكان] (3) . وشأن الوازع كف يد التطفيف والتعدي ، والثقة (4) بالامناء . والامانة لا تنقطع من الامة المحمدية ، نعم ، تقلّ في آخر الزمان .

واذا حكّمت العقل مع اعتبار حالة البلاد من قلّة نقودها لانها تأتي من خارجها اذ لا معدن بها لاحد النقدين مع قلّة متاجرها وصنائعها ، ترى العشر على ما فيه ، أحسن

---

(1) س 83/آ 1 و 2 و 3 .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « أن هذه الخطابة لا تبيح » .

(3) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وتقديم الامناء » .

للراعـي والرعيّـة ، لان المملـكـة فقيرة كما اعترف صاحبها في مـكـتوبه للدولـة العلية ، وكما شهد بذلك رسولـه صالـحُ المصر (1) . والفقير اذا لم يثمر زيتونـه يُضْطَرّ الى بيـع الزيت على وجه السَّلَم لتجار الافرنج بأبخس ثمن او يتداين بالربا ليدفع ما عليـه من القانون ، فاذا أثمر الزيتون يدفع منه ما في ذمّته من السَّلَم أو الدَّين [وفائدته] (2) ، وقانونَ ذلك العام ، فيصير إلى الفقر في اقرب مدة ، لان أرض المغرب عشرية لاَخرَاجية ، لانها غير مأمونـة الرّيّ كـمصر وما شاكـلها . بخـلاف ما اذا كـان الاداء من عين الغَلّة ، فانه لا يلزم المالكَ تداينٌ ولا بيـعُ زيته بالبخس ، وربما تسمح بعض النفوس بتحمّل ما يطاق من مظلمة التطفيف لما يراه من أنه حق لله ممّا رزق ، وتعقبه البركـة ، واذا شح بذلك تطير البركـة ، الى غير ذلك مما هو في نفوس أهل الايمـان المبني على مكـارم الاخـلاق . وهذا من أسرار الله في عبيده . واما حُسْنه للراعـي فان رعيته تبقى على ما قُسِم لها من الثروة باعتبار حالها ، واذا ضعفوا ضعفت الجباية ، ولا تزال في ضعف حتى تضمحلّ او يضمحلّ الراعي ، ودليل ذلك العيان . ولله درُّ القائـل :

وأرفـــه خلـــق الله راضٍ بعيشـــــه — وأتعبهـم قلبـا على الـدهـر واجـد

وثانـي الامور التي أسقطها ، قـانون الصاع والبلبّة ، شيء يـؤديه صاحب الزيتون من الزيت او المال في مقابلة تَفَلّ زيتونه .

وثالثها المطالب الراجعة لدار الباشا ، وأصلها ان الترك لما استقرّ قدمهم في البلاد رتّب عثمان داي مرتّب الجند على بلدان الحاضرة مقادير معيّنة يدفعونها [في مدّة العام] (3) على ستّ كـرّات ويوزعونها على حسب مكـاسبهم ، بحيث لم يكـن فيها إجحاف . وآل الامر إلى ان صار إلى اجتهاد العُمّال وأمانتهم .

ورابعها العشرة ريالات التي كـانت مرتّبة على كل ماشية ، رتّبها ايضا عثمان داي ، وقاس مِساحة الماشية بِحَبْل مقدّر معروف يسمّى الآن بحبل الديوان ، وان زال مسمّاه . وصار إلى ديانة (4) العامل ، فربّما يسمّي بذر وَيْبة (5) بماشية ليستخلص العشرةَ ريالات .

---

(1) اى الشيخ ابراهيم الرياحى .
(2) الـزيـادة عـن ع و ق .
(3) الـزيـادة عـن ع و ق .
(4) ديـانـة : ذمة ، ضمير ، اجتهـاد .
(5) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « بذر صاع » .

وخامسها الضيفة للقايد او الخليفة او الشيخ وهو باب واسع ، وأصله ان القايد ومن عطف عليه اذا تولىّ عملاً يقدّم أهله له شيئا [من المال] يسمونه « ضيفة » في مقابلة قرآه ، فصار أداءً في الذمّة معتبرا في الولاية نوعه وتقريب مقداره [لمّا آلت الولايات الى مشارطة مالية ، كما تقدم في الباب الاول] (1) وهو ايضا في عهدة أمانة العامل .

وسادسها القيام بالصادر والوارد ، ويسمّونه « السادر والوارد » (2) . [وذلك في غير المدن] (3) .

وأصله أن ضيافة المارّ مندوب اليها في الاسلام ، وهو من مكارم الاخلاق . فيتّفق أهل كل بلد ويجعلون محلاً يسمّونه « دار النزالة » يباشر ذلك شيخ البلد [الذي شاخ بالمال] ، والمحرك [وهو المُعين له] (4) ، ويستخلصون تلك الضيافة من أهل البلد أو القرية على أنحاء مختلفة ، ومَن امتنع يقال له « تسَفَّل » ، ويعاقب بالمال . وذلك في أمانتهم أيضا .

وسابعها ، وهي الداهية الدهياء ، العقوبة بالمال ، وهي المسمّاة بالخطيّة ، موكولة أيضا إلى أمانة العامل . يسمّي ما شاء « ذنبا » ويعاقب عليه بقدر كسب مَن سماه مذنبا ، حتّى صارت الذنوب رأس مال كسبهم . فاذا ضجّ الانسان رموه بالفساد ، فتشتدُّ عقوبته [المالية والبدنية] (5) ، فتجد المسكين يتجرّع مرارة الصبر على عقوبات العمّال ، اتّقاءَ ما هو أشدُّ .

وتُحكَى عنهم في ذلك حكايات تقشعرُّ منها الجلود ، منها أن أحمد السهيلي كان عاملاً بالمنستير وماتت لبعض أغنيائهم بنت ودفنها ، فبعث اليه وقال له : « أنت قتلت بنتك ، فامّا أن تنفصل معي بمال أو نخبر الدولة » ، فأنكر الرجل وأبى ، فبعث العامل الى قبرها ونَبَشَه ، وأمر بدقّها ، وهي ميّتة ، في موضع مقتل ، وبعث الى والدها ، وأحضر شهودا توجهوا الى القبر ، وعاينوها وأثرُ القتل في جسدها ، وحالُ تسوية

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « السادر » .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(5) الزيادة عن ع و ق .

القبر بعد نبشه وعدمُ جفاف الجرح ينادي عليهم بالكذب ، إلى غير ذلك من أمثالها . ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون .

وإنما أطلنا في أمثال هذه النوازل ليرى الناظر أسباب الخلل والنقصان كيف تطرقت وتدرّجت في هذه الإيالة ، ولا سبب لذلك الا الملك المطلق ، وتقديم الشهوة والغرض ، على الواجب المفترض .

وبلغ البايَ وهو في سفره هروبُ أبي المسرّة فرحات الجَلّولي وأخيه أبي عبد الله حسُونة الى مالطة ، لِمَا بين دار الجَلّولي ودار ابن عَيّاد من غَيْرة ومنافسة [في الخدمة] أثّرتْ الاحقاد . ولمّا استقرّت قدم محمد بن عيّاد بالدولة ، وفتح الباي أذنه لتدبيره ، صدرت منه بوادر لدار الجلّولي ، وتوقّعا منه الشرّ فلاذا بالفرار . إلا أنه فرار لم يحطّ لهم قدرا ولا دنّس لهم ذكرا . وثبت عند الباي ان المُعين لهما على الهروب بكراء المركب هو تاجر تونسي يعرف بالمحيرصي ، فبعث الى أخيه باعتقاله . ثم بعد رجوعه استفهمه عن الكيفية وسبب الهروب ومقدار ما حملا معهما [من المال] ، إلى غير ذلك مما يبعد أن يعلمه التاجر [المسكين] ، فأقرّ بأنه كان واسطة في كراء المركب خُفْية لِمَا له من المعرفة بلغة إيطاليا ، ولا علم له بما وراء ذلك ، فأمر بضربه فلم يقرّ ، ثم أعاد ضربه . ولمّا عيلَ صَبْرُه اضطُرّ الى شنق نفسه بِتِكّة سراويله ، فأصبح مشنوقا ميّتا بمَحْبسه ، وهو مَخْزَن عُلُوّ الكاهية بحلق الوادي [وكان الباي يومئذ به ، فتغيّر وندم ، ولات حين ندم] . (1) غفر الله للجميع .

وفي هذه الوجهة رتّب قُرّاء يقرؤون حزبين من القرآن العظيم [كل يوم] (2) عند ضريح العالم الولي العارف بالله سيدي أبي إسحاق الجبنياني ، من عمل صفاقس .

وفيها أمر بتنظيف فسقية بني الاغلب بالقيروان ، وذلك من فاضل أوقاف السيد الصاحب رضي الله عنه ، لان ذلك من أجلّ طرق البرّ ، على ما به العمل عند المحقّقين من صرف فاضل الحُبُس بعد استقامته في طريق بِرّ يزداد به الثواب للمحبِّس ولا ينقطع به عمله .

(1) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من غ ، مثبت فى ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

وفي هذه السنة 1256 (1840/41 م.)، وجّه البايُ أبا النخبة مصطفى بَلْهوان الى الدولة العلية العثمانية يطلب من فخامتها لقبَ مشير، لان باشا طرابلس يومئذ له هذا اللقب. ونهاه وزيرُه ووزير أبيه شيخُ الدولة أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع عن ذلك، وقال له: « الاسلم أن نكون مع الدولة العلية على عادتنا وحالتنا من غير تبديل ولو بِرِفْعة »، فغلبه هواه، ورأى ان لا ضرر في ذلك. ولمّا بلغ مطلبه للوزير أبي النخبة مصطفى رشيد باشا، أسرع للاجابة ورآها ذريعة لرأيه، فقال للرسول: « يظهر من حال أحمد باشا انه يريد الانخراط في سلك مشيري الدولة العلية، وقد اسعفت مطلبه بسرور »، الى غير ذلك من الخطابة، « فبلِّغْ له مشافهةً نصيحةً مني، وهي أنه يُظهِر من حاله أنه كواحد من عُمّال الدولة بتبديل صنجق تونس بصنجق الدولة حتى تكون راية الاسلام واحدة، ويأتي بنفسه الى اسلامبول ليكون مَظْهَرًا للعناية السلطانية، ويؤدي شيئا من المال في كل عام، وتقديره موكول لرأيه ويجري به العمل، وان يولي أكابر العسكر بفَرَمان السلطنة بحيث يكون الخيار له فيمن يولّيه والسلطان يوافقه على اختياره. فالولاية في الحقيقة له والفرمان لتكون عساكر المسلمين على نسق واحد، وان يتوقف فيما يقع بينه وبين الدول الاجانب على الاستعانة برأي الدولة العثمانية »، الى غير ذلك مما ظهر له انه نصح للباي، لو سبق القدر بسماعها، ومن جملتها ان يكون ذلك من تلقاء نفسه، فقال له الرسول: « نبلغ ذلك عنك »

ولما قدم مصطفى البلهوان بلّغ الرسالة مع نيشان المشير، فاحتفل الباي لقبوله بتعظيم وفخامة، وتسمّى بالمشير من يومئذ وتلقّب به يكتبه في أوامره. وتوقف في نصح الوزير، وعلم بذلك ما انطوت عليه النيّة من وزراء الدولة.

وقد كان جانحا الى الالتحام بالدولة أكثر من أسلافه، لما في ذلك من قوة العصابة الاسلامية، وظهرت بوارق ذلك من اوائل أعماله. ثم ظهر له أن الاصلح الطاعة والانقياد، على السَّنَن المعتاد.

⁂

ثم وجّه عنايته للعلم الشريف، وأعان طلبته بما بقي أثره، وطاب في الآفاق خبره. وهو انه اشترى سائر كتب الوزير حسين خوجة المبيعة عليه في الدّين [المتقدم ذكره] (1)

(1) الزيادة عن ع و ق .

بثمن له بال (1) ، واشترى غيرها ، وأضاف اليها كتب آله الموضوعة في خزنة أسلافه بجامع بيت الباشا ، وقال : « وضعها هنا لا فائدة فيه الا المباهاة » . وكانت عُدّة علمية في فنون شتّى . ولما جمعها ، أمر اهل المجلس الشرعي وأعيان المدرسين بالاجتماع في الجامع الاعظم ، وأمرني بايصال الكتب من قصره الى الجامع .

ومن العناية أن وجّه طابورا من العسكر لذلك ، كل واحد يحمل على يديه قدر ما لا يُتعبه من الكتب .

ولما وصلت الجامع وجدت العلماء ينتظرون وصولها ، فتقدم العسكر على ترتيب نظامي ، كل واحد يضع ما على يديه من الكتب ويخرج من غير الباب الذي دخل منه . وتولىّ الجماعة تطبيق اسماء الكتب على دفترها ، ثم وضعت في خزائنها العشرين ، على يمين المحراب وشماله . ثم كُتِب على كل سفر منها رسمُ تحبيسه مصحّحا بختمه . وأباح للمنتفع إخراج الكتاب من موضعه لمدة عام فقط . ورتّب لها وكيلين يأتي كل واحد منهما للجامع يوما على التناوب ، لمناولة الطلبة ما يحتاجونه . وسهل بذلك طريق العلم على الفقراء ، بل والاغنياء . وكان ذلك في رمضان السنة 1256 (2) . ولم يزل يشتري الكتب ويحبّس ويلحقها بهذه الخزائن . واشترى كتب شيخنا العلاّمة أبي اسحاق ابراهيم الرياحي بعد وفاته ، ودفع أثمانها للورثة ، وحبّسها بالجامع أيضا . ونصّ في [رسم] (3) حبسه عليها انه أهدى ثواب ذلك لمالكها الشيخ المذكور . والاعمال بالنيات .

يا له من عمل ذلّل صعاب العلوم وراضها ، وأنشأ حدائقها ورياضها ، وأجرى جداولها وحياضها ، وأصاب شواكلها وأغراضها . نسخ على غير مثال ، انهلّ به ودق العلم وانثال ، وسرى ذكره مسرى الامثال .

وتفنّنت شعراء العصر في أمداحه . وفي الجمعة الموالية لهذه المَنْقَبة ، خطب شيخ العصر وبركة المصر ابو اسحاق ابراهيم الرياحي على منبر الجامع الاعظم بما نصّه : « الحمد لله الذي رفع للذين أوتوا العلم درجات ، كما خفض لاهل الجهل دركات ،

---

(1) بهامش ق 2 : 216 : « ثمن الكتب المذكورة مقيد بدفتر الدولة وقدره ريالات 28917 » .

(2) بهامش ق 2 : 216 : « وفى هاته السنة بنى هذا الباى كنيسة سان لوى بقرطاجنة »

(3) « رسم » ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق .

أفمن جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مَثَلُه في الظلمات . أحمده وحمده من جملة ما به أنعم ، وأشكره على أن علّمنا ما لم نكن نعلم . واشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادةً رَفَعَ العلمُ قواعدَها ، وأسّس اليقينُ براهينَها وشواهدَها ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده المصطفى المختار ، الذي أرسله بنور يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان ما تعاقب الليل والنهار . ايها الناس هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولُو الالباب ، ألم تعلموا ان الجهل وصف الخلق والعلم وصف رب الارباب ، الم تعلموا ان ابانا آدم فُضِّل بعلم الاسما ، وأمر بالسجود اليه ملائكة السما ، والعالَم الاَسْمَى ، وقالوا نحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال اني أعلم ما » . . ، الم تعلموا ان الدين علم وعمل ، فمن لم يكن له علم فعلى اي شيء حصل ، أيظن الجاهل الموفور ، انه ذو بصر نافذ في الامور ، كلا بل هو رجل أعمى مغرور ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . وحيث كان العلم بهذا الشرف الاثيل ، والرتبة العليا التي ليس لها مثيل ، فما للهمم متقاصرة عن استطلاع طوالع انواره ، وما بال العزائم متقاعدة عن استكشاف خبايا أسراره ، أخَوَر في الطباع ، ام فقد لموادٍّ الانتفاع ، كيف وقد تيسرت في هذا الزمان المبارك اسبابه ، وفتحت للمعلمين والمتعلمين أبوابه ، وتضوعت في بيت الله أعطاره ، وطلعت فيه شموسه وأقماره ، وذلك بهمّة الملك الهمام الخطير ، الباي احمد الباشا المشير ، الذي وسع الجمَّ الغفير ، بالعطاء الكثير ، ليجد ثوابه عند الله مدّخَرا ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، واعلموا ان العلم النافع ما قارنه الاخلاص في التعلّم والتعليم ، والعمل بما يحكم به من التحليل والتحريم ، والا كان جديرا ان ينبذ بالعراء وهو سقيم . وقد مثّل العلماء العلمَ النافع بشجرة ، ثابتة الاصل حلوة الثمرة ، يستريح براحتها (1) المحزون ، ويستلذُّ طعمَها الآكلون ، وغَيْرَه بشجرة ما لها قرار ، خبيثة الرائحة مُرَّة الثمار ، يستمج (2) رائحتَها المستنكهون، ويستبشع مذاقها الطاعمون ، وتلك الامثال نضربها للناس وما يَعقِلها الا العالمون . وفي الحديث الشريف ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العلماء ورثة الانبياء » وقال ، صلى الله عليه وسلم : « يستغفر للعالِم اربعة أشياء — الملائكة في السماء ، والطير في

(1) الراحة : الساحة .

(2) كذا في خ و ع و ق ، ولعلها : « يستسمج » .

الهواء ، والدواب في القفار ، والحيتان في البحار » . وقال صلى الله عليه وسلّم : « فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة » . وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه : « حضور مجلس عالم خير من صلاة الف ركعة ، ومن عيادة الف مريض ، ومن شهود الف جنازة ، فقيل : يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ فقال ، صلى الله عليه وسلم : وهل ينفع القرآن الا بالعلم » .

جعلني الله وإياكم ممن عَلِم وعَمِل ، وأخلص لله فقُبل .

ألا إن أنفع ما تنشرح به الصدور ، وأصدقَ حديث منطوق ومسطور ، كلام مولانا الغفور الشكور . اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، « إنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إنّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » (1) .

ومدحه [على ذلك غالب شعراء العصر منهم] (2) النحرير العالم ابو عبد الله محمد الطيّب الرياحي ابن شيخ العصر بقصيدة بديعة ، نص المقصود منها :

تمدُّ بحارا زاخرات يمينُهُ	سوى ان ذاك المدّ ليس به جزر
ولمّا ازدرى الدنيا عطاءً سمت به	الى الاوج نفس أمر أخطارها إمر
فأهدى الى البيت الكريم خزائنا	من العلم يفنى الدهر وهي له ذكر
فلله بكر في المعالي جلوتَها	يطيل اعتبارا في محاسنها الدهر
تَساقى الورى منها كؤوسَ مسرَّة	وفاح لديهم من شذا حمدك العِطْر
فجوزيتَ من مَلْك به انتعش النَّدى	ودينُ الهُدى واستُؤصِل الجهل والفقر
ولا زلت محروس الكمال مؤيَّدا	وصَاحَبَكَ الإقبال واليُمْن والظَّفر

وقال في ذلك عَصْرِيُّنا (3) العلامة ابو عبد الله محمد بيرم من قصيدة :

تاهت على كل البلاد بلادُه	وسما بها الامراء تحت حجاله
أبدى بها(4)الجيش العرمرم وشحّت	اصنافه بالأُسْد من أبطاله

(1) س 35/آ 28 .
(2) ما بين القوسين عن ع و ق .
(3) كذا في غ ، وفي ع و ق : « صاحبنا » .
(4) في غ : « أبدابها » ، وفي ع و ق : « أبوابها » .

وأنال مسجدَها المعظّمَ رِفْدَهُ   وسقى مُصَوَّحَ نَبْتِهِ بِزُلالِهِ
وحباه من كتب العلوم نفائسا   تزري بنفح الروض في آصالِهِ
أطلعتَها في أفْق فضلك أنجما   يمحو بها الساري دُجى إشْكالِهِ
وأجَلْتَ فيها راحةَ المُثْري ومَن   قد صُفِّرت كفّاه مِن إقلالِهِ
وبها أزحتَ شدائدا عن عاجز   وكشفتَ ما أصماه من أهوالِهِ

*

وفي محرم من سنة 1257 ، سبع وخمسين (فيفري — مارس 1841 م.) ، رتّب الباي قانونا على نخيل الاعراض لا ضرر في أصله .

*

وفي ربيع الاول من هذه السنة (الثلاثاء 4 ماي 1841 م.) احتفل للمولد الشريف النبوي ، لما طبع عليه من عظيم المحبة في المصطفى وآل بيته .

وكان يوم المولد بحاضرتنا كمواسم السنة ، غير العيدَين ، ويزيد باجتماع الصبيان في المكاتب مفروشة (1) يصلّون على النبي صلى الله عليه وسلّم ، فاقتضى نظره أن شأن المولد يجب له من السرور والفخامة ما لا يجب لغيره ، وأمر بتنوير سائر المآذن بالحاضرة ليلة المولد وليلتين بعده ، [والزيت من عنده لا من احباس الجوامع] (2) .

وفي ضحى يوم المولد تجتمع العلماء والاعيان بالجامع الاعظم ، ويأتي الباي من دار المملكة ببطحاء القصبة راجلاً على أبّهة وفخامة ملكية ، وأمامه سماطان من أمراء العسكر بلباس المواكب ، يشق بهم سماطين من العسكر واقفين على أهبة نظامية من باب الدار الى باب الجامع ، ويدخل من باب العطارين حتى ينتهي الى المحراب ، فيجلس حذو إمام الجامع ، وكان يومئذ الشيخ ابراهيم الرياحي ، فيُستفتح بقراءة تأليف للشيخ اختصره من تأليف سيدي مصطفى البكري ، وذكر أن الداعي لذلك هو الباي احمد المشير ، ذكر فيه فضائل المولد وما وقع فيه من الارهاصات (3) عند

(1) اى بالزرابى ونحوها زيادة عن الحصير المعتاد .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) فى خ : « الارهاصات » ، وفى ع و ق : « دلائل النبوة » . والارهاص : احداث أمر خارق للعادة دال على بعثة نبى قبل بعثته (التعريفات للجرجانى) .

ولادته ورضاعه والنسب الشريف وغير ذلك ممّا يقتضيه الحال . هذا كلّه ومجامر الطيب فائحة ، وأنوار الشموع والشجرة المباركة لائحة . ولما ينتهي الى الابيات المعروفة لبعض الصالحين وهي :

قليل لحق المصطفى الخط بالذهب	على ورق من خط أحسن من كتب
وان تنهض الأشراف عند سماعه	قياما صفوفا او جُثِيّا على الركب
أما الله تعظيما له كتب اسمه	على عرشه يا رتبة سَمَتِ الرتب
فقم أيها الراجي لنيل سعادة	قيامَ محبٍّ صادق الحب والادب
ففي الذكر لاسم الحب إحضارُ ذاته	بقلب له في الحبِّ وجد له لهب (1)
ورب جليل عظّم الناس ذكره	فكيف وهذا سيد العجم والعرب
عليه صلاة الله ثم سلامه	يكونان للرضوان من اعظم السبب

ولما يصل الامام الى قوله « فقم أيها الراجي » البيت ، ينهض الباي قائما ، ويقوم كل من في الجامع ، وتقع الإشارة من المئذنة الى القصبة فيترنم المدفع ويسترسل من الابراج (2) . ويكمل الإمام الابيات قائما والناس كذلك . ثم يجلس للدعاء ويختمه بالفاتحة . ثم يؤتى بماء السكّر لسائر من في الجامع ، ثم مياه الطيب . وينفضُّ الموكب فيرجع الباي بموكبه وفخامته الى الدار ، ويأذن بتسريح العسكر ، ثم يركب الى باردو. ويدوم ترنم المدافع صباحا ومساءً أيام المولد الثلاثة . ويفيض فيها العطاء والصدقات للقُرّاء الذين يُحيُون تلك الليلة بالقرآن العظيم والامداح النبوية وغيرِهم . ويطعم الفقراء في تلك الايام . ومن الاتّفاق ان كان مولد هذه السّنة موافقا لمولده ، صلى الله عليه وسلم ، بالحساب الشمسي ، وهو العشرون من نيسان .

وجرى بهذا عملُ مَن بعده من الملوك لعصرنا هذا .

وقد قلت له حين شرع في هذا الترتيب : « المناسب أن تخرج من باردو راكبا ، وعندنا بحمد الله من العسكر ما يكفي للوقوف بين باردو والجامع » ، فقال لي : « ذلك يفعله السلطان العثماني وليس لنا ان نفعل مثله ، فالمناسب الادب معه » . ثم قلت له :

(1) هذا البيت مثبت في غ و ع ، ساقط من ق .

(2) كذا في غ ، وفي ع و ق : « من ابراج الحاضرة وضواحيها وحلق الوادي » .

« هل ترى أن تحبّس على هذه المـأثـَرة شيئا ؟ » فقال لي : « نحبّس عليها مَلِك تونس، ويستحيل أن مَن يقوم مقامي يتركها ويرضى لنفسه نسبة الاستخفاف بالمولد النبوي » .

وبعد ذلك كاتب رئيسَ مجلس الشريعة بالقيروان أبا عبد الله محمد صدّام أن يفعل بالجامع الاكبر مثل عمل جامع الزيتونة ، وكاتب العاملَ يعطيه الزيت والدراهم .

وكان يبيت ليلة المولد بالحاضرة في داره بالقصبة ، ويصليّ العشاء بالجامع الاعظم ، ثم يخرج راجلاً بلا سلاح للدوران في البلاد وأسواقها كعامّة الناس ، يزاحمهم ويزاحمونه. فاذا وقف له أحد أو تأدب أنكر عليه ذلك ، ويقول [لمن حاذاه] (1) : « أنا في هذه الليلة كواحد من سكّان الحاضرة » . وهو على بشاشة واسلوب ، يجلب بجاذبه القلوب .

ولقد اجتاز في ليلة مولد بصبيٍّ ضلّ عن أبيه في مزدحم الناس بمحجّ التبّانين ، فاستغاث باكيا ، فأخذه من الطريق وأوقفه ووقف حذوه يحرسه حتى أتى أبوه وعرفه وضحك الصبيُّ ، ثم مرّ .

وابواب المدينة ليلةَ مبيته بالحاضرة مفتوحة ، واسباب السرور والهناء ممنوحة .

***

وفي جمادى الثانية من السنة 1257 (جويلية — اوت 1841 م.) (2) ، التزم ابو عبد الله محمد بن عيّاد وظيفة دار الجلد بسبعمائة الف ريال ، وقد كانت بثلاثمائة الف ريال.

ومحصل هذه الوظيفة ان سائر جلد البقر بالمملكة تأخذه الدولة [من الجزارين وغيرهم] بتافه لا عبرة به ، وكأنه في مقابلة زكاة البقر . ثم يدبغ بدار الجلد ويباع لاهل صناعاته بالمزايدة في مجتمع بالحاضرة يعرف بحلقة النعال (3) . ويباع منه ما زاد على احتياج المملكة لخارجها . ولا يتصرف في ذلك غير [من يلتزمه من] الدولة . ومن توابع هذا الوظيف عصر العسل بمعصرة في دار الجلد وتأخذ الدولة الشمع . وتمتدّ

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذا في خ ، وفي ع : « جمادى الاولى من السنة 56 » ، وفي ق : « جمادى الاولى من السنة 57 » لكن الرقم كان 6 غير الى 7 .

(3) « اسمها الاصلي حلقة النحال ، قلبوا حاءها عينا لاعتقادهم ان كلمة النعال هي المناسبة لذلك ، لوجود سوق صنع الاحذية المجاورة لها » تاريخ معاليم التوحيد لمحمد بن الخوجة ص 11 — تونس 1939 .

أيدي الملتزمين في الناس باتّهامهم باخفاء الجلد ، حتى إن أتباعهم من المفتشين يدخلون بيوت العربان ويُلقُون فيها ولو قدر الراحة (1) من الجلد ، ويفعلون معهم في شراء عقوبتهم ما يجدونه عند الله حاضرا . ويتّهمونهم بافساد بيوت النحل أو حرقها ، ولو احترقت بأمر سماوي . ويشتري المسكين نفسه منهم [ارتكابا لاخفّ الضررين] . والتغالي في هذه اللزمة معتبر فيه هذه العقوبات المالية . وقد كانت هذه اللزمة في اوائل هذا القرن بيد جماعة من يهود البلاد ، وليتها دامت بأيديهم ، إذ لم يفعلوا فعل هؤلاء المسلمين ولا ما يقرب منه . وأول مَن زاد على اليهود والتزمها بعدهم ، أبو الربيع سليمان بالحاج ، لكن على غير هذه الحالة الفظيعة التي كاد ان ينقطع بها العسل والشمع من تونس ، وقد كانت تخرج القناطير المقنطرة منهما(2) . والمُلْجِيء لذلك كثرة الإنفاق على العسكر المحبوسين

وأتْعَبُ النّاسِ ذُو حالٍ تُرَقِّعُها يـَدُ التَّجَمُّلِ والإقْتارُ يَخْرِقُها

*

وفي ذي القعدة من السنة 1257 (ديسمبر 1841 م.) ، عزم الباي على جمع العسكر من القيروان والسواحل ، وتسريح من تقدمت خدمته (3) ، فكتب لكل بلد منهم من قلم العبد الفقير ما نصه : « من عبد الله سبحانه ، الراجي عفوه وغفرانه ، المشير أحمد باشا باي ، وفّقه الله لما يرضاه ، وأعانه على ما أولاه ، إلى أولادنا كافة أهل سوسة والمفتين والقضاة والايمة والمشايخ وسائر أولي الولايات ، والخاصّ والعامّ ، ممن في ذلك الوطن من الاسلام ، شرح الله للحق صدورهم ، وأصلح بمنّه أمورهم . أما بعد فان الله استرعانا جماعتكم ، وحرّم علينا إضاعتكم ، وكلّفنا القيام بمصلحتكم ، وحفظ إيالتكم . ولا يتمّ هذا المراد ، الا بالعساكر (4) والاجناد ، في كل أرض وبلاد ، وعندنا من العسكر جيش مضت لهم في الخدمة أعوام ، وبلغوا من الصناعة الحربية أقصى مرام ، شأنهم السلاح وما يتعلق بالحرب ، والاستعداد لمواقع الطعن والضرب ، وشغلناهم في هذه الاعوام ، بما يجب على سائر الاسلام ، من هذه العبادة الدينية ، عن الاشتغال

(1) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « قدر اصبع » .
(2) ما بين القوسين فى الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « من طالت خدمته » .
(4) كذا فى خ و ع ، وفى ق : «الا بتكثير العساكر » .

بأحوالهم الدنيوية ، وقد حصلوا ان شاء الله من الاجر زادا نافعا لأُخْراهم ، واقتضى النظر أن نسرِّحهم لامور دنياهم ، ونكتب عوضهم من بلدانكم ، ما نُعِدُّه لحفظ أوطانكم ، وحماية أموالكم وأبدانكم ، وننظّمهم في سلك عائلتنا العساكر إخوانكم ، يقيمون زمانا على الخدمة في تعلم هذا العمل ، حتى نبلغ في اتقان تدريبهم الامل ، ثم نسرِّحهم كما فعلنا بأمثالهم الأُوَل . وفي الحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضا » ، وكيف لا نتعاون على طاعة جعلها ربّنا علينا فرضا . وها نحن وجّهنا لكم الفاضل الكامل الأَرْضَى ، الثقة الهمام الأَعزّ الأَحْظَى ، إبنّنا مصطفى باش آغة ينتخب من يصلح لذلك من رجالكم ، ليكون استعدادهم سببا في صلاح أحوالكم ، وبلوغ آمالكم من ثمرات أعمالكم ، وتجدون ثواب ذلك عند مآلكم . فالواجب عليكم ان تتسارعوا لإعانته في هذا الشان ، ولا يمتنع منه إنسان ، اذ شرطه القدرة والإيمان ، والمؤمن يسعى في إعزاز دينه ، على قدر إيمانه ويقينه ، والعاقل يَبذِل في حماية وطنه وبلاده ، غايةَ وُسْعِه ومنتهى اجتهاده . وقد قال سيّدُ ولد عدنان : « حب الوطن من الإيمان » ، ومن براهين محبّته ، بذل النفوس لإمضاء شوكته ، والاستعدادُ للمدافعة عن حوزته ، وحفظُ أهله وجماعته . ومن امتنع او قصّر فقد أمرنا ربُّنا بعقابه ، وتوعّده يوم القيامة بعذابه ، حيث تقاعد عن حماية دينه وإعزاز كتابه . وأنتم وفّر الله أعدادكم ، وكَبَتَ بكم أضدادكم ، أُعيذكم أن لا تكون منكم جيوش لحفظ ملّتكم ، وحماية تربتكم . حاشا نفوس الاحرار ، أن ترضى بهذا العار ، أو تميل إلى البطالة والراحة ، عن حماية البلد والساحة . والله يجعل البركة في جماعتكم ، ويُعينكم على القيام بواجب طاعتكم . فاقرؤوا كتابنا هذا على العامة في جامع صلاتكم ، واعلموا أنه من عباداتكم . والله يُصلِح القولَ والعمل ، ويبلّغني من إعزازكم منتهَى الامل ، انه قريب مجيب» .

وكتب في 12 ذي القَعْدة (1) ، سنة 1257 (الاحد 26 ديسمبر 1841 م.) .

وتوجه هذا الوزير المأمور بِكَتْب عددٍ معلوم ، وانتخابُه لاجتهاده . فأتى بآلاي كامل (2) ، توخّى فيه الحق وعدم الضرر والتسوية ، وراعى الايتام والارامل

(1) « 12 » ساقطة من ع و ق ، مثبتة فى خ

(2) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « بثلاثة آلاف » .

والشيوخ ، ولم يكتب من يقوم عليهم ، ولم يُثبِت منهم أحدا ، وكأنه حاذَى بذلك ما يشبه قانون التنظيمات . وطاب في الوجهة خَبَرُه ، وحسن أثره .

*

وفي اواخر محرم من سنة 1258 ، ثمان وخمسين (اواسط مارس 1842 م.) ، وجّه الباي هدية للدولة العلية ، وهي كرويطة متمومة بمدافعها وسائر ما يلزمها ، وهي من عمل تونس ، وخمسون الف ريال دورو ، واشياء من نتائج البلاد . وسبب ذلك ان الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا لمّا لم يعمل الباي بنصيحته السابقة ، أكثر بالتعاليل ، واجتهد في امضاء التنظيمات الخيرية بتونس ، حتى قال : « لا يمكن ان السلطان يتصرّف بقانون تنظيماته ، وباشا تونس يتصرف في المسلمين بلا قانون شرعي ولا سياسي ، ومآل ذلك الى خراب المملكة لا محالة » . ويقال ، والله اعلم ، انه سلّم في الوزارة لاجل ذلك . ولما بلغ ذلك للباي استشار وزراءه ، فأشاروا عليه بارسال شيء من المال على انه هدية (1) ، ويتوجّه من يستكشف الخبر ويناضل عنه كأنه من تلقاء نفسه . واختير لذلك [الشيخُ المسنُّ الاجلُّ] ابو محمد خير الدين كاهية دار الباشا ، والعبدُ الفقير . وسمّانا معا في مكتوبه باللغة التركية . ولما أردنا السفر قال لي الباي بمحضر خير الدين [وغيره من الوزراء] : ما تُنتِجهُ وجهتكما من المصلحة تُنسَبُ لكما معا ، وان وقع ضدُّها فلا أنْسُبُ لخير الدين منه شيئا ، ولا اكافح شيبته بملام ، انما الملام عليك وحدك ، فكن عند الظن . [ولما استعظمتُ الامرَ] (2) أصحبني شيخُنا العلامة ابو اسحاق ابراهيم الرياحي مكتوبا منه للعلامة الحجة القدوة السيد عارف باي ، وأعطاني مسودّة المكتوب ، وهي عندي بخطه أتبرك بها ، ونصّها : « المقام الذي رفع الله قدره ، وأكمل في سماء العزّ بدره ، وطهّر من الدنس سرّه وجهره ، وطيّب في أنف الدهر ذكره ، مقام مولانا الهمام الامجد ، والإمام الاوحد ، غرة سعادة الايام ، وواسطة عقد نظام العلماء الاعلام ، صدر صدور الافاضل ، ومزية الاواخر على الاوائل ، مَعدِن الاسرار واللطائف ، وكعبة العلم التي يثوب اليها كل طائف ، ابو العباس سيدي أحمد عارف ، أدام الله إسعادَه ، وأفاض على البرية إمداده ، سلام تفوح أعطاره ،

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « مع الهدية » .

(2) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وتبوح بسرائر المودّة أسراره ، لا يهتدي لكماله تنقيص ، ولا يعتري عمومَه تخصيصٌ .
هذا وإنـي من حين بلوغ كتابكم الكريم ، المعرب عن ودادكم القديم ، المصحوب بصِلَتكم المرفوعة على المَفْرِق ، المذكـرة بالسُّنْدُس والاستَبْرَق ، مقيم على شكر إفضالكم الجليل ، إقامة شَامَة وطَفيل (1) ، سائل عن أحوالكم كلَّ مَظِنَّة ، فيقع الجواب بما لله فيه المِنّة . هذا واستمدّ من مدد جاهكم المقبول ، وعزكم الذي لا يحول ولا يزول ، إعانةَ احد ابناء قلبي ، الذي هو أعزّ من أبناء صُلْبي ، نخبة نجباء أبناء درسي ، وأشْكُرُ مَن تمتّع بثمار غرسي ، مختار ديوان الإنشاء ، المبوّأ من مراتب الدولة ما يشاء ، القائم منها مقام الانسان من العين ، المنزّل من الباشا منزلة الحسن والحسين ، فُلان (2) ، فانه وارد إلى حضرتكم العلية ، في قضاء لُبانة سلطانية ، فمرادنا من عليّ همتكم إعانَتُه بالامداد والإسعاد ، حتى يبلغ من أمله نهايةَ المراد . والله تعالى يُبقيكم للاسلام ، ويجمع شملكم بخير الانام ، في الدنيا قبل يوم القيام ، آمين . من معظّم قدركم ابراهيم الرياحي » . اهـ .

وسافرنا في الثامن والعشرين من محرم سنة 1258 (الجمعة 11 مارس 1842 م.) ، ومعنا أبو عبد الله كشك محمد في الكرويطة المُهْدَاة . ولما وصلنا القسطنطينية العظمى قابلتنا الدولة العلية بما يقتضيه فضلها ، وقَبِلت الكرويطة أحسن قبول . وأتاها السلطان عبد المجيد وطلع إليها وأكل فيها ما أعددناه لتلقّيه . وقابلنا في الجفن المعروف بالمحمودية ، فاستحسن الهدية وشكر المُهدِي ودعا له وللوطن ، [ومركز دعائه حفظ عِصَابة المسلمين وإعانتهم على ما فيه الصلاح] (3) .

ووزير البحر يومئذ طاهر باشا ، والصدر الاعظم عزت محمد باشا ، ورشيد باشا إذ ذاك متخلٍّ عن الخطّة . ثم استدعانا « حربية ناظري » ، وهو نجيب علي باشا ، من أعيان الوزراء يتكلم بالعربية ، الى بستانه في البوغاز ، وأكرم مبيتنا عنده ، وكلّمنا في شأن اللحمة الاسلامية بأداء شيء من المال في كل سنة [موكول تعيين مقداره للباشا ، ولو أقل مما أتيتم به الآن ، اذ المقصود به ربط الالتحام لا الالتحام] (4) ، فقلنا له :

(1) شامة وطفيل : جبلان قرب مكة (ياقوت) .
(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « الشيخ احمد بن ابى الضياف » .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) الزيادة عن ع و ق .

« إن الالتحام لم يزل في زيادة ، ما دامت العادة . وعلى فرض ان الباي يخرقها ، فأهل المملكة لا تُطيعه على ذلك ، لان أكثرها بوَادي العربان » . ثم استدعانا الصدر الاعظم عزّت باشا ، ومعنا القبطان كشك محمد ، فتكلّم في شأن المال وأجبناه . ثم قال لنا : « أترضون أن يكون صنجق بلادكم في هذه الحاضرة مخالفا لصنجق الاسلام ؟ » ، فتقدم له كشك محمد وقال له : « ان هؤلاء لا دخل لهم في شيء من لوازم الشقوف (1) ، لانّهم رُكّاب ، واما الصنجق فهو أمانة الله عندي وفي وجهي ، لا أزيله إلا بعد زوال رأسي . ونحن الآن تحت أمركم ، ويدكم طائلة . فابعث لإزالته وأبدله بما شئت » ، فقال له : « المناسب ان يكون ذلك منكم بلا غصب » ، فقال له القبطان : « نبلّغ ذلك لصاحبه وكاتبِه أنت بما تراه » ، فقال : « بلّغوا ذلك عنّي مشافهةً له » ، فقلنا له : « نعم » .

ثم كلّمنا في شأن التنظيمات الخيرية وقال : « ان الحال يقتضي السرعة بترتيبها ، وأنتم بدونها في خطر » . ثم خصّني من الجماعة وقال لي : « ان السيد عارف باي عنده كلام معك في ذلك » . وأما طاهر باشا فلم يكلمنا في شيء من ذلك ، وقد أكرمنا غاية الإكرام ، ويبدو من حاله ان رأيه مخالف لرأي رشيد باشا .

وتفضل السلطان على بحرية التوانسة وضبّاطهم بخمسين ألف قرش وزّعها خير الدين على جماعتهم .

ثم استدعاني السيد عارف باي لضيافته ، وسامرتُه فرأيت بحر العلم الزاخر ، ومِصْداقَ « كم ترك الاوّل للآخر » ، ومتَانة الدين ، وفكر المجتهدين . وسألني عن شيخنا ، وقد بعثتُ له مكتوبه يوم وصولنا ، وبالغ في الثناء على الشيخ [شأن المنصفين] (2) . ثم تكلم في شأن التنظيمات وأطال ، وأنها من اصول دين الاسلام ، حتى قال : « يقبح بنا ، معاشر المسلمين ، ان يغصبنا غيرُنا على أعظم أصول ملتنا ، وهو العدل الذي يحبه الله ولا يحب غيره ، وكأن هؤلاء الملوك يريدون مشاركة الله في

(1) في خ : « الشقوف » وفي ع و ق : « المراكب »

(2) الزيادة عن ع و ق .

كـونه يفعل ما يريد ولا معقّب لحـكـمه » ، الى غير ذلك ممـا تقدم في العقد الاول من هذا الـكـتاب (3) .

وكـلـّما عارضتُـه بشبهة اجتثّ أصلها وبتّ وصلها . وأوصانـي ان أقول للباي على لسانه : « الدين النصيحة لله ورسولـه وأيمـّة المسلمين وعامّتهم . وهذا الامر لا بـدّ منه ولو بعـد حين ، فمن الحـزم ان يتـدرّج العـاقل في سُلـّمه باختيـاره » . ولم يـكـلمني في غير التنظيمات من المطالب ، وهو ممـن يرى مخالفةَ رشيد باشا ، ويُنقَل عنه انه يقول : « لأن يـكـون سلطانُنا سلطانَ السلاطين خير من ان يـكـون سلطان البـاشاوات » وبهذه السياسة اتسعت المملـكـة العثمانية وسهلت عليها الحروب . ثم صار هذا الفاضل يطلبني لمسامرته والمبيت عنده ، مراعاةً لمكـتوب شيخنا المتقدم ذكره ، وذلك من فضله . وغَنِمتُ من فؤاده ما يُزري بالنُّضَار ، ورأيت ذلك الفـكـر كـيف يَسبَح في لـجج الأنظار .

سامرتُه ليلة فأومض برق من جهة المغـرب ، فقـال لي : « هـذا البـرق من جهـة بلادكم ، فهل لك ان تقول فيه شعرا ؟ » ، فاعترفت بقصوري وأخـذت دَواة وناولنـي بطاقة ، وقال لي : « كـن في ذلك الركـن » . ثم أخذ كـتابا وشرع ينظر فيه ، فلم يَفُه أحد من الجماعة ببنت شَفَة حتى أتممتُ ما تيسّر ، وهو :

تـألّـق غـربيـا فذكـّرني الخَضْرا ... وأذكـى لنار الشوق في كـبدي جمـرا
اذا ما سلا قلبي بـروض علـومكـم ... أتتـه جنـود العهـد تطلبـه قسـرا
تُثير قَتام النَّقْع في رَحْب صـدره ... فتملك منـه القلـب والسـرّ والجهـرا
ويرتـاح للغـارات من عَدْوِ خيلها ... فيـوري لهـا جنبـا لتـأخـذه قهـرا
حنينا إلى أنسـي ومَعْهَدِ رِفْقَتـي ... ومنشـا شبـابـي لا عَدِمْتُ به فَخـرا
بـلادي التي ربّت وحنّت وهذّبـت ... فبائسهـا مـا إنْ يجـوع ولا يَعْـرَى
سقى حَلْقَ واديها وكـلّ حُصونهـا ... من السحب غيث يُمطِر العزّ والنصرا
بنفسيَ أفـديهـا وأحمـدَ حِبَّهـا ... وأقطـع في مرضـاته البَـرّ والبحـرا

(3) بهامش ق 2 : 223 ، وبخط مغاير : « وجد بآخر مكتوب من المؤلف حال ايابه ، مؤرخ فى 7 يوم الاربعاء سابع جمادى الاولى سنة 1258 ، ما نصه : وقد وجدت باسلامبول رجل فقيه (كذا بالاصل) تونسى اسمه السيد محمود قبادو ، يقرىء البيضاوى . وله رغبة فى الرجوع لوطنه ، فأسعفته . ووجه معى صنـاديق كتبه نحـو ثمانية . ووعدنى أن يلحق فى الفابور ، فوجدته بمـالطة سبقنا . ولما تتم الكرنتينة يقدم . وهذا الرجل أصله مؤدب بدار سيدى الكاهية ، وسافر من تونس وقرأ . وهو الآن من اعيان الطلبة . وما كنت اعرفه من قبل الا فى اسلامبول وذكر لى انه يعرف سى حمدة الشباب ، والسلام » .

حماها وألقى نفسه دون نَيْلها — وقد جالت الايدي بِضَرَّتِها الأُخرى

وصعّب ملقاها وسهّل عيشها — وزيّن مرآها فللّه ما أدرى !

فأضحت وعيناها من العشق ما ترى — سواه ، وقد ضمّته ،في جيدها صدرا

فلا زال منصورَ اللواء مؤيّدا — وفخرُ بني عثمان يُلبسه ستـرا

هُمَامُهُمُ عبدُ المجيد إمامُه — وقد وتُه في كل مُعضلة كبرى

يدوم له التأييد والنصر والهنا — ليُبقي لدين الله من عزّه ذِكْرا

وناولتُه ذلك على خجل فلمحه بعين الرضى ، وقرأه على الحاضرين ، ثم قال لي : « ناشدتك الله أيّ الضرّتين أردتَ ؟ » ، فقلت له : « المتبادر في الخارج » ، فقال : « كلٌّ منهما متبادر » ، وكأنه استظرف ذلك . وقال للحاضرين : « كاشفتُ عن ضمير الشيخ فاذا فيه ان ضرتها الاخرى هي طرابلس ، وسياق الحال من اسباب قدومه يشهد لي ، ولفظ « الاخرى » ايضا يشهد لي » .

وما زلنا في كرم تلك الدولة العلية ، وفواضلها الجلية ، الى ان تمّ طرز السَّتْري (1)، فرجعنا ، وأتى معنا القابكايه (2) ، واسمه عارف زكي ، من رجال القلم ، في فرقاطة عثمانية ، ومعه نيشان يوضع في مقدم الشاشية ، زيادة على نيشانه الاول ، يلبسهما معا ، وثوب محلّى وهو السّتري . ووجدنا الباي بحلق الوادي ، فأكرم رسول الدولة وغمره باحسانه ، وأنزله في مَنّوبة . ولم يفتح له باب المخاطبة والحِجَاج الذي قدم لأجْله ، واشتد حذره لمّا علم تصميم الاكثر من رجال الدولة على رأي رشيد باشا في التنظيمات ، لانه أجاب الدولة بأنه يفعل ، ولا يجد عُذْرا ولا بُدّا منها ، وأنّ الدولة العثمانية تجد اليه السبيل شرعا لغصبه على فعلها ، لا سيما والطبع البشري مجبول عليها .

⁂

وفي يوم الاثنين ثالث وعشرين جمادى الثانية من السنة 1258 (1 أوت 1842 م.) ، عزل الداي مصطفى الطرابلسي (3) . وسببه الظاهري ان الفقيه الوجيه أبا المحاسن يوسف ابن العالم الفقيه أبي يعلى حمزة الجباس ، ركبه دين أثقل ظهره ، وسُجن لاجله في

(1) رداء مطرز كان من الازياء الرسمية .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « القابكاهية » ، ومقابله في الاروبية : Hospodar

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « عزل الباي الداي مصطفى المتقدم ذكره » .

محبس الداي ، فوقعت مشاجرة بينه وبين أحد المساجين ، ووصل خبرهما الى الداي ، فأحضرهما وأمر بضرب الفقيه يوسف الجباس [بين يديه] ، فنمى الخبر للباي ، وكان غيورا على أهل (1) البلاد ، فعزله وأولى عوضه باش حانبة احمد داي المتقدم جميل أثره في قومة (2) الترك سنة 1231 ، إحدى وثلاثين (1815/16 م.) . وبعد ايام قليلة عَمِيَ مصطفى المعزول وتوفي إثر ذلك . والسبب الحقيقي في عزله انه لما قُرِىء فرَمان التنظيمات ، وهو ممن يشار اليه في ذلك الموكب ، شرع يبكي ويفسّر للناس [بالعربية] معاني الفرمان المجبول عليها الانسان ، فأسرها [الباي] في نفسه ، ويذكرها في خواصّه ، حتى وجد [لِعَزْله] (3) هذا السبب (4) .

وفي شعبان من السنة 1258 (سبتمبر — اكتوبر 1842 م.) ، رتّب الآلاي الخامس ، واقتضى حزمه أن يدفع لاميره ، وهو صهره الاجلّ أبو عبد الله محمد المرابط الغرياني من أعيان بيوت القيروان ، الأَلوِيةَ في موكب مشهود ، وأمرني ان أقوم في الموكب بمقال مناسب ، تصفّحه قبل قراءته .

ولمّا كان يوم الاربعاء السادس عشر (5) من الشهر (21 سبتمبر 1842 م.) ، جمع اكابر العسكر في المحكمة سِماطَين ، ووقف ابن عمّه أبو عبد الله محَمد باي عن يمينه ووزيره أبو النخبة مصطفى خزنه دار حذوه ، والوزير مصطفى صاحب الطابع عن شماله والوزير ابو النخبة مصطفى آغة حذوه ، وبأيديهم الصناجق ، وآل بيته مُحْدِقُون به . ولما أخذت الناس مراكزَها أشار إلي ، فقلت ما نصّه :

« الحمد لله الذي جعل للراية شانا ، وألّف بين قلوبنا فأصبحنا بنعمته إخوانا ، وعلى طاعة أميرنا وحماية وطننا أعوانا ، نفزع لذلك شيوخا وكهولا وشبّانا ، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تملأ القلب إيمانا ، واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله أرفع الانبياء مكانا ، صاحب لواء الشفاعة يوم يَنصب الحقّ للخلق قِسْطاسا وميزانا ، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا بالنهار أسُودا وبالليل رُهْبانا ، حتى شيّدوا من معالم المِلّة أركانا .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « على أعيان البلاد » .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ثورة الترك » (انظر ص 119 ج 3) .
(3) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « هذا السبيل » .
(5) هو 15 حسب التقويم .

ايها الوزراء والامراء ، وأعيان الكبراء ، وحَمَلَة السيوف ، ورؤوس الصفوف ، والامناء على الالوف ، ومن لهم المقام المعروف ، أخاطبكم بلسانكم ، معبّرا عن الثابت في جَنانكم ، الساري مسرى الدّم في أبدانكم ، عامّتكم وأعيانكم ، ان مولانا وسيّدنا المشير احمد باشا باي وليّ نعمتنا ، ومدارَ عصبتنا ، واجبَ الطاعة بالحق ، على من في هذا القطر من الخلق ، ومن نرمي رؤوسنا قبل أن تُسام عصاه بشقٍّ ، مستحقّ الإمارة إرثا واكتسابا ، جزاء من ربك عطاء حسابا ، استأنف لهذه الدولة الحسينية شبابا ، وانتُدِب إلى إعزاز نسبتنا التونسية انتدابا ، وألبس قطرنا من شعار الرفعة جلْبابا ، وسدّ دونه من المذلّة والمكاره أبوابا . فالواجب على همم الرجال ، وأبطال الاوجال ، أن تلقي في مرضاته الارواح والابدان ، وتختار شرف الموت عن مذلّة الهوان ، وقد زاد الآن في عصبتنا ، ونظم في سلك جماعتنا ، جيشا كاملاً من إخوتنا ، ودفع لهمّتهم هذا اللواء المنصور ، فليَهْنِيء (1) جميعَنا هذا السرور . واللواء عماد معلق به الهمّة والعِرْض (2)، وحبُّ الوطن والارض ، فلذلك كانت غيرتنا عليه واحدة ، وقلوبنا على إعزازه متعاضدة ، إذ هو مظهر عرضنا (3) وبلادنا ، تربة آبائنا ومَنْبِت أولادنا ، المحوطة بصدورنا من أضدادنا ، ونفوسُ الاحرار ، تموت في رعي الجوار ، أحرى في الدفاع عن الوطن والدار ، تونسُ دارُنا ونعمت الدار ، والاعتماد على الله شعارنا وهو نعم الشعار ، وأحمد أميرنا ونلقي النفس دونه الى النار . وبهذه النيّة نَبْسُط الى الله أكفَّ الضَّراعة ، ونسأله الإعانة على ما أوجب لاميرنا من فروض الطاعة ، وحمايةَ أوطاننا من التشتيت والإضاعة ، وأن يقوّيَ العِصَابة الاحمدية في صدور الجماعة ، ويجعل الملك فيه وفي عَقِبه الى قيام الساعة . ربّنا عليك توكّلنا واليك أنَبْنا واليك المصير ، قرعنا باب فضلك وهو بالإجابة جدير ، متوسلين في بقاء هذه النيّة الصالحة ، ببركة رسولك وبسرِّ الفاتحة » .

وعند ذلك ناول بيده الصناجق للأمراء ، بعد اليمين على العادة النظامية ، وختم الموكب بقراءة الفاتحة .

---

(1) فى خ و ع و ق : « فليهن » .

(2) كذا فى خ و ع ، وفى ق : « الغرض » .

(3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « غرضنا » .

وفي هذه السنة 1258 ، أحدث الباي لزمة الجبس ، وجعل بمقطعه معملاً ، وقصر بيعه على الدولة ، وزاد في ثمنه ما لا يجحف كل الإجحاف . ونفقة العساكر ألجأت الباي الى المكوس ونحوها .

*

وفي رمضان من السنة 1258 ، (27 رمضان — 1 ديسمبر 1842 م.) ، رتب الباي ثلاثين مدرّسا بجامع الزيتونة ، نصفهم من المالكية ونصفهم من الحنفية ، وحبّس عليهم دخل بيت المال ، وهو إرث من لا عاصب له . وكتب ذلك في منشور بالذهب ، وختمه بطابعه ، وعلّقه عند باب الشفاء من جامع الزيتونة ، وأمرني بالإطناب فيه ، ونصّه :

« الحمد لله رافع العلماء على ذُرَى شرف كامل ، الذي لا يُضيع عملَ عامل ، ولا يخيّب من فضله العميم أملَ آمل ، مُعوِّد العلم وأهله بكل يُسْر شامل ، ومُنْجده في الأزمات بكل كاف من أوليائه وكافل ، ومُمِدّه بناصر بعد ناصر ومناضل بعد مناضل ، من كل إمام مجتهد أو ملك فاضل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أصدق قائل وأكرم فاعل ، منقذنا من بحر جهل بلا ساحل ، وقائدنا إلى السعادة في العاجل والآجل ، والملجأ المنيع من كل خطب هائل ، وعلى آله وأصحابه أدلّة كل عارف وسائل ، السابقين في ميدان الإيمان بما شاؤوا من بأس ونائل ، والممتازين بكرم السجايا وطيب الشمائل ، ونستوهب منك اللهم عنايةً لا تَطْرُق الخطوبُ حِماها ، ولا يغيّر الدهرُ اسمَها ولا مسمّاها ، وعزًّا لا ينتهي حدّه ، ونصرا يمضي في الاعداء حدّه ، لهذه الدولة الاحمديّة الحسينية ، وشجرة الملك التونسية الربّانية ، العزيزة الحمى ، التي أصلها ثابت وفرعها في السما ، استظلت به الخضراء تونس ، وأبدت جمالها المونس .

اما بعد فان العلم أنفس البضاعات ، وأرفع الدرجات ، ناهيك بقول الحق : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ » (1) ، دلّ على شرفه العقلُ والكتاب ، بصريح الخطاب ، « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ » (2) . والواجب على من قلّده الله

(1) س 58/آ 11 .

(2) س 39/آ 9 ، ونص الآية الكريمة : « قل هل يستوى .... الآية » .

أمرَ عباده ، في أرضه وبلاده ، أن يَبذل في تكثيره منتهى اجتهاده ، حتى يفوز من فتح البصائر بغاية مراده . وقد ألهم الله لهذه المَنْقَبة التي تُردَّد وتُذكَر ، وبكل لسان تشكر ، ولا يُجْحَد فضلها ولا ينكر ، بل جَحْدها في الدين من المنكر ، أميرَ العصر ، ومشيرَ هذا المصر ، الذي دأب على حوطة المجد وجدّ ، وورث الملك من أب وجدّ ، واستغرقت كمالاته الحصر والعدّ ، وبلغ في السياسة منتهى الحدّ ، واستعذب في إعزاز هذا القطر المشقّة والكدّ ، وغلّق دونه ابواب المكاره وسدّ ، وقوّاه بجنود من أهله ورأي أسدّ ، الملك المطاع ، قرة العيون ونزهة الاسماع ، المنعقد على فضله الإجماع مولانا وسيدنا ذلك المشير أحمد باشا باي أمير المؤمنين بالقطر التونسي ، أعزّ الله به عِصابتَه ، وأدام إصابته ، فأمر بهذا الرقيم ، المتلقّى بالطاعة والتعظيم ، في أن جميع دخل بيت المال الذي كان يستعين به على مصالح العباد ، ومهمّات البلاد ، جعله إعانة للعلم الشريف على ترتيب أنتجه فكره السديد ، ورأيه الصائب الحميد ، وهو انتخاب خمسة عشر عالما من المالكية ، ومثلهم من الحنفية ، وَجَعَلَ لكل واحد منهم ريالين في كل يوم ، على ان يقرىء بهذا الجامع الاعظم دَرْسَين في أي فن وفي أي وقت تيسر له من النهار ، ومن تخلّف بغير عذر شرعي لا يستحق المرتب أيام تخلّفه ، الا يوم الخميس ويوم الجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين . وقلّد النظر في ذلك لشيَخَي الإسلام الحنفي والمالكي ، ومرتّب كل واحد منهما على النظر مائة ريال في كل شهر ، وأعانهما على النظر في ذلك بالقاضيين الحنفي والمالكي ، وجعل لكل واحد منهما ثلاثة ريالات في اليوم ، بشرط ان يأتي كل واحد من الاربعة يوما الى الجامع لتحريض المتكاسل وطرح مرتب من لم يحضر من المدرِّسين بغير العذر الشرعي . وقلّد هؤلاء المشايخ الاربعة النظرَ في حفظ بيت المال وضَبْطِ دخله وخرجه ، ومباشرةَ أمور القيّمين به ، وعرضَ ما يتعلق بذلك بين يديه لينفذ ما يظهر له مصلحته من ذلك . ولم يُبقِ مصرفا في بيت المال لاحد عدا العلماء المذكورين والمشايخ والنُظّار والقيّمين عليه ، وتجهيز دفن الغرباء . كما أمر بتحرير مصرف بيت المال في ظهير بيد الآغة لا يتجاوزه . وبعد كل ستة اشهر من شهر التاريخ يحضر القيّمون على بيت المال في الجامع لدى المشائخ الاربعة ويحاسبونهم على الدخل والخرج فصلاً فصلاً ، ويسطّرون المحاسبة مصحّحة بخطوطهم ، وتُرفَع الى مولانا ليأمر بامضائها . واذا فضل في بيت المال شيء من المصرف المذكور فان الفاضل يشترى به عَقَار ليكون رَيْعه تقوية لبيت

المال ، وذلك مدة خمس سنين . وبعد السنة الخامسة ، اذا فضل شيء من دخل بيت المال الذي منه دخل العقار المشترى من فاضل الخمس سنين ، فان ذلك الفاضل يقسم على المنقطعين لقراءة العلم على المشائخ المذكورين ، سَوِيَّةً بينهم . ولا يستحق ذلك الا المواظب على القراءة . والنظر في قسمة ذلك على المواظبين من الطلبة للمشائخ الاربعة . واذا نقص واحد من هؤلاء الثلاثين عالما ، فان من يتولى عوضه يكون باتفاق المشائخ الاربعة ، ينتخبون أعلم الموجودين في العصر . وان تساوت رتبة الموجودين فلا بدَّ من امتحانهم بالمناظرة بمحضر المشائخ حتى يكون من تقدم انما هو بنفسه . ويُرفَع اسمه إلى مولانا ليأمر له بظهير في خُطَّته يستحق به المرتب المذكور . وحكم ، أيده الله ، بجميع ذلك وأمضاه ، وألزم العمل بمقتضاه ، رغبةً في إظهار العلم وتحصيل علاه ، والهدى هدى الله. وأمر ، أدام الله أمره ، وأعلى في الخافقين ذكره ، برسم هذا الظهير في هذا البيت المعمور حرصا على بقائه على شرطه مدى الدهور ، لا سبيل لنقضه بعد إبرامه ، ولا لنَسْخه بعد إحكامه ، يُديمه الله ورسوله والمؤمنون ، وتقوِّيه الأعصار والسُّنُون ، ومن سعى في نقضه فما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقَلَب ينقلبون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ، والله خلقكم وما تعملون .

وكتب في 27 رمضان سنة 1258 .

[وظهرت عنايته بهذه المَأثَرة] (1) ، وأتى الجامع مرارا في غير أوقات الصلاة ، ويجلس وراء حَلَق التدريس ، ولا يقوم له الشيخ ولا أحدٌ من الطَّلَبة ، تحريكا لعزائم الطلبة وترغيبا لهم فيما يقرِّب الى الله زُلْفَى ، ويُثمِر في الدنيا العزَّ الاَوفَى .

وميَّز هؤلاء المدرسين عن غيرهم بأن يأتوا في الاعياد مجتمعين ، يؤمّهم كبير أيمّة الجامع الاعظم ، وَيقبَلهم بعد أهل المجلس الشرعي ببيت الباشا . ولم يزل يوجّه لهم العناية .

وفي هذه الايام نَفَقَ سوقُ العلم وتجدَّد شبابه ، وسال سيله وعَبَّ عُبَابُه ، وانفتح للاجتهاد بابُه ، وتظاهرت أسبابه ، وأشرقت بأفق هذه الحاضرة نجوم وأهلّة هم الآن شموس وبدور ، تتجمّل بهم [المحافل و] (2) الصدور . والله لايضيع أجر من أحسن عملاً .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ق .

وفي العاشر من شوال السنة 1258 (الاثنين 14 ديسمبر 1842 م.) ، أسقط مالاً كان مرتّبا على أهل جربة من أيام عمّه ، على يد الوزير شاكير صاحب الطابع ، بواسطة أحد أعيانها أبي الفلاح صالح بن صالح ، وبه سلِمت جربة من مظالم العُمّال برهة من الزمن ، وقصرت أيديهم عن التعدّي بعضَ قصور . وأهل جربة أعظم ثروتهم من المتجر ، وهو يقتضي وجودَ المال ، وبذلك سهل عليهم تحمّل ذلك الترتيب ورأوه أخفَّ الضررين ، بل ساءهم إبدالُه . وأمرني بكتب منشور لاهلها نصّه :

« سبحان من أناط بالعدل العُمْران ، وخص بالسياسة نوعَ الإنسان ، وشرّفه بالاصغرين القلبِ واللسان ، وهداه إلى تعمير الامصار وحماية البُلدان ، أحمَده وهو المحمود بكل لسان ، والصلاة على سيدنا محمد فائدة الاكوان ، المخصوص بمعجزات القرآن ، ومن آياته : « إنَّ اللّهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ والإحْسَانِ » (1) ، وعلى آله وأصحابه أولي الشان ، الذين أذلّوا بعزّة الله أنوف الطغيان . أمّا بعد فهذا ظهير بني على العدل أساسه ، ودلَّ على ما يرضي اللهَ التماسُه ، وأضاء بالصلاح نِبْراسه ، وزكت فصوله وأجناسه ، حرّرناه وأمضيناه ، وألزمْنا العملَ بمقتضاه ، لكافّة أولادنا سكان جِرْبة حرسها الله وسائر القُطْر التونسي بعين عنايته ، وأسبل عليها وعلى ساكنيها سِتْرَ عافيته . لما رأينا الاداء الموظّف عليهم مخالفا للقوانين الشرعية والعقلية ، وأدلّة ذلك واضحة جلية ، لانه موظّف على الرقاب ، لا على نتائج الاسباب ، وبسبب ذلك يَقِلُّ الامل ، ويَنقُص العمل . على أن سكان جِرْبة من رعيّتنا ، الباذلين نفوسهم في طاعتنا . فالواجب ان يكون حكم جميع سكّانها واحد (كذا) ، والاولاد يرغبون في تساويهم عند الوالد ، ونسبة الرعيّة لراعيها كنسبة الاولاد ، يسدُّ عنهم طرق الخلل وطوارق الفساد ، حتى يبلغ من نجاحهم المراد . فلذلك أسقطنا جميع المال الموظف على أهل جربة ، ورأيناه الى الله قُرْبة ، إسقاطا تاما ، مُطلَقا عامّا . ولم نُبقِ عليها شيئا من الأداء سوى العُشُر والصاع والمحصولات ، لان ذلك يتبع المكاسب لا الذوات ، فما ضرَّ مَن أنعم الله عليه ، أن يدفع نَزْرا ممّا لديه ، يحمي به النفس والمال والبلاد ، تربة الآباء ومنبت الاولاد ، إذ مصرفه المهمّات والاجناد ، وغير ذلك من وجوه السَّداد ، واذا رجع العاقل لحَدْسه ، يجد ما أخرجه من يده إنما هو لنفسه ، سنّة الله التي قد خلت في عباده ، على حسب حكمته ومراده . ونحن

---

(1) س 16/آ 90

بمقتضى ما يجب علينا من مراعاة صلاحكم ، والسعي في نجاحكم ، نقدّم مصلحتكم على وفور المال ، ونرجو خلفه بنموّ الاعمال ، وعلى الله بلوغ الآمال . أسأله سبحانه أن يقوّي طاعتكم المقرونة بايمانكم ، ويزيد من فضله في عُمْرانكم . وهذا الخطاب حرّرناه للعلماء والمقدّمين والمشايخ والاعيان وكافّة سكّان جربة ، فافتحوا لفهمه الالباب ، وتصفّحوا هذا الكتاب ، ولتكن قِراءتُه في جامع الصلاة وغيره من المشاهد ، والعشر زكاة ، وهي أخت الصلاة . وهذا الامر يبقى لكم حجة ، في هذه المحجّة . والله يحكم لا معقّب لحكمه ، والسلام .

وكتب في العاشر من شوال سنة 1358 .

***

وفي ربيع الاول من سنة 1259 ، تسع وخمسين ومائتين وألف (افريل 1843 م.) ، توفي شيخ الاسلام العلامة شيخنا ابو عبد الله محمد ابن [شيخ الاسلام ابي عبد الله] محمد ، ابن [شيخ الاسلام أبي عبد الله] (1) محمد بيرم . ولم يحضر الباي جنازته لعذر منعه يومئذ ، وبعث سائر أهل بيته ، وكبير الوزراء مصطفى صاحب الطابع ، وأعيان رجال الدولة . وصلّى عليه ابنه الشيخ المفتي ابو عبد الله محمد بيرم ، وهو الذي تقدم عوضه لرئاسة الفتوى والمجلس الشرعي ، وتقدم لخطة القضاء بالمذهب الحنفي الشيخ الفقيه الإمام أبو الثناء محمود ابن الامام أبي محمد حَمّودة باكِير .

***

ولما تكاثر الكلام في شأن التنظيمات الخيرية ، وعلم الناس أصولها ورأوا فروعها ، لا سيما بعد أن قَدِمنا عليه من إسلامبول ، وقررنا له ما شاهدناه ، وبلّغت له رسالة عالم المشرق أبي العباس أحمد عارف باي ، وأتيته بنسخ من تعريبها ، أخذ جميعها ، وكان ذا فكر يحقّق الامور قبل حصولها ، ويُنذِر بها قبل وصولها ، تحقق أن صبح الحريّة المحبّب لكل موجود ، بدأ انتشاره من المشرق في آفاق الوجود ، فأقبل على المحمدية ، وتَذْكُرها (2) عامّة بلادنا بالشؤم ، ومستندهم ، والله اعلم ، ان ابا القاسم بن عبيد الله

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) هنا يبتدىء استطراد طويل ينتهى فى السطر 21 من ص 72 عند الرجوع الى الحديث عن التنظيمات الخيرية .

المهدي الفاطمي لمّا وجّهه أبوه لغزو مصر والاسكندرية ، وفَتَحَ الفتوحات ورجع ، ابتدأ في بناء مدينة المسيلة (1) ، بعد خرابها سنة 313 ، ثلاث عشرة وثلاثمائة ، وسماها المحمدية. وعند تمامها أخذت دولة العبيديين في التراجع ، وثار عليهم الداعي (2) أبو يزيد صاحب الحمار . وانتقض عامل فاس والمغرب وبايع لبني أمية بالاندلس ، وفيها مات ابو باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري ، من دولة صنهاجة ، بلسعة عقرب ، وحمل منها ميّتا في تابوته الى القيروان . وفيها انهزم السلطان ابو اسحاق ابراهيم ابن أبي زكرياء [من الحفصيين] ، وفرّ عسكره عنه ، فنجا من المحمدية برأس طِمِرَّةٍ ولِجام . واستولى عليها الخراب بعد ذلك الى دولة الداي اسطامراد ، فملك أرضها واتخذها للحراثة و [ذباب] (3) النحل ، وبنى بها دارا وعمّرها بمن على ملكه من الاَسْرى . ثم اشتراها من ورثته الوزير ابو المحاسن يوسف صاحب الطابع ، فبنى بها قصره الباقي بعضه لوقتنا هذا ، وغرس بها بستانا وزيتونا ، وكانت من مواضع نزهته ، وخرجت عن ملكه بما تقدم من خبر قتله . ثم أخذها الوزير شاكير صاحب الطابع وزاد في أبنيتها وغرس بها الزيتون ، واتخذها دار سكنى . وخرجت عن ملكه بموته قتيلا ، وجيء بأهله منها ، فأعطاها الباي لوزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، فزاد بها بعض شيء ، وأمّل أن يُجرِيَ بها الماء ، وانقذه الله منها . ثم ان الباي استرجعها منه ، وعوّضه عنها برَبْع . ولما استولى عليها اتخذها رباطا للعسكر ، وبنى فيها الابنية الضخمة من البيوت المتسعة والغرف الانيقة ، وأنفق عليها كثير دخل المملكة . ووجّه إليها عنايته حتى كاد ان لا يتفرغ لغيرها ، وحمل رجال دولته على بناء دُور بها ، وأذِن للناس في ذلك وأعانهم عليه حتى عِيبَ بالإفراط في ذلك ، وغَلَطُ الكامل على قدر كماله . ومنعه الاستعجال في ذلك عن إحكام البناء ، والعجول مخطىء وإن ملك . وهي على شؤمها أضيق من حافر ، وأوحش من مفازة ، تُسقَى ببئر واحدة من آبار الجاهلية (4) ، إلا أنه حلو المذاق .

---

(1) وردت فى ع و ق مشكولة بكسر الميم والسين ، وانظر ص 124 ج 1 ، والملاحظ ان المحمدية التى بقرب تونس ، كانت تسمى قديما « طنبذة » ، ومنها منصور الطنبذى الثائر على بنى الاغلب سنة 209 هـ ، أما المسيلة التي يسميها بنو عبيد المحمدية فهى قرب هوارة من التراب الجزائرى الآن ، وقد اختلط أمر المحمديتين على المؤلف ، فنسب ما لهذه لتلك .

(2) فى خ شطب على الالف من الداعى .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « آبار الاقدمين » .

ولما أتمّ بناء مساكن العسكر بها في سنة 1259 ، تسع وخمسين (1843/44 م.) ، أحيا فيها ليلةً بالقرآن العظيم ، والصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحزاب الامام الشاذلي وأوراده . ومن الغد نصب الوطق أمامها ، وجمع اهل المجلس الشرعي ورجال الدولة . ولما جاء العسكر خرج بنفسه لتلقّيه ، واقفا في حرٍّ الشمس . ولما تمّ دخوله وتفرقوا لبيوتهم ، هنّأه اهل المجلس الشرعي ورجعوا .

وأرّخها العالم الاديب ابوعبد الله محمد الطيب ، ابن شيخنا أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، وكتب التاريخ بأعلى بابها المعروف بباب باردو ، لانه أقرب للقادم من باردو ، ونصّه :

انظر لها تأسر طرف النبيل	وتسحر اللبَّ بصنعٍ جميل (1)
بارعةَ الحسن ولكنّها	رائعةٌ قلبَ الحسود العليل
تاهت على الآفاق في منْعة	وعزٍّ شأن وفَخَار أثيل
خطيرة جاد باظهارها	طالع سعد وقِران جليل
على التقى أسّس بنيانها	وفي سبيل الله نعم السبيل
أقَرَّ عينَ الدين إبداعُها	وأسلَمَ الكفرَ لهمٌّ طويل
دار حُماة الدين آساده	أنصاره في كلٍّ يوم ثقيل
قد تاجروا الله بارواحهم	تجارة جاءت بربح جزيل
انشأها أحمد باشا الرضى	خير مشير جاء في خير جيل
الملك السامي عِمَاد العُلىَ	الشامخ العزٍّ الكريم المُنيل
ذو المَكْرُمات الباهرات التي	ما ان لها في سمعنا من مثيل
وهذه القشلة من خير ما	انتجه رأيُ حِجَاه الاصيل
له بها الصِّيت البعيد المَدَى	وللورى ظِلٌّ أمان ظليل
مَزيّة دلّت على فضله	إن كان للصبح يقام الدليل
بشرى فقد وافق تاريخها	نصر وإسعاد وفتح جليل

وكأن طالع هذا التاريخ جفر ، لان هذا الباي نبيل بلا خلاف ، وقد أسَرَتْ طَرْفه ، وقيّدت في أرجائها طِرْفه ، ومنعت صرفه ، وسحرت لبّه وظرفه ، حتى اتّخذها

(1) في ع و ق اقتصر الناسخ على ذكر البيت الاول من هذه القطعة ، وهي في خ كاملة .

دار مقرّه وبنى بها جامعا ومدرسة [وحمّاما] وبرجا بالمدافع وسوقا ومساكن لخاصته ورجال دولته . وجعل بها قاضيا ليكون ذريعة لإقامة الجمعة بها على مذهبه الحنفي ، كما فعل جده الاعلى حسين بن علي بباردو . ورتّب بجامعها مدرّسا لرواية صحيح البخاري ، ويَختِمه في الثالث عشر من رمضان . ويُحتفل في إحياء تلك الليلة بقراءة البُرْدة وإنشاد القصائد النبوية ، ويحضر لذلك بعض علماء المجلس الشرعي كالشيخ أبي عبد الله محمد بيرم والشيخ أبي عبد الله محمد بن سلامة . وكثر النكير [عليه] بكونه تخلّى بها للبطالة ، وأهمل الجلوس للحكم على عادة أسلافه . ولما كلّمه في ذلك ثقتُه ونصيحه ووزيره ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، قال له : « أيُّ شيء أهمل القضاة والمُفتُون يحكمون في سائر النوازل ، والداي وكاهية دار الباشا وآغة القصبة يحكمون في الجنايات الحفيفة بما دون القتل ؟ » . وكان للداي يومئذ أن يسجن بالكرّاكة ويضرب ما لا يزيد على الثلاثمائة ، « ومشايخ الحاضرة هم حرّاسها بالليل لإيقاف الجنايات ، فلم يبق الا التعيين للمطلوبين ، ولا يكون ذلك إلا اذا عجز العامل ، ومع ذلك فقد أقمتُ خير الدين كاهية يحكم في غير المعاملات بسقيفة باب باردو ، ويعيّن لحضور المطلوبين ، ويفعل ما يفعله الباي ، غير التعزير بالقتل ، وان الحدود غير معطلة ، بدليل ان رجلاً حكم عليه المجلس الشرعي بالقتل قصاصا [في نفس محرّمة قتلها عمدا عدوانا] ، فكتبوا الحكم وبعثوه ، وبعثوا معه الرجل ، وفي الحين اقتُصَّ منه أمام باب المحمديّة » ، الى غير ذلك من الادلّة القاطعة على عدم إهمال الامور ، ويظهر لبعض الناس انها أدلة خطابية يسلّمونها تسليما جدليا يُعيِن عليه طبع الملك المطلق . والحق الذي يفهمه مَن [مَازَجَه و] مَارَسَه في سياساته أن الرجل ثابت الفكر ، بعيد الغور ، ثاقب الفكرة ، شديد الحزم ، لمّا (1) رأى بعين بصيرته ان الحكم في الناس بمجرد اجتهاد المَلِك وحده ، من غير أصول عقلية او شرعية يعتمدها في ذلك ، قد نافره طبع الزمان ، وانفتحت لسماع التنظيمات الآذان ، وعلم عربان المملكة حال عربان الجزائر مع عمّالهم ، بأنهم لا يتصرفون فيهم الا بقانون معقول معلوم لا يمازجه غرض ، مع حرص الدولة العثمانية على إجراء التنظيمات ، وصعب عليه قطع عادة آله دفعة ، أراد أن يمرّن نفسه وأهل المملكة على ما تحقق وقوعه لا محالة ، وان انتصابه

(1) هنا ينتهي الاستطراد ويرجع الحديث عن التنظيمات الخيرية .

كل يوم لسماع المتظلمين ربّما يؤدي الى فلتة كما وقع ممن بعده ، تقتضي سرعة ما قاله الصدر الاعظم رشيد باشا : « لا يمكن ان السلطان الاعظم مقيّد التّصرف لا يأمر بقتل النفس المحرّمة إلا بعد إمعان النظر في مجالس ، وباشا تونس مطلق التصرف » ، تحمّل نسبة إهمال الامور إليه ، ورآها أخف على نفسه من وقوع التنظيمات دفعة ، وان لم يصرّح بذلك ، وانما فهمنا ذلك منه بالتلويح القائم مقام التصريح في محادثاته ، ومحاوراته في خلواته . وربما انتصب للحكم في المحمدية احيانا على كره يظهر من حاله ، حتى انه يأمر ، بعد اجتماع المتظلمين ، بنداء العافية ، وهي علامة الانصراف (1) .

أتاه بها رجل من أوباش الجهلة شاكيا في نازلة [تتعلق بالمعاملات] فقال له : « هلاّ رفعت أمرك الى الشرع ؟ » ، فقال له : « يغلبني خصمي بحكم الشرع » ، فقال له : « إنما غلبك دينك لا خصمك » ، فقال له الجاهل المسكين ، محرّكا لغضبه : « يا سيدي ان خصمي لما سمع اني قادم إليك قال : لا نسأل عنه ، أنا بيدي دبّوس الشرع » ، فقلت له : « عندي دبوس أقوى منه ، وهو سيادتك ، نصرك الله » ، فاصفرّ لونه واقشعرّ بدنه واشتدّ غضبه من قبح المقالة ، وكنتُ بين يديه لقراءة ما يرد [من المكاتيب] فقال لي : « أيلزمه شيء بالحكم الشرعي ؟ » ، فقلت له : « يلزمه لو كان يعلم ما يقول » ، فانتهره ومكّنه بيد غاصب الى الحكم الشرعي ، وقال في ديوانه : « لا أقبح من هذا الجهل ، يرغب عن حكم ملّته المعلوم في كتب الشريعة الى ما يظهر لي ، مع أني بدبّوس الشرع — كما قال — ارجع عما ظهر لي ان خالف الشرع لا حول ولا قوة الا بالله » ، وقام من فوره قبل سماع بقية المتظلمين ، خائفا من تلك المقالة [الشنعاء] ، يردّدها ويستعيذ بالله منها ويقول : « اللهم اكسر كلّ دبّوس يقوى على الشرع ، وما نشأ هذا الجهل الا من انتصابنا للحكم وسماع الدعاوي ، ويرحم الله تعالى أسلافنا ، فانهم شغلوا أفكارهم وعمّروا أوقاتهم بسماع النوازل بين المتداعيين عن النظر في عموم المصالح ، والنصارى على حكمة ، حيث إن ملوكهم لا يتصدرون للفصل بين المتنازعين » ، فقلت له : « وكذلك سائر ملوك الاسلام ، عدا قطرنا ، وانما نشأت هذه العادة آخرَ دولة بني مراد ، واقتفى أثرهم جدُّك رحمه الله [لسبب خاص اقتضى ذلك] » ، فسكت ، ثم قال :

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

« لا بدّ لقلب العادة من زمن وتدريج ، كانقطاعي في المحمدية ، مع أني اسمع ما يقال فيّ . والامر لله وحده » (1) .

*

وفي سنة 1259 (1843/44 م.) وقع جَدْب بتونس وارتفعت اسعار الحبوب ، مع أنه أعان الفقراء بما لم يتقدّم نظيره . وأطراه بعض المداحين على ذلك (2) ، فقال له : « تمدحني على أني غير سارق ولا خائن ؟ » ، لان الاعشار التي بالرابطة زكاة الحبوب، وهي من قواعد الاسلام الخمس ، وأول مصارفها ، بنصّ القرآن ، الفقراء والمساكين ، وهو مقدم على العسكر وغيره من المصالح . ومع ذلك ضجّت العامة من كثرة تسريح اخراج الحبوب من المملكة ، لاَجْل دَخْل ما على ذلك من السراح ، فلزمه ، والحالة هذه ضرورة ، تسكين السواد الاعظم ، فكتب الى مراسي العمالة بمنع اخراج القمح والشعير لمن بيده أمر في تسريحه ، إلا اذا شرع في الوسق منه ، أو أتاه شقف لذلك . وأعلم بذلك سائر القناصل ، وتحققوا السبب ، فأتاه قنصل سردانية شاكيا من هذا المنع ، محتجّا بما في الشروط من أنه اذا أُريد منع قبول شيء من السلع او إخراجِ شيء ، يقع اعلام القنصل قبل المنع بشهرين ، لتكون التجّار على بصيرة ، فأجابه الباي بأن حبوب القُوت ليست من السلع الحاجية التي لا يتوقف خروجها على إذن خاص ، وانما هي من الضروريات التي يتوقف إخراجها على أمر مخصوص . ومدار الإمر : هل الاقوات من السلع أم لا ؟ وهو يرى أنها ليست من السلع ، نظرا للعرف (3) . فقال له القنصل : « ان التجار اشتروا حبوبا هي الآن عندهم ، ينتظرون شقوفا لحملها » ، فقال له : « يمكن لهم بيعها الآن في المملكة بأكثر مما دفعوه ويحصل لهم الربح المقصود ، وان اشتروها لغيرهم باذن ، نتساهل معكم في إخراج القدر الموجود فقط » . وكادت النازلة ان تنفصل، لولا شدّة وتعسّف من القنصل بلا سبب . وتكررت المكاتبة بينه وبين الباي .

ثم ان القنصل سافر على حين غفلة ، من غير ان يُعلِم الباي بعزمه على السفر . ولمّا سافر القنصل كثرت الاراجيف بأن دولة الصاردو تجهّز في اسطولها لغزو تونس ،

---

(1) ما بين القوسين فى الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) كذا فى ع و ق ، وفى خ : « وقال له بعض المتزلفين يمدحه على ذلك » .

(3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « نظرا لعرف التخاطب » .

فجمع الباي رجال دولته وقال لهم : « ان القنصل سافر ولم يعلمنا بسفره ، وهذه طليعة حرب ، ويلزمنا الاستعداد وأخذ الاهبة لذلك » ، فقالوا له : « الحزم يقتضي ذلك في كل وقت » ، وكان منع إخراج الحبوب في شعبان السنة 1259 (اوت — سبتمبر 1843 م) .

ثم أخذ الباي في الاستعداد ، وحصّن حلق الوادي بمتاريس وقتية . ثم كتب اوامره لقدوم سائر العساكر النظامية والصبايحية من الاوجاق وجمعهم بالمحمدية ، وذلك في أوائل سنة ستّين (أوائل سنة 1844 م.) . ونصب وطقه ، واحدقت به العساكر على اختلاف أنواعهم ، ومكثوا أشهرا يتوقعون قدوم شقوف الصاردو . وضاق حال الدولة من مصاريفهم ، وحصل للعسكر ملل وفشل (1) من أهبة السفر في حضر ، والمقام بدار واحدة لا مرعى فيها ولا ماء الا من آبار قليلة قُرْبَها . حتى قال له وزير الحرب مصطفى باش آغة : « ان عسكرنا وقع به الملل والفشل ، ولا زال يتزايد ، ونخشى ان لا ننتفع به وقت الحاجة ، ويكون الصاردو هزمنا وهو في بلاده » . وقال له شيخ الدولة الوزير ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « كأني أراك بجمع العسكر في هذا المحلّ أسلمتَ حلق الوادي والبلاد ، وطلبت منعة نفسك . فالرأي ان تجمعه خارج حلق الوادي وما قاربه من الشطوط ، ليكون رِدْءا للحاضرة » .

وصدّه عن سماع ذلك الافراط في حبّ المحمدية .

وفي المدة نَفِدَ ما بالرابطة من القمح والشعير ، فأمر أبا عبدَ الله محمد بن عيّاد بشراء ذلك من خارج الإيالة ، فقال له : « ان قمح الدولة في ذمم الناس ، ونحن الآن في شدة ، فاكتب لي إذنا بخلاصه من الناس ، دراهمَ على هذا السعر الذي نشتري به » ، فكتب له بذلك .

وازدادت الشدة والضيق على اهل المملكة [عموما] وعلى الدولة [خصوصا] (2) .

ولم يزل ابن عيّاد يشتري في الحبوب للعسكر الرابض في محلّ واحد .

وفي هذه الواقعة قدم رسول من الدولة العلية العثمانية اسمه عمر جَمَال ، فأكرم تلقّيه وأنزله في الكرم ببستان وزير الحرب أبي النخبة مصطفى آغة . وبلّغ رسالته ،

---

(1) فشل : خمد نشاطه ، فترت همته وحماسه .

(2) الزيادة عن ع و ق .

ومحصّلها : « ان النازلة لا تقتضي حربا ، لانّها آخر الامور ، وسفر القنصل لا ينشأ عنه شيء ، ومهما أمكن فصل النوازل بغير إراقة الدماء لا يُعدَل عنه . وحسبي تبليغ الرسالة » ، فقال له الباي : « أنا لا أبتدىء بحرب ولا أخالف الشروط ، ومن تعدّى عليّ وحاربني يلزمني ضرورة أن أدفع عن نفسي بما استطيع . وحيث ظهر للدولة العلية فَصْلُ هذه النازلة بوجه سياسي ، فلا أعدل عن رأيها » . وكتب له تقريرا في صورة النازلة باللغة العربية مستوفى البيان .

وسافر الرسول ، وبعد سفره توسط قنصل الدولة الانقليزية ، وهو سار طوماس ريد(1)، وقال للباي : « الحق لك ، لان رفع الضرر عن النفس واجب ، ويلزمك أن تسوس عامّتك بهذا المنع خشية وقوع هرج وفساد ، وللقنصل حق في الوقوف مع ظاهر الشروط ، لانه رجل مأمور ، إلاّ ان السياسة فاتَتْه حيث سافر كالهارب ، لانه رسول دولته إليك ، فحقّه ان لا يسافر الا بعد أن يعلمك . وثبوت الحقّ لك لا يمنع من جبر ضرر مالي حصل لبعض التجّار من هذا الاختلاف في الفهم ، والانصاف يقتضي ذلك » ،فطلب الباي مصروفه على جمع العساكر وما لزمها وغير ذلك ، فقال له : « تحصين بلادك واجب عليك ، ولك ان تجمع عساكرك متى شئت ، ودولة الصاردو لم تحوجك لذلك ، وسفر قنصلها لا يدلّ على إيذانٍ بحرب ، والحروب ليست بهيّنة » ، فتوقف ولزمته الحجّة.

وانفصلت النازلة ، وأمر الباي بدفع ما حصل للتجار من الخسارة . وأتى قنصل من دولة الصاردو عوض الذي سافر . وكاتب الدولة العلية بانفصال النازلة على وجه مرضي . وسرح العساكر من اعتقالهم بالمحمدية ، بعد ان صرف عليهم أموالاً لها بال ، أوهنت المملكة ، وأجحفت بها إجحافا بقي اثره . ولا يَعْدَم الصَّرْعة ، صاحب السُّرعة .

*

وفي هذه السنة 1260 (1844 م.) ، تمّ بناء دار المَلْف بآلاتها التي أنشأها الباي حذو قنطرة محمد باي [المرادي] بطبُرْبة . وكان بناؤها على يد أبي عبد الله محمد ابن عيّاد . وهي من المصانع الهائلة والمباني الرفيعة ، يحرّك الوادي آلاتها على أسلوب

(1) Sir Thomas Reade

معجب ، باعتبار [حالة] (1) هذه المملكة ، اذ لم يتقدم مثلها ، مع ما فيها من مصلحة البلاد . وأرخها شيخ الإسلام ابو عبد الله محمد بيرم بما نصّه :

أرِحْها فقد أبلى السنابكَ وَخدُها	وأتْعَبَهَا غَوْرُ الفَلاة ونَجْدُها
وألْقِ عَصَا التَّسْيَار إن كنتَ طالبا	عجائبَ آثار الملوك تعدُّها
فما بعد هذا الصنع بُغيةُ ناشد	ولا غاية بالعقل يبلغ حدُّها
مبانٍ قضتْ ان المشيد لركنها	له همّة قد زاحم البدرَ سعدُها
بها جرَّرت ذيلَ المفاخر تونس	بما لم تنل صين البلاد وهِنْدُها
يقوم لها منها لدى الفخر شاهدٌ	ويُكسى بها من فائق النسج جُنْدُها
يباشر مَن فيها الصناعةَ وادعا	ويُلفي بها الراحاتِ قد طاب وِرْدُها
إذا تَعَبُ الافكار أنتج حَصْلَةً	تَباعَدَ عن سَمْت الجوارح كَدُّها
كأن الذي يلقي بها الامرَ آصَفٌ (2)	فقَبْلَ ارتداد الطَّرف يُنْسَجُ بُرْدُها
ولا غَرْوَ ان جاءت كما أنت شاهد	وقامت على تلك العجائب عُمدُها
فان المَقَام الاحمديّ اعتنى بها	وعن رأيه المحمود نُظِّمَ عقْدُها
ولا تَحْسَب الوادي له الفضل إذ جرى	عليها ، فاقبال الامير يَمدُّها
هو السيّد الباشا المشير الذي غدا	له سطوة في الغيل تخشاه أسْدُها
أتى أمره العالي برسم اسمه على	دعائم هذا الباب كهفا يشدُّها
فجئت به مع وصف حال مؤرخا :	مصانع ما فوق البسيطة نِدُّها (3)

وتوجه لها الباي ومعه رجال دولته ، ورأى تلك المصانع وتحريكها ، وبات بقصر الوزير أبي النخبة مصطفى خزنه دار بالجديّدة . ثم رجع لها من الغد ، إعجابا بشأنها . وصُنعت بها ألوان (4) من الملف مستحسنة فائقة [مثل ملف الافرنج] (5) . ثم فتر عزمه عن العناية بها ، لانّه قدّر أن يكون دخلها أكثر مما حصل .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) آصف هو كاتب النبي سليمان المشار اليه في الاية 40 من سورة النمل (الكشاف للزمخشري) .
(3) وردت هذه القطعة الشعرية في خ ، وسقطت كلها في ع و ق .
(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « انواع » .
(5) الزيادة عن ع و ق .

ولو قدّر أن أعظم ربحه هو لبس عساكره وأهل بلاده منه ، بحيث تبقى اثمان الملف الذي يشترى من غيرها في المملكة ، مع انتفاع المجاورين لها والخدَمَة بها ، المقتضي لزيادة عمران المملكة ونفاق أصوافها فيها وغير ذلك ، ما فتَرَ عزْمُه . وإعطاؤها لتاجر يخدم الملف بها ، ولو مجّانا بلا كراء ، انفع للمملكة من بقائها معطّلة ، وقد بُنِيَت بمال ذريع . لكن طباع ملوك [هذا] (1) المغرب تميل الى الفائدة الذريعة المعجلة الحاصلة من غير التفات إلى المستقبل ، بخلاف أمم الافرنج (2) فانهم يصْرِفون الاموال على فائدة يمكن حصولها بعد سنين ، ويعتبرون في أفعالهم انتفاعَ تلك الجهة ، واستغناءَهم عن غيرهم ، وهذا من اعظم اسباب العمران والثروة . ولله في خلقه أسرار .

⁂

وفي هذه السنة 1260 ثار رجل بجبل خمير ، ادّعى أنه من أولاد عثمان باي ، والتفّ عليه جمعهم ، وهم من الذين لا يكادون يفقهون حديثا . وأصله مقراني أتى لتعلّم القرآن بزاوية الشيخ ابن نفيسة من ربض باب السويقة . ثم توجه الى الجبل ساعيا الى حَتْفه بظِلْفه . وأذاع هذه النسبة فتلقّتها الحُمُرُ المستنفرة بالقبول . والمسافر بمحلّة باجة يومئذ ابو عبد الله محمد باي ، فأمدّه بمحلة زواوة ، وأمر المزارقية [من العروش] (3) بالالتفاف عليه ، وأمدّه أيضا بالوزير الثقة الناصح أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ليستعين برأيه . والتفّ عرش عمدون على المحلة . ووجه بايُ المحلّة كاهيةَ الصبايحية صالح بن بلقاسم في عقد من الخيل الى خمير ، ووصلهم على حين غفلة ، واستعمل الحيلة حتى تمكن على هذا الدّعِيّ وطار به الى المحلة ، فبعث به باي المحلة مع الكاهية صالح ، بعد أن أنكى في الذين اعصوصبوا عليه .

ولما وصل الى باردو ، أحضره الباي بين يديه في ديوان المحكمة وقال له : « ما لك ولهذا الكذب الذي حيّرتَ به تلك الجهة ، الموجب لاراقة الدماء والفساد في الارض ؟ » فأطرق ساكتا ، وكاد الباي أن يعفو عنه من القتل ، لولا بعض من رجال الدولة قالوا

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « بخلاف غيرهم من الجهات » .
(3) الزيادة عن ع و ق .

له : « ان العفو عن مثل هذا يؤدي الى الجرأة على أمثال هذه الدعاوى » ، فأمر بقتله ، وقطع رأسه أمام باب باردو . وكتب الى باي المحلة يبلّغ الى عمدون شكره لخدمته (1) ورضاه عنهم . ورجع باي المحلة ، بعد ان مهّد تلك الجهة وقوّى أمانها .

***

وفي غرة محرم سنة 1261 ، احدى وستين (الجمعة 10 جانفي 1845 م.) ، قدّم الفقيه الشيخ ابا عبد الله محمد بن سلامة لِخُطّة الفتوى ، وقدم الفقيه الخيّر ابا عبد الله محمد البنّا لخطة القضاء .

***

وفي صفر من السنة 1261 (فيفري 1845 م.) ، تشكى الافرنج ، على لسان اكبر القسيسين بتونس ، من ضيق موضع اجتماعهم لعبادتهم ، فاقتضت سياسة الباي إسعافهم ، تألفا للوافدين من التجار . وأمرني بكَتْب أمْرٍ لهم نصّه : « أصدرنا هذا المنشور والخطاب المسطور ، ليعلم الواقف عليه من رهبان الملّة المسيحية وأعيان أهلها القاطنين بدار مُلْكنا تونس ، حاطها الله بأمنه ، ان الكنيسة داخل باب البحر التي كانت اسبيتال من أملاك الدولة التونسية ، بلغنا انها ضيقة الفضاء لا تفي بضروريات من فيها ، فزدناها تسعة عشر ذراعا على مسافة عرضها ، وهي عشرون ذراعا ، من أرض الدولة المجاورة للكنيسة التي كان يسكنها قنصل الصبنيول . وأمرُنا في ذلك بيد الوكيل ، وزدنا ، لكمال راحة سكان بلدنا من اهل أروبا وإعانتهم ، بأن أسقطنا عنهم الالف ريال التي كنّا نأخذها في كل عام كراء ما ذُكِر ، إسقاطا تامّا ، وسرّحناهم للتصرف في هذه الكنيسة المذكورة بما أضيف لها ، من غير كراء ، بشرط ان لا يحدثوا فيها شيئا ظاهرا ينافي ديانة اهل البلاد او عاداتهم الجارية . صدر ذلك منّا على يد صاحب أسرارنا الموقّر المحترم الوجيه الثقة المقرّب ابننا الكولير جوزابين راف (2) الامير آلاي . وعلى الواقف على أمرنا هذا ان يعمل بمقتضاه ، ولا يخالفه ولا يتعدّاه ، والامر كله لله ، والسلام . وكتب في التاسع عشر من صفر سنة 1261 (الخميس 27 فيفري 1845 م.) . وكتب بذلك الى قنصل الفرنسيس بتونس . ثم زاد في توسيعها بعد ذلك .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « لخدمتهم » .

(2) كذا في خ و ق ، وفي ع : « جوزاب رافو » . Giuseppe Raffo

وفي ربيع الثاني من السنة 1261 (افريل — ماي 1845 م.) ، صدرت احكام من الباي في تراتيب للدخان والجلد . وذلك انه لما استكثر من العسكر [وضباطهم] ، وصاروا عددا لا يفي بقوامهم دخل المملكة الاصلي ، على صغرها المعروف في الوضع الجغرافي ، وقلّة اسباب ثروتها ، التي هي الزراعة والصناعة والتجارة ، الذي هو نتيجة الحكم المطلق ، مع نطاق كرمه المتسع ، لا سيما مع كبرائهم (1) . ومدبرُ الدولة اذ ذاك محمد بن عيّاد ، وهو من العمّال القاصر نظرهم على ما يحصل من المال ، من غير نظر لحال ولا مآل . وكان يزيد في الالتزامات ، ويعتبر مع دَخلها الاصلي ما تفعله نوابه من [توليد] المظالم . وقاسى الناس (2) من تعسفهم وجورهم ما لا تطيقه غير اهل المملكة التونسية . وبلغ الحال إلى أن متولي الجلد الذي مناط لزمته ان لا يبيع الجلد بالمملكة وغيرها سواه ولا يدبغه غيرُه ، صارت نوابه يدورون في القرى ونواجع العربان(3)، ومعهم قطع من الجلد يرمونها في المحل وتشهد أتباعه بوجودها في المحل ، ويدّعون ان ذلك نائرة (4) إخفائهم للجلد . ومثلهم نواب الدخان ، يرمون أوراقا من الدخان أو دقيقه ، ويدّعون انها نائرة على اشترائه الدخان من غير ملتزمه ، فيأخذون من ذلك المسكين ما يشتري به فضيحته وشديد عقابه الذي لا يعلم نوعه ولا قدره . وكذلك سائر الملتزمين كل على حسب لزمته ومقامه وحظوته (5) .

ولا جرم ان ذلك يزيد في نقصان ثروة المملكة لا محالة ، وقلّ بسببه دخل الالتزامات . فاذا اراد الملتزم أن يسلّم عند تمام أجله ، لا يقبل الباي تسليمه إلا إذا زاد عليه غيره ، اعتبارا لما حصّله من امتداد يده .

ثم ألزم العمّال قبول ما يُلتزَم في أعمالهم من جلد وغيره بالسعر السابق ، فصار العامل يوزع القدر الذي يدّعي نقصه [على أهل عمله بحسب اجتهاده] ، وهو مصدَّق في ذلك من غير تعقب . والباي يغضي عن ذلك ، مستندا الى اضطراره لمّا يلزم

---

(1) في ع و ق : « كبراء العسكر » .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وقاسى المسلمون »
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « والقبائل القريبة » .
(4) نائرة : حجة ، بينة .
(5) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

العسكر من المال . ومن يريد الشكاية لا يأمن وثيقة تقوم عليه [من كتّاب الملتزم وأتباعه] (1) بأنه مفسد . ولا مَرْهَم لجرحها ، اذ لا سبيل لنقدها (2) أو طرحها .

ولمّا بلغ السيل الزبى ووصل الحال الى حدّه ، جعل الباي ترتيبا لصاحبَيِ الجلد والدخان ، وكتب بذلك أوامره [لسائر بلدان المملكة وعربانها] (3) ، وتوعّد مَن خالفها . وصاحبُها (4) اذ ذاك ابو عبد الله الحاج حسونة ابن الحاج ، فاشتكى الضرر من هذا الترتيب ، لأنه لم يدخل على اعتباره ، وانما دخل على اعتبار ما كان .

ولمّا تحقق أن قدر الالتزام يؤخذ من ماله (5) ولا بُدّ ، مع ما بينه وبين ابن عيّاد من المنافسة والغَيْرة ، لاذ بالفرار ومعه بنوه الصغار من شاطىء رَوّاد الى مالطة ، فأقام الباي شقيقه أبا عبد الله محمد بن سليمان ابن الحاج لمباشرة خطته نيابة عنه ، يتصرّف على العادة السابقة المدخول عليها . هذا وأوامر هذا الترتيب لم تخرج بتمامها .

وبعث الكاتب الماجد الاديب ابا الحسن علي الحدّاد ، ومعه [الكوليز] (6) زاكي زيزانة في أثره ، لمحاكمته عند مجلس الحكم بمالطة ، فوصلا لمالطة ورفعا قصتهما الى الحكم ، وحلف كل واحد منهما على أنه محق في دعواه . ولما تحقّق الحكم (7) بأنه مطلوب منعه من السفر . وأفضى الحال الى قدوم الحاج حسونة طائعا ملقيا بيده ومعه بنوه ، فقبله الباي ولم يعاقبه على هروبه . وتصرف في لزماته (8) على السَّنَن السابق . وآل الامر إلى خلاص الالتزام من كسبه ، وباع في ذلك رَبْعَه وعَقَاره وبقي في ذمّته شيء . وانقلبت ثروته الى احتياج ، وعومل بما عامل ، ولا يظلم ربك أحدا .

وعند لَمَعَان الخُلَّب من هذا الترتيب ، خطب شيخ العصر وبركة المصر أبو اسحاق ابراهيم الرياحي خطبته المشهورة على منبر جامع الزيتونة في يوم الجمعة ، ونصّها :

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « لقدحها » .
(3) الزيادة عن ق و ع .
(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وصاحبهما » .
(5) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ان قدر الالتزام يبقى فيه مال لا محالة ولابد » .
(6) الزيادة عن ع و ق .
(7) لعله يريد « الحكم » بفتح الحاء والكاف .
(8) كذا في ق ، وفي ع و خ : « وتصرف في خدمته » .

« الحمد لله الذي هدى من شاء فيسّره لليُسْرَى ، وقرن بالعُسْر الواحد يُسْرَيـن فقال ان مع العسر يسرا ان مع العسر يسـرا ، أحمده حمـدا أُعـدُّه ليوم الفاقـة ذخـرا ، واشـكـره شـكـرا يَعقِل العتيدَ ويستزيد نِعَما أخرى ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له رافع الخضراء وخافض الغبرا ، ومالك الدنيا والاخرى ، وأشهد ان سيدنا محمـدا عبده ورسوله الذي شرح له من غير سؤال صدرا ، ورفع له ذكـرا ، وأقسم بحياته وناهيك بذلك فخرا ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين وهلمّ جرًّا .

أيها الناس تيقّنوا من وعد الله بلقائه ، وسلّموا له في قدره وقضائه ، فان العقول عن إدراك حكمته معقولة ، والنقول بالعجز عن إدراك سرّه في حكمه وفعله مشمولة ، لـكـن من وُفّق للتسليم ، وتأمل في حكمة الحكيم العليم ، ينكـشف له سرّ القضا ، فيقـابله بالقبول والرضى ، ويعلم ان للشر مَدى ، وأنه لم يُخلَق سُدى ، وأن مع العسر يسرا أبدا ، فينتظر صدق وعد الله في اليسر بعد العسر ، وانسلاخ ظلام الشدة بضياء فجر اليسر ، كما تنفّس الآن صبح الفرج ، وتهلّل في وجوهنـا مُحيّا الهناء بعد الحرج ، برفع مظالم احرقت قلوب العباد ، وأخلت البلاد ، ونشرت أنواع الشرور والفساد ، فهدى الله تعالى بِمالَهُ من لطيف اللُّطف ، وحلمه على الذنب الموجب للأخذ بالعنف ، مَالِكَ نَواصينا ، ومتولّـيَ أُمور دانِينا وقَاصِينا ، الى الاخذ في هدم بنيانها ، وإرغام أنف شيطانها ، وإقامة الامور على مستقيم ميزانها . والمَرجُوُّ من الله اجتثاث أصولها كلها على يديه ، وسَوْقُ الاجـر الجزيل والثناء الجميل باجتثاثها إليه ، فان مَن أشرقت بدايته ، أشرقت نهايته ، والنـواقص بالتدريج تعطـي تـكـميلاً ، تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فلنشكـر الله على ما عجّل ، وهو كـفيل بانجاز ما تأجّل .

عن أنس رضي الله عنه ان النبـي صلى الله عليه وسلم قال : « لو جاء العسر فدخل هذا الجحـر لجـاء اليسر فـدخل عليه فـأخرجه » . وعنـه صلىّ الله عليه وسلم انه قـال : « لن يغلب عسرٌ يُسْرَين » ، رواه الحـكم عن حسن مرسلاً .

نفّس الله كـروبنا وكـروبكم ، وشرح بنور محبته صدورنا وصدوركم .

ان أبلغ الـكـلام نظما ونثرا ، وأنفع ما يُسمَع ويقرأ ، كـلام من له الاولى والاخرى ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : « سيجعل الله بعد عسر يسرا » .

وصار لهذه الخطبة نبأ عظيم في الحاضرة .

واشتد تغيّر الباي حيث لم يتمّ له ما أراده من هذا الترتيب ، وتـكـدّر عيشه .

وأنكدُ الناسِ عيشا من تكون له نفس الملوك وحالات المساكين

فانظر الى هذه الايالة كيف وصل حالها الى ان عالمها وصالحها وخطيبها ينادي على أعواد منبرها بجامعها الاعظم على رؤوس الاشهاد ، بأن ما وقع بها من المظالم أحرق قلوب العباد وأخلى البلاد ، ونشر الشرور والفساد . وهي شهادة منه رضي الله عنه وهو ممّن هو.

ثم آلت الحال بعد ذلك الى ان مالِك البقر يؤدّي الربع من ثمن كلّ راس ، وهو أمر لم يسمع بمثله في الاقاليم ، وربما هوّنه ما كان قبله من الامر الفظيع ، وفي الشر ما يُختار . وبذلك تعرف ما آل اليه حالها .

وبذلك ساءت ظنون صاحبها ، حتى استعجل لمّا بلغه في رجب السنة 1261 (جويلية — اوت 1845 م.) أن مراكب من الدولة العثمانية قادمة لجِرْبة ، فجهز جيشا وافرا من عسكر زواوة وأرسله اليها في البحر . وبان أن ذلك من الاراجيف ، وندم الباي على استعجاله ، والعجلة والندامة فَرَسَا رهان .

⁂

وفي هذه السنة 1261 (1845 م.) ، توجه أبو عبد الله محمد بن عيّاد سفيرا عن الباي للدولة الفرنساوية وقوبل بقبول حسن ، واشترى لنفسه دارا حسنة بباريس .

⁂

وفي شعبان من السنة 1261 (أوت 1845 م.) ، ورد للحاضرة قنصل لتجار النمسا ، وهم أقلّ من القليل [في هذه الحاضرة] . ولم يكن بيد هذا القنصل مكتوب من دولته ، وانما اعتمد مكتوبا من سفير دولته (1) باسلامبول . ولما قابل الباي قال له : « إنك لم

(1) بهامش ق ، 2 : 237 : « قوله وانما اعتمد مكتوبا من سفير دولته بالاستانة الخ ... والذى عندنا ان القنصل أتى بمكتوب سلطانى مؤرخ بأوائل ربيع الثانى سنة 1261 ، يتضمن التصديق على ولاية مسيو لبرودى قوسترو قنصلا عاما لدولته بالايالة التونسية بمقتضى تقرير قدمه للباب العالى سفير دولته بالاستانة ، يلتمس به اعطاء مكتوب شاهانى بيد القنصل المذكور ، حيث انه عين من طرف دولته قنصلا عاما ، وانه ، بمراجعة الاصول المحفوظة بالديوان الهميونى وجد بمعاهدة بوزروفجة (بلدة برومانيا) المنعقدة بين الدولتين ، يسوغ للسفراء المقيمين بالاستانة أن يعينوا من جهتهم قناصل ووكلاء ، بالولايات العثمانية التى على ساحل البحر المتوسط ، وانه بمقتضى ذلك صدر هذا المكتوب ، بل الامر بالتعرف بمن ذكر واحترامه هو وأتباعه ، ومتعلقاته ، واعفائه واياهم من سائر الاداءات والضرائب ، والترخيص له فى ملك الربع والعقار ، والسفر برا وبحرا لأى جهة كانت ، واباحة حمل السلاح فى الجهات المخوفة فقط ، كما له ان يتزيا بزى الاسلام فى وقت الخوف ، وانه اذا توجهت عليه دعوى ، يحال النظر فيها على الدولة العلية . أ هـ . وقد أتى القنصل المذكور بفرمان فى التاريخ مخاطب به الشيخ القاضى بتونس فى الغرض المذكور . ولذلك امتنع الباى من قبول القنصل على هاته الصورة لمخالفتها لما فى مخيلته من الاستقلال » .

تأت بمكتوب من دولتك مثل القناصل بهذه الحاضرة ، لذلك نقبلك كواحد من رعايا النمسا ، وان لم ترض بذلك فلك ان ترجع من حيث أتيت » ، فرجع [لاسلامبول] (2) وأتى غيره بمكتوب على السَّنَن فقبَله ، وذلك سنة ست وستين (1849/50 م.) .

ولمّا استعظم الباي استعجاله في إرسال عسكر زواوة لجربة ، وعدم قبوله قنصل النمسا ، ولم يعتبر مكتوب السفير باسلامبول ، ظن ان الدولة العلية تعتبر ذلك ، وربّما تبني عليه شيئا ، فوجه في شوال السنة 1261 (اكتوبر 1845 م.) هدية للدولة العلية العثمانية مع القبطان أبي عبد الله كشك محمد والكاتب أبي الحسن علي الدرناوي . واشتدّ حذر هذا الباي من وزراء الدولة العثمانية ، وساءت ظنونه .

ولما علمت الدولة تخوف الباي من جهة الدولة العلية ، وظنّت ان جمعه لهؤلاء العسكر لاستعداد مدافعة الدولة ، بعث السلطان رسولاً مخصوصا ، اسمه سليم باي من خواص السلطان المقربين بصرايته ، برسالة مضمونها الامان من جميع ما يتوهمه في الدولة مما يسوؤه ، وبالغ في ازالة وحشته ، وأتى معه بفرمان مضمونه تأييد ولاية تونس لهذا الباي ما دام حيا ، ومعه مكتوب من الصدر الاعظم رؤوف باشا في الإعفاء من المال المطلوب في كل سنة ، فعظّم الباي مَقْدَمه وأكرم نُزُلَه وبالغ في إكرامه وأنزله ببستان في مَنُّوبة. واستشار رجالَ دولته في جواب هذا الفرَمان ، واستبطن قنصلَ الانكليز وقنصل الفرنسيس في ذلك ، فأشار بعضهم اي رجال الدولة بأن الجواب يكون بالشكر والدعاء كما كنا نفعل اذا ورد فرمان تجديد الولاية (1) ، وعلى هذا الرأي قنصل الانكليز . واشار بعضهم ، ومنهم الباي ، بأن هذا ليس كفرمان التجديد (1) في الاسلوب ، حيث أناط الولاية بالحياة لشخص مخصوص من البيت ، وقد وقع إثر طلب أجبنا فيه بما تعلمونه . فالواجب ان نصرّح بعادتنا (2) ، وقد بَرِحَ الخَفَاءُ . وعلى هذا الرأي قنصل الفرنسيس ، وان كان الرأي الاول أسدّ ، اعتبارا لجمع عصابة الامة المسلمة .

وأمرني بانشاء الجواب [على رأيه ، مع مراعاة واجب الادب ، والحذر مما يشعر بالعصيان او الخروج] (3) ، ونصّه :

---

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(1) في خ : « فرمان الابقاء » .

(2) وهي تسلسل الولاية في آل حسين .

(3) الزيادة عن ع و ق .

« الابواب الشريفة التي تعنو لعزّة قدرها الابواب ، ويصدر من أعتابها المُنيفة العدل والصواب ، ابواب الخلافة العثمانية ، والسلطنة الخاقانية ، والمملكة الغرّاء المجيدية ، مخدومة السيوف والاقلام بالاعمال والنيّة ، ومبلغة مَن التجأ اليها كل أمنيّة ، اذ هي الدولة الغنية ، لا زالت محطّ الرحال وقبلة الوجوه ، بالغة من الله ما تؤمله وترجوه . أما بعد تقديم الاعتراف بما يجب لعلاها ، والاعتصام بمنيع حماها ، فانه ورد علينا الظهير العلي العثماني ، الموشح بالخط الشريف السلطاني ، فعظّمْنا مورده الشريف ، بما ينبغي للمقام المُنيف ، وفهمنا من إسناد التأييد لنا ما ينافي عادتنا المعروفة ، وسيرتنا السابقة المألوفة ، لان لسلف هذا العبد العاشر من آل بيته خطّة يرثها المتأهل من الخلَف ، عن الذى يمضي من السلف ، وهي إمارة هذه الإيالة التونسية ، المحمية بالشوكة العثمانية ، البعيدة عن دار الخلافة العلية ، وبذلك دام عمرانها ، وقوي والحمد لله إيمانها ، واستراح من الفتن سكانها ، واستمرّ هذا العمل في الناس ، على اختلاف الاجناس ، ومضى من أسلافنا مع الدول حرب وسلم ، وللدولة العلية بذلك مزيد علم ، ولنا في خدمة الدولة حقوق تُذكَر ، وفضلها علينا بكل لسان يُشكَر ، وهذه الإيالة دار قرارنا ، وبذلنا فيها نفائس أعمارنا ، فهي طائعة منقادة ، على ما جرت به العادة ، وعادات السادات ، سادات العادات ، لا ينسخ إحكامها ، ولا ينقض إبرامها ، ولا يوهنها طول الزمان ، بل يزيدها الصحة والامان ، وهذا العبد لم يقصّر في خدمة الدولة العلية من جهده ، ولا نقص عمله عن عمل أبيه وجدّه ، فغاية قصدي ومنتهى مرادي ، أن أكون كآبائي وأجدادي ، ولم يؤخرني العمل ، عن بلوغ هذا الامل ، من إقامة الشعائر وتعمير المساجد ، وتأمين الراكع والساجد ، وحماية الثغور ، ومراعاة مصلحة الجمهور ، بحسب الطاقة البشرية ، وذلك ببركة رضى السلطنة العلية ، وهكذا ان شاء الله الاعقاب ، على طول الاحقاب ما دامت الدولة العلية وهي الدائمة ان شاء الله على مدى الازمان ، الى انقضاء الدوران . وتشرّفْنا برسالة علية سلطانية على لسان خادم السلطنة ، وأعزّ السدنة ، افتخار أقرانه ، المأمون في بيانه ، المختار لنباهة شأنه ، سليم باي . وعرضنا على سمعه ما ينهيه إلى السلطنة بتعطّف في التقرير ، وتلطف في التفسير ، بأن نهاية مرادي ، أن تبقى بيتي على سنن آبائي وأجدادي . واما الخطاب الوارد لنا من الوزارة العظمى عن أمر السلطنة العلية في قبول عذرنا ، وإجرائنا على عادتنا ، في الإعفاء من المقدار الذي طلب منّا في كل سنة لعَجْزنا عنه ، ولم نقدر على شيء منه ، واستمرار حالنا في هذه الإيالة على ما ألفناه من تقديم الهدية بحسب

الإمكان ، باعتبار الحال والزمان ، لاننا لا نطلب من الدولة إمدادا عند النقصان ، حصل لنا بذلك سرور وشكر ، ودعونا لمولانا السلطان بدوام الذكر ، ورأينا بلوغ الامنية ، بصفاء النية ، وبصدق السريرة ، تحسن السيرة ، والله يديم لهذه الدولة العلية العثمانية نصرا من عنده ، ويبقى مولانا السلطان ويجعل جند السماء من جنده ، إنه على ذلك قدير ، وبالاجابة جدير.

حرره الفقير الى ربه تعالى عبده المشير أحمد باشا باي امير الإيالة التونسية في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة 1261 ؛ إحدى وستين ومائتين وألف (الاحد 23 نوفمبر 1845م) » .

وأعطى الباي نسخة من هذا المكتوب لقنصل الانقليز ، ومثلها لقنصل الفرنسيس ، لسياسة رآها في ذلك .

وسافر سليم باي مسرورا مكرما محترما ، فوجد رسل الهدية باسلامبول [وبلغهم عنه جزيل الثناء] (1) .

وصار الباي إلى تقوية الالتحام مع الدولة العلية ، محافظا على ما لها من الحقوق كمحافظته على طلب الفضل في إبقاء عاداته . وصفا له الجوّ ، ورجع وزراء الدولة عن رأيهم الاول ، وأظهر مصداقَ طاعته في حرب الدولة مع الموسكو ، كما يأتي في محلّه .

⁂

وفي محرم من سنة 1262 ، اثنتين وستين (جانفي 1846 م.) ، صدر أمر الباي في سائر مملكته بعتق المماليك السودان ، وذلك أن غالب أهل هذه المملكة عمّرها الله تعالى ، لا يحسنون ملك إخوانهم من بني آدم على الوجه الشرعي أو قريب منه . ولهذا الباي في ظاهر حاله شيء من الميل بطبعه الى الحضارة التي أساسها وملاك أمرها الحريّة(2) وقدّر أن ذلك ربما يقنع الطالب للتنظيمات الخيرية التي من أصولها الحريّة .

ولم يأمر بذلك دفعة ، بل تدرّج الى الوصول إليه . فأمر في رجب من سنة سبع وخمسين (أوت — سبتمبر 1841 م.) بمنع بيع الرقيق في السوق كالبهائم ، وأسقط المال (3) الموظف للدولة عن أثمانهم ، ويسمى ملتزمه بقايد البركة [ومقداره ينيف على

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) كذا في ع و ق ، وفي خ : « الحضارة التى منها الحرية » .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « اسقط المكس » .

الثلاثين الف ريال في السنة] (1) ، وهدم الدكاكين الموضوعة لجلوسهم ، وبقعة القايد وتسمّى القفص . وسكت عن بيعهم في غير السوق .

ثم منع خروج المماليك من العمالة للتجارة فيهم ، وكتب بذلك لمراسي المملكة .

وفي ذي القعدة من سنة ثمان وخمسين (ديسمبر 1842 م.) صدر أمره بأن المولود في المملكة التونسية حرٌّ لا يباع ولا يشترى .

وفي هذه السنة 1262 ، حجر ملكهم ، وأمرني في ذلك بالكتابة لاهل المجلس الشرعي بما نصّه بعد افتتاحه :

« اما بعد فانه ثبت عندنا ثبوتا لا ريب فيه أن غالب أهل إيالتنا في هذا العصر لا يحسن ملكية هؤلاء المماليك السودان الذين لا يقدرون على شيء ، على ما في أصل ملكهم من الكلام بين العلماء ، إذ لم يثبت وجهه . وقد أشرق بقطرهم صبح الإيمان منذ أزمان . وأين من يملك أخاه على المنهج الشرعي الذي اوصى به سيد المرسلين آخرَ عهده بالدنيا وأولَ عهده بالآخرة ، حتى إن من قواعد شريعته التشوُّف الى الحريّة وعتق العبد على سيده بالاضرار . فاقتضى نظرنا ، والحالة هذه ، رفقا بأولئك المساكين في دنياهم ، وبمالكيهم في أخراهم ، أن نمنع الناس من هذا المباح المختلف فيه ، والحالة هذه ، خشية وقوعهم في المحرم المحقّق المجمع عليه ، وهو اضرارهم باخوانهم الذين جعلهم الله تحت ايديهم . وعندنا في ذلك مصالح سياسية منها عدم إلجائهم إلى حرم وُلاةِ غيرِ ملّتهم . فعيّنّا عدولاً بزاوية سيدي محرز والزاوية البكرية وزاوية سيدي منصور ، يكتبون لكل من أتى مستجيرا حجةً في حكمنا له بالعتق على سيّده ، وتُرفَع الينا لنختمها . وأنتم ، حرسكم الله ، إذا أتى لاحدكم المملوك مستجيرا من سيده ، او اتّصلت بكم نازلةٌ في ملكية عبد ، وجِّهوا العبد الينا . وحَذارِ أن يتمكن به مالكُه ، لان حرَمكم يأوي من التجأ إليه في فكِّ رقبته من ملك ترجّح عدم صحته ولا نحكم به لمدّعيه في هذا العصر . واجتناب المباح خشيةَ الوقوع في حمى المحرَّم ، من الشريعة ، لا سيما اذا انضمَّ الى ذلك أمر اقتضته المصلحة . فيلزم حمل الناس عليه . والله يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . والسلام .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

وكـتب في 28 محرم الحرام فاتح شهور سنة 1262 (الاثنين 26 جانفـي 1846 م.) » .

وأمر بأن يكتب في عتق المملوكين بأن الولاء لمواليهم ، ولم يجعل ولاءهم لبيت المال .

فأجابه رئيس الفتوى من الحنفية أبو عبد الله محمد بيرم بما نصّه :

« المقـام السلطانـي الاحمدي المشيري المرفوع عماده ، الطويل نجاده ، المحوطـة بحسن سياسته من طوارق الاعداء بلاده ، لا زالت الإصابة دَيْدَنَه ، والمصلحة في مـا يأمر به متعيّنة . اما بعد فقد ورد على العبد الضعيف ، ذلك المكـتوب الشريف ، فبادرتُ بالامتثال ، وشرعت في إيصاله الى من تضمنه من الرجال ، وما أشرتم اليه من المصلحة قد فهمناه وتحقّقناه . وقد وقع من عبدكم تحريرُ ما بيده من العبيد ، علما منه بأنه الصواب المتعيّن ، لا سيما وقاعدة ملك هؤلاء السودان ليست مبنية على أساس صحيـح ، لاختلاط من هو حرٌّ الاصل منهم بغيره . فللشّك في كـل فرد معيّن منهم مَجال ، يعلم ذلك من وقف على رسالة الشيـخ سيدي أحمد بابا في المسألة (1) . وبالجملة فـالخروج من عهدتهم أَسْلَمَ للمرء في دينـه ، خصوصا وقد انضمّ الى ذلك المصلحة التـي لاحظتها السياسة ، ولا يسع من رُزِق حظا من العقل الا تسليمها . فالله تعالى يجازيـكم عن النظر في مصالح عباده اجزل ما جازى به ولـيّ أمر قائما بمصالح المسلمين . والسلام على ذلك المقام من محرره الداعـي لـكم الفقير محمد بيرم لطف الله به . وحرر في المحرم سنة 1262 ».

وأجابه شيـخ الشيوخ وكبير أهل الشورى من المالـكية ، ابواسحاق ابراهيم الرياحي بما نصّه : « اللهم أيّد الاسلام والمسلمين ببقـاء أمير المؤمنين ، المؤيـد بالنصر العزيز والفتـح المبين ، المستمدّ في إصابـة الـرأي من نـور العليم الخبيـر ، سيدنـا ومولانـا الباشا أحمد المشير ، لا زالت العناية آخذة بيده ، والهداية إلى أقوم طريق من أجلّ عُدَده . وبعد فقد بلغنـي كـتابك الـكـريم ، وخطابك العزيز الواجب التعظيم ، فـأحطت بما لديه خُبْرا ، وانشرحت بما تضمّنه صدرا ، اذ كـان مضمونه رأيـكم السديد ، في عِتْق هؤلاء العبيد ، لما ذكـرتم من كـل وجه سديد ، يقبله مَن له عقل رشيد ، وعلم مديد ، وليس بعد بيانـكم من مزيد . فلا زالت ملّة الإسلام بك مشرقة ، ورياض الدولة بحسن سياستك مُونِقة . آمين . والدعاء من معظّم قدركم العلي ، ابراهيم بن عبد القادر الرياحي ، عفي عنه . آمين . في المحرم 1262 » .

(1) هو صاحب نيل الابتهاج المتوفى سنة 1036 ، والرسالة المشار اليها عنوانها : معراج الصعود .

ولما وقع هذا التحرير صار له في أمم الحرّية موقع عظيم ، وكاتبه أعيان من الانقليز بالشكر على هذه المأثرة ، وطبع في صحف الحوادث بالبلدان ، وطبعت في مالطة أوراق بالعربية فيما يتعلق بملك الإنسان والتنفير منه .

ولا يخلو الوجود في سائر أفعال البشر من قادح ومادح . فمَن نظر الى الحنان والرأفة وما يقتضيه حال الوقت من السياسة التي لا تنافيها القواعد الشرعية ، أطال لسانه بالمدح ، كشيخي الإسلام ومن نحا منحاهما . ومن نظر الى ضَيَاع ماله وعسر حاله ، وتعلّق ببعض أقوال العلماء ، كأهل جِربة وغالب العُرْبان وأهل الفلاحة ، أطال لسانه بالقدح .

وظهرت في البلاد رسالة لم يذكر كاتبُها اسمَه ، ونُسِبت الى بعض البلدان من أروبا ، ونصّها :

« الى كافّة أمة محمد صلى الله عليه وعلى جميع الانبياء والمرسلين . اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان القرآن العظيم الباقية فيكم معجزته لم يزل ناطقا بفضيلتكم ، وناهيك بقوله : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » (1) ، وقوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (2) ، وقوله : « اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً » (3) . وجدير لمن لهُ هذا القدم الراسخ في الفضل ، بشهادة الصادق في الكلام المعجز ، أن يترك جُملاً من المباحات خشية الوقوع في المحرّمات . ألا وإنّ لكل ملك حِمىً ، وحِمى اللهِ محارمُه . ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه . ومن المباح في ملّتكم الحنيفية السمحاء ملك الأُسارَى ، على ما في أصل إباحته من القصّة المنبىء عنها القرآنُ بقوله : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (4) وفي هذا الاسلوب من تعظيم محمد ومحبته ما لا

---

(1) س 2/آ 143 — 2) س 3/آ 110 — 3) س 5/آ 3 — 4) س 8/آ 67 و 68 و 69

يخفى على متضلّع بمعاني التنزيل وأسرار البلاغة ، كما حرّره عياض في كتابه الشفا . وتعلمون أيضا أن شفيعكم ووسيلتكم وقائدكم الى السعادة الابدية ، وهو الرسول الذي جاءكم من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، آخر وصايته لكم عند انتقاله الى الملا الاعلى : « اللهَ اللهَ في الصلاة ، اللهَ اللهَ فيما ملكت أَيْمَانُكم » . وقال أيضا : « إخوانكم خَوَلُكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلّفه فوق طاقته » . ومن قواعدكم الشرعيّة تشوُّف الشارع الى الحرية ، وعليها بنيت أحكام مفصّلة في كتب الفقه . وناهيك أن عتق الرقاب من مصارف الزكاة التي هي إحدى قواعد الاسلام الخمس . ومَن زاول الشرائع وقواعدها وظواهرها ومقاصدها ، خصوصا الشريعة المحمدية المبنيّة على الرفق والرحمة ، ينفر من هذا المباح وهو ملك أخيه الآدمي المتأهل للنُّبُوة والخلافة في الارض وغير ذلك من الكمالات الانسانية ، ولو أتى بسائر شروطه ، المتعذرة في الوقت والحال . وكابَر مَن أنكر ذلك ، والمشاهدة أقوى دليل . ومَن وُلِد على فطرة الشرائع ، وتغذى بلبان الشفقة ، وتربّى في مهد الرحمة ، يرقُّ فؤادُه لَمَّا يرى حالَ هؤلاء المساكين المضروب بحالهم المثل في الكتاب العزيز : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ (1) » ، وينظر تقلبهم في أَسْر المذلّة وهوان الرق على ما فيه شرعا في وقتنا ، إذ أكثرهم بل كلّهم يأتون من سوادنهم ناطقين بكلمتي الشهادة ، عالمين بها إجمالا ، إلى غير ذلك مما يدلُّ على منع مِلكهم مما هو محرَّر في الدواوين الفقهية .

ولا حرج في التحرّي من هذا المباح الموقع في المحرم . والإباحة رفع تحجير ، ورفع التحجير لا يقتضي الامر بالعمل ، بل اذا خلصت النيّة في ترك هذا المباح ، كان لتاركه من الاجر ما يناسب كرم الرحمان الرحيم الآمرِ بالرحمة والراحمِ عليها .

هذا ما يليق بحالكم يا أهل الإيمان ، الظاهر دينكم على الاديان ، والراحمون يرحمهم الرحمان .

يا أهل النفوس الزكيّة ، والقلوب السالمة النقية ، والاخلاق التي بالرحمة حَرِيّة ، شرعكم متشوِّف للحريّة ، والمِلك للنوع الإنساني أعظم بليّة ، وحالة المملوكين

---

(1) س 16/ 75 .

جليّة ، والله يقدر على عكسَ القضية ، كما ملّككم إيّاهم يملّكهم إيّاكم ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير. والسلام ورحمة الله على أهل الإسلام مِن عَبْد لله داخل في عموم قوله تعالى : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » (1) .

قوله : « والملك للنوع الإنساني أعظم بلية ، وحالة المملوكين جلية » ، الظاهر أن مراده ما يعمُّ الملك الشرعي بالاسر في الحروب وبالشراء ، والملك بالتغلب والقهر من ملوك الاطلاق الذين لا وازع لمشيئتهم ، ولعمري انه أفظع من الاول ، لان الاول ربّما كان له وجه شرعي ، وهذا لا مساغ له بشرع ولا عقل .

⁂

وفي الشهر قدّم الباي لخطة الفتوى شيخنا العلاّمة أبا العباس أحمد الأُبَّي ، واعتذر بكبر السنّ والعجز فقال له : « إنما قدّمتك لتستعين بدخل الخطة ، ولا نرضى ان نُنسَب إلى نسيان مثلك » . وقعد بغير إذن الباي حذو الرئيس ، واحتُملت له لان مَن بعده تلاميذُه [وأبناءُ درسه] (2) .

وفي السنة [62] ظهر للباي ان المكس المرتّب على أكرية العقار بالحاضرة يكون لإصلاح الضروري من خراب أبنيتها ، واتخذ لذلك أمينَ التجّار الوجيه الماجد أبا محمد حسونة الحداد ، وأبا عبد الله محمد التومي ، وأبا عبد الله محمد بن عبد الله الصفاقسي ، وأحضرهم لديه [في المحمدية] (3) وتكلم معهم في ذلك . ولم تحصل نتيجة من هذا القياس لضيق حال الدولة .

وأتعب الناس ذو حال ترقّعها   يَدُ التجمّل والإقْتار يَخْرِقُها

⁂

وفي رجب من السنة 1262 (جوان — جويلية 1846 م.) قدم ابناء سلطان الفرنسيس ، وهو يومئذ لويز فليب ، وقدم أخوهما الاصغر قبلهما ، فاحتفل لقدومهم وعظّم زيارتهم

(1) س 39/آ 53 .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وبالغ في إكرامهم ، وأكد الوصلة بذلك بينه وبين الجنس الفرنساوي . وانتدب وزيره شيخ الدولة أبا النخبة مصطفى صاحب الطابع إلى تأنيسهم والركوب معهم الى القنص والاماكن التي تشوّفوا إلى معرفتها . وأنزلهم بدار المملكة بالقصبة . وبعث ابن عمّه ووليّ عهده في أعيان من رجال الدولة لتلقّيهم بالدار ، [وتعرض لهم بنفسه عند باب الصرايا] ، ورتب لهم عسّةً بها على مقتضى مقامه (1) رئيسها ابو النجاة سليم أمير آلاي عسكر القشلة بالحاضرة ، وهاداهم بنيشان آله ، ورجعوا في تعظيم واحترام ، [وركب الى حلق الوادي لمشايعتهم] .وبعث ولي عهده في اعيان من رجال دولته لمشايعتهم الى الفابور في يوم حافل مشهود (2) .

*

وفي ذي القعدة من السنة (اكتوبر — نوفمبر 1846 م.) قدّم لخُطّة القضاء بالمذهب الحنفي العالمَ الفاضل الورِع أبا النخبة مصطفى ابن شيخ الإسلام محمد بيرم الاول . ونقل لخطّة الفتوى شيحنا العالم المحقق الفاضل ابا عبد الله محمد ابن الشيخ العلاّمة حميدة بن الخوجة .

*

وفي هذا الشهر عزم على السفر لفرانسة ، بعد ان بعث لها أبا عبد الله محمد بن عيّاد ، واستكشف به كيفية قبوله ، فجمع رجال دولته واستشارهم في أمر السفر ، فقالوا له : « إن تحققتَ أنك تُقبَل فيها قبول أمثالك فهو حسن ، لا سيما وأولاد سلطانهم كانوا في زيارتك بالامس ، وهم الآن جيراننا » . وقال لوزيره أبي النخبة مصطفى خزنة دار : « اعرض ذلك على أعيان العُمّال الذين معنا الآن بالمحمدية واعرف رأيهم » . وهم ابو العباس صميدة بن علي بن عزّوز ، قاعدة دريد ، وابو عبد الله قَظّوم ابن محمد ، رجل الفراشيش ، وكاهية الكاف ، ابو الفلاح صالح بن محمد ، فجمعهم الوزير بعلوّه واستشارهم على لسان سيده ، وكنت حاضرا مع الوزير ، فأجابوا بالاستحسان .

---

(1) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « تناسب مقامهم » .
(2) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .

وكـان ، رحمه الله ، بالمكـانة المكـينة من برور الوالدين ، فقال لوزيره ومربّيـه مصطفى صاحب الطابـع : « إن أمي ليس لها غيري ، ولم يخرج من المملكـة أحد من آلنا في البحر ، نرى أنها تتغير لسفري ولا نرى سرورا في أمر يغيّرها . فقدِّمْ لها ذلك على أنه رأي ظهر لك ، وانظر حالها » ، ففعل وقوّى قلبها . ثم أتاها الباي وقال لها : « ظهرت لي مصلحة في السفر لفرانسا » ، فقالت له : « يا بُنَـي ، أنت في ولاية تقتضي السفر برا أو بحرا ، وأنّى للنساء ومعرفةَ المصالح السياسية ؟ ولـكـن عندك وزراء ونصحاء ، فشاورْهم ، فان اتّفقوا على تصويب رأيك فأنت في وديعة الله ، وحسبك مني الدعاء » ، فخرج إلينا مسرورا بذلك .

وأعمل الفكـر في كـيفية السفر ، إذ لم يعهد مثله عند أهل المملكـة ، فبعث إلى الاعراض صهرَه أبا محمد رشيد ، عامل تلك الجهة ، بالمحلّة على العادة . وبعث الى الجريد أبا العباس أحمد زَرُّوق ، أحد أعيان ممـاليك عمّه ، في جيش من المخازنية . وبعث إلى باجة وجبالها محمد علي آغة بمحلّة . وبعث الى عروش ماجر والفراشيش ومن جاورهم ، أبا محمد اسكـندر آغـة في جيش من المخازنيـة . وخرجـوا متفرقيـن لاغـراض مختلفة . وأمر كـلَّ واحد منهم أن لا يرجع من وجهته إلا اذا أتاه أمر بالرجوع ، وان احتاج لشيء يبعث في طلبه . ولما خرج هؤلاء الامراء ، أشاع بأنه يريد السفر ، وجمـع العساكـر في المحمدية بما يلزمهم من المدافع ، وأمّر عليهم وزيره إبا النخبة مصطفى صاحب الطابـع ، وأمره ان لا يفارق المحل . وكـتب لسائر بلدان المملكـة وعروشهـا وللأمراء المسافرين بما نصه ، بعد الافتتاح واسم المخاطَب :

« أمّا بعد فان المصلحة التي أمرنا الله بمراعاتها ، اقتضت أن أسافر بنفسـي الى فرانسة ولُنْدرة ، والله يعلم ان شغفـي برعيتـي ومملـكـتـي يقتضـي ان نقتحم المخـاوف لامانهم ، ونتحمل مشقة الاسفار لراحة أوطانهم ، وحماية أموالهم وأبدانهم . وقد أقمـت فيهم جزءا منّـي ، ينوب في غيبتـي عنّـي ، وهو المرفّع الاعز أخونا سيدي محَمد بـاي ، ينفّذ ما أمرته به في مصلحتهم ، وحفظ عامتهم وخاصّتهم ، حتى أرجع ان شاء الله الى بلادي ، ومَنْبِت آبائـي وأجدادي ، ورعيّتـي المنزلين منزلة اولادي . وأحضرت العساكـر قرب الحاضرة ليجزي الله كـل نفس بما كسبت ، ان الله سريـع الحساب . فاقرأ كـتابنا هذا على الـولاة الشرعيـة والمشايـخ ليدوم أُنْسهـم ، ولا تتشوّشَ بهـذا السفر نفسهـم .

وأستودعكم مَن لا تَخيب ودائعه ، وهو الله في السموات وفي الارض ، يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون . وخلفي فيكم الله الذي لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ، والسلام . وكتب في ذي القعدة سنة 1262 » .

وكتب لابن عمّه وولي عهده الذي أنابه عنه ، مكتوبا بيده يتضمن فصولاً أمره بها فيما يرجع لحفظ الوطن وسياسة الرعية على حفظ الطاعة ، وإعانة الامراء المأمورين في الجهات ، والاستعانة برأي الوزير مصطفى صاحب الطابع ، والاحتفاظ برعايا الدول الاحباب واحترام قناصلهم ، وإعانة اللزّامة . واذا طرقه ما يطرأ على البشر من العذر المانع عن المباشرة الموجب للنيابة ، يقيم مقامه أخاه ابا عبد الله محمد الصادق باي ، يتبع نص وصايته ، إلى غير ذلك مما اقتضاه الحال . وفي آخره : « اذا توقفتم في أمر لم نستحضره في هذا التقييد ، وأشكل عليكم الامر ، فالفابور لا ينقطع عنكم ان شاء الله تعالى . هذا ما حضرني من الوصاية ، ولله الحمد والشكر بلا نهاية ، حيث رزقني أخا جزءاً منّي ، ينفّذ إذني ، ويحفظ غيبتي ، وينوب في مملكتي ، على سنن معتادنا ، الذي ورثناه من آبائنا وأجدادنا ، ولولاه لم نقتحم الاسفار ، ولا يسهل علي بُعْد الدار ، والغيبة عن الاوطار . اللهم أنت الخلف في الاهل والصاحب في السفر . واستودع الله أخي وعائلتي ومملكتي ، وحسْبي الله الذي تساءلون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيبا . والسلام » .

وكتب لابي محمد خير الدين كاهية الذي أمره بحراسة قصره بباردو كتابا أوصاه فيه بما اقتضاه نظره ، واذا طرأ عليه مانع فالوزير ابو الثناء محمود بن محمد كاهية يقوم مقامه . وفوّض أمر حلق الوادي لوزيره المذكور ، وجعل به أعيانا معه ، واذا طرأ له مانع فأبو المسرة فرحات يقوم مقامه .

وفي يوم الثلاثاء سابع ذي القعدة 1262 (27 اكتوبر 1846 م.) أمر باحضار كبراء العسكر من الصاغ قلاغاسي (1) فأعلى ، وأعيان من رجال الدولة ، فاجتمعوا بصحن البرج (2) . وكتب لهم كتابا أمرني بقراءته في جمعهم والوزير حاضر ، ونصّه :

« حفظكم الله تعالى ورعاكم ، وحاطكم بعنايته ووقاكم [والى سبيل الخير هداكم] (3) .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « الصاغ قول آغة سي » .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « بصحن المحمدية » .
(3) الزيادة عن ع و ق .

[الى] الاجلاء الفضلاء الاعيان الثقات المقربين سيوف صولتي ، ومظهر شوكتي ، ومفخر دولتي ، وسور حمايتي ، في حضوري وغيبتي ، وأعزّ خاصّتي ، أبنائنا أُمراء الأُمراء وأمراءِ الالَوِيَة وأمراءِ الآلايات وقائمي المقامات وأمناء الآلايات والبنباشية وسائر ضباط وكافة عساكرنا المنصورة بالله ، كثّر اللهُ أمثالهم ، وقرن بالرضى أعمالهم .

أما بعد فان المصلحة اقتضت أن أسافر بنفسي الى فرانسة ولندرة ، والله يعلم ان شغفي بكم وبمصالح المملكة يقتضي ان اقتحم المخاوف لامانكم ، وأتحمّل مشقة الاسفار لراحة أوطانكم . ومَنْ عندَه ، والشكر لله ، مثلُكم من الحماة والانصار ، يستسهل الاسفار وبُعد الدار . لان مثابرتكم على تنفيذ أموري ، تعظم في غيبتي اكثر من حضوري .

وجرت عادة الله في عباده ، ان المسافر يهتمُّ بأمر أولاده . فأنتم عندي ، بحمد الله ، المال والولد ، وبغيرتكم حماية الوطن والبلد . فلذلك أقمتُ فيكم من هو بمنزلة والدي ، وموضع مبرّتي ، وحافظ أمانتي ، وهو الوزير الناصح الثقة الخيّر الزكي ، أمير الامراء ابينا مصطفى صاحب الطابع ، مع انه في السفر لا غنى لي عنه ، ولا بدّ لي منه . لكن مكانتكم عندي ، تقتضي ان أبقي فيكم أعظمَ أهل ودّي . فامتثلوا جميعا ما يأذنكم به من السلم والحرب ، والقتال والضرب ، فانه يتكلم معكم بلساننا ، ويباشركم بيدنا . وارفعوا جميع مطالبكم اليه بالمحمدية من تقرير أغدادكم وتحرير أحوالكم اليومية واختبار مؤونتكم ، تأتيه بذلك الشواش كل يوم من العُرْضي (1) وحلق الوادي وعسة صرايتنا بباردو المعمور والقشل ، على العادة التي تفعلونها معنا نصّا سواء . وينفّذ ما يظهر له من العقوبة فيمن جنى منكم جناية توجب الحكم ، أيّ عقوبة كانت . واذا لزمه إقامة ضابط من اليوزباشي فأدنى ، فله أن يولي مَن يظهر له ويلبسه النيشان ، وأمضينا فعله . واذا أصابه ، والله الحافظ ، مرضٌ يوجب أن يقيم غيره مُقامه ، فله ذلك . وأذ نّاه ان يقيم مُقامه الثقة المقرّب أمير الامراء ابننا خير الدين كاهية ، فان تعذر فالثقة المقرب أمير الامراء ابننا محمود كاهية حلق الوادي . والقائم مقامه مثله في جميع الامور التي حرّرناها لكم ، يتصرف على مقتضى التقييد الذي حررناه بيد الوزير المذكور . فلا

(1) العرضي : المعسكر (انظر دوزى وياقوت) .

تعرفوا في غيبتنا سواه ، ولا تجول فيكم يد غيره إلا يد الله . واستودعكم من لا تخيب ودائعه ، وهو الذي ألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخوانا ، والله خيرٌ حِفْظاً وهو أرحم الراحمين ، والسلام » .

ويوم الاربعاء ثامن الشهر (28 اكتوبر 1846 م.) أحضر مشايخ الحاضرة وعرّفهم بعزمه على السفر ، وان البلاد في وجوههم ، وفوض أمر حراستها لابي النجاة سليم أمير لواء عسكر القشلة ، وأبي اسحاق ابراهيم امير لواء عسكر الطبجية ، وجعل في داره بالقصبة أربعمائة عسكري لحراسة المدينة ، وزاد في عسة الطّويلة ، وهي حارة الافرنج . ورتّب مائتي عسكري وعليهم بنباشي في رَبَض باب السويقة ، ومثل ذلك في رَبَض باب الجزيرة . وفي اليوم أبطل العَسَّة عن أهل البلاد ، وقال لهم : « حراسة البلاد ، موكولة للعسكر والاجناد ، ونَحرُسُهم باعانة الله في غيبتي ، كما نَحرُسهم في حضرتي » .

وكاتب وكلاءه في الممالك بخبر سفره .

ولم يزل مجتهدا من غرة هذا الشهر في ترتيب الامور ، والتدبير فيما يُثمر راحة الجمهور .

ولما كان يوم الثلاثاء الرابع عشر من الشهر (3 نوفمبر 1846 م.) ، أتى لوَداعه أهلُ المجلس الشرعي ، فعظّم مَقْدَمَهم وطلب منهم الدعاء ، فدعوا له . وقال له شيخ الشيوخ ابو اسحاق ابراهيم الرياحي في ذلك المشهد : « إن نُواب الجلْد والدخان واللزّامة لم يزالوا في تعنّتهم وعسفهم لعباد الله ، فكيف يكون الحال في مغيبك ؟ » ، فقال له : « يا سيدي قد بالغتُ في وصايتهم » . ولما خرجوا [تنفّس الصعداء ثمّ] (1) خرج إثرهم وزار مقام الشاذلي رضي الله عنه ، وتوجه لحلق الوادي فبات به ليلتين ليرى حال البلاد بعد سفره ، ووفود الحاضرة تَرِد لمشايعته .

وسافر ضحى يوم الخميس [السادس عشر من الشهر] (5 نوفمبر) ، في فابوره المسمى بالدنت (2) ومعه من رجال دولته وخاصّته الوزير مصطفى خزنه دار ، ووزير الحرب مصطفى باش آغة ، والقبطان حسونة المورالي ، والوزير جوزاب راف ، ومحمد

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) Le Dante باخرة صغيرة اهداه اياها لويز فيليب (اغانيا ج 172) .

المرابط امير لواء [عسكر المحمدية] ، وصالح بن عثمان شيبوب أمير لواء العسّة ، وخير الدين أمير آلاي [مباشرا لمصرف الدراهم] ، وحسُونة مَتَّالي (1) قائم مقام ، والعبد الفقير وغيرهم من أعيان خاصته . وصاحَبَه في هذا السفر قنصل الفرنسيس وهو الكولير ده لَقُو (2) ، ووراءه فابوره المسمى لفزي . فوصل لمرسى طلون ليلة الاحد [التاسع عشر من الشهر] (8 نوفمبر 1846 م) . (3) .

وفي الصباح لما ارتفع الصنجق التونسي ، تزيّنت سائر الشقوف الحربية بالمرسى ، وأُطلقت المدافع دفعة واحدة من كل شقف . وأتاه أمير الاسطول ورحّب به وعظّم مَقْدَمَه ، ثم أتى الامرال الكبير بودين من البلاد ، وهو شيخ مسنٌ حنّكته التجارب والحروب ، محلًّى بفقد ذراعه في حرب ، وعظّم مقدمه ورحب به وقال له : « ان فرانسة في انتظارك ، وقد أحضرت لك فابورا يحمل الى بلادك مكاتيب وصولك » ، فكاتب سائر المأمورين ، وأمر الوزير مصطفى صاحب الطابع بقراءة مكتوبه على العسكر .

ولم يزل الاسطول الفرنساوي مزينا بالصناجق ، وفي كل شقف منه صنجق تونس .

ووجد في طلون مترجم السلطان ، وهو الكولير دقرانج ومعه يوزباشي من وزارة الحرب ، مأمورَيْن من الدولة بانتظاره . ولما سلّما عليه ، وقع في نفسه أن مثله لا يتلقّاه يوزباشي ، وربما ظهر على وجهه ، فقال له اليوزباشي ، واسمه برسي ، وكان آية في الالمعية والنجابة (4) ويتكلم بالعربية : « يا سيدي ان مثلي لا يبعث لتلقّي مثلك ، وسلطاننا أمر بأن جموع فرانسة هي التي تتلقاك ، وسترى ذلك عِيانا ، وحسبي أن أهيّىء لك محلّ المبيت في الطريق ، والكراريس ، وغير ذلك مما يلزمك ، ودقرانج هو ترجمان السلطان » .

ولما تمت مدة الكرنتينة أتى الامرال ومعه كافة أعيان الاسطول ، وقابلوا الباي في فابوره (5) ، واعتذر الامرال عن عادة الكرنتينة ، فقال له : « لا تَعَب عندي فيها ، لانـي أحكم بها في بلادي ، والانسان يحكم على نفسه بمثل ما يحكم به على غيره » .

---

(1) فى ع و ق : « المتـــالى » .
(2) De Lagou (غانيا ج 19 و 20) .
(3) الـزيـادة فى الفقـرة عن ع و ق .
(4) فى ع و ق : « وكان اية الله فى الذكاء والسياسة »
(5) فى ع و ق : « وقبلهم البـاى فى فابوره وعظم مقدمهم » .

فقال له : « مثلك من يعتبر ذلك (1) » . ثم قال له : « ان فرانسا اهتزّت لقدومك ، وانها تقبلك كما قَبِلتَ أنت أولاد سلطانها ، وأنت المبتدىء بالإكرام » ، فقال : « انما فعلت ما رأيته واجبا ، ولا يشكر الانسان على واجب » . ثم صحبه الامرال الى الفلوكة ، ولما نزل بها اطلقت جميع الشقوف المدافع ، وطلع بحريّتها إلى أعمدتها ، رافعين أصواتهم بما جرت به العادة (2) عند مرور الملوك . ومرت الفلوكة على الشقوف وهو يسلّم على كل شقف بانفراده .

ولما وصل البرّ وجد العسكر واقفا من محل نزله الى دار الامرال التي بات بها .

ولما وصلها أتته أعيان طلون من العسكر واهل البلاد ، جماعة بعد جماعة ، والامرال واقف بين يديه يعرّفه بكل جماعة وبالاعيان منهم . وتحقق بذلك ما أخبره به اليوز باشي برسي .

ثم توجه الى الترسخانة والامرال يماشيه ، فوقف على خزائن مهمّات الطبجيّة وآلات اطفاء النار ، وحرّكوها بالفعل حتى رأى قدر ارتفاع الماء وقوّته ، والاماكن التي بها إنشاء الشقوف ، والاحواض التي ترفع بها الاجفان من الارض بالماء المنساب اليها من البحر ، وتنزح بآلات في قدر خمس ساعات ، وهي من اعاجيب الدنيا ، وأماكن الصناعات وغير ذلك من المصانع الدالّة على قوة المملكة وضخامتها وثروتها وآثار العقل الذي شرّف الله به نوع الانسان .

وبات تلك الليلة بدار الامرال وأبدع ما شاء في الاحتفال والإكرام .

ومن الغد أتاه جميع من في طلون من العسكر ، ومروا بين يديه ورأى نظافتهم وسلاحهم وحسن ترتيبهم .

ثم توجه الى المارستان ، ثم الى خزنة السلاح ورأى حسن تنظيمها .

ثم توجه الى ترسخانة جديدة ، ثم الى برج كبير هناك [كأنه بلاد] ، وسرح نظره في تلك المباني [والعجائب] . جميع ذلك والامرال يماشيه ، وهو شيخ مسنٌّ من [مفاخر أمراء] (3) الفرنسيس .

---

(1) فى ع و ق : « مثلك من يعتبر الانصاف » .
(2) فى ع و ق : « بما جرت به عادتهم » .
(3) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .

ثم خرج من طلون الى باريس ، راكبا كـرّوسة من الدولة تجرّها ستة من الخيل ، وبقية من معه في كراريس تُجَرّ بأربعة . ويقع تبديل الخيل والسائقين بعد كل ساعتين . وقطع بذلك مسافة شهر في ثمانية أيام .

وكل بلد يبيت به تأتي عساكره وأعيانه مع حكامهم للسلام عليه وتعظيم مقدمه ، كما وقع بطلون ، بحيث صارت البلدان تتبارى في الاحتفال لقدومه .

غير أن السالك في تلك الطريق يشاهد معنى العمران وصورة التقدم في ميادين الحضارة ، ونتيجة الامن والامان . لا تكاد تجد موضعا معطلاً من نفع شجرة أو حرث او كلإٍ مستنبت . يسقى جميعها بغيوث العدل وسيوله المفعمة . يودّ السالك في تلك الطريق السهلة ان المسافة تطول ، لِمَا يشاهد من حسن الطريق وما حفّ به من الابنية والاشجار والمراتع والانهار ، وكثرة المارّين على اختلاف الانواع . لا تكاد تسمع صوت متظلم إلاّ مِن نفسه . وهذا من أعجب ما يُسمَع مع كثرة المغارم والمكوس . وسرّ ذلك أنها غير مجحفة ، وأهلها يعرفون مقاديرها ومصاريفها في مصالحهم على اختلاف أنواعها .

إلى أن وصل الى باريس ، وما أدراك ما باريس .

هي الغانية الحسناء الباسم ثغرها في وجوه القادمين ، مشحونة بأعاجيب الدنيا ، جامعة لاشتات المحاسن ، ينطق لسان عمرانها الزاخر ، بقوله : « كم ترك الاوّلُ للآخر » . ما شئتَ من علوم وصنائع ، وثروة وسياسة ، وظرف وحضارة ، وعدل [تزكو أثماره وتسطع أنواره] (1) . تموج شوارعها بالساكن في مراكز الامن ومضاجع العافية ، يقودهم الامل ويسوقهم الحرص على العمل (2) . ولو تتبّعنا الرحلة لكانت كتابا مستقلا .

[وقد أعطاها حقها الشيخ رفاعة الطهطاوي واجتمعت به فيها] (3) .

فنزل بقصر إلِزِي بُرْبُون (4) ، من أعزّ قصورها الملكية ، وكان مسكن السلطان نبليون الاول . وفي الحين أتاه أصغر أولاد السلطان ، وهو الدوك دي مُنْبَنْصِيا(5) فرحّب

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذا فى ع و ق ، و فى خ : « ويسوقهم العدل » .

(3) الزيادة عن ع و ق ، والاشارة فيها الى كتاب «تخليص الابريز فى تلخيص باريز » وهو رحلة الطهطاوى الى فرنسا .

(4) Elysée Bourbon

(5) Duc de Montpensier

بـه وعظّـم مَـقْـدَمه وبلّغ سلام والده ، واعتذر عن والده بـأنه في بستـان صَنْـكْـلُـو (1) وهو بعيد عن باريس بـأميال . وقـال لـه : « إنـه يقدم غدا ليقابلك في قصر السلطنـة » ، وهـو التولري (2) .

وانتظر الباي قدوم رسول الدولة العلية بباريس فلم يقدم ولا بعث أحدا ، فقوي عنده ما كـان توهّـمه في رأي وزراء الدولة .

ومن الغـد ، وهو يـوم الاثنين خـامس ذي الحجّة (23 نوفمبر) ، بعث السلطـان كـروسته المخصوصة لركـوبه في المواكـب ، ومعها عدد من الكـراريس ، فتوجه بمن معه ، ومعه الامير آلاي المأمور بعسّته ، وهو الكـلنيل تِـري .

ولما وصل القصر السلطانـي ، تعرّض له خاصـّة السلطان وأعوانه ، وأدْخَلوه لبيت بها مائدة منظّـمة من صنوف الحلويات ، ثم أدخلوه الى البيت الذي به السلطان ، فوجده واقفا ، وأولاده ووزراؤه عن يمينه ، وزوجته وأخته ونساء أولاده عن شماله . ولما قاربه الباي تقدم اليه بخطوات باسم الوجه ، وعظّـم مقدمه وآنسه وشكـر حسن قبوله لاولاده . ثم قدّم اليه زوجته وبقية آله واحدة بعد أخرى ، يعرّف بكـل واحدة والباي يسلّـم عليها . ثم عرّف بالوزراء واحدا بعد واحد . ثم قال له الباي : « نريد أن نقدم بين يديك خاصـّتي » ، وقدم له كـلّ واحد منا معرّفا بخطّته ، والسلطان يسلّـم على كـل واحد بما يناسبه . وقال عند التعريف بالوزير مصطفى خزنه دار : « وزيرك هذا تقدمت له زورة لفرنسا ومعه [صاحب أسرارك] (3) جوزاب راف » ، ثم قال له : « بلغنـي أنك تَـعْلّـم لغة ايطاليا وأنا أعلمها ، فلا يلزم بيننا ترجمان » . ولم يزل يباسطه ويؤانسه .

وخرج الباي فشيّـعه أعيان ، منهم ولد السلطان .

وأمر السلطان المرشال صلت (4) ، كـبير الوزراء ، أن يتوجه بهم لزيارة الباي . ولما وصل لمحلّ نُزُله ، أتاه إثر وصوله أولادُ السلطان ، وهما الدوك دي جنفيل (5) والـدوك

---

(1) Saint Cloud

(2) Tuileries

(3) الـزيـادة عن ع و ق .

(4) Soult

(5) Duc de Joinville

دومال (1) ، فقبلها قبول أمثالهما . ثم أتى أخوهما الاكبر ، وهو الدوك دي نمور (2) ، فترك ورقة القدوم .

ومن الغد جاءه المرشال صلت ، ودخل للباي ومعه سائر الوزراء ، وهم : الوزير العالم المنصف الحكيم قيزُو (3) ، وزير السياسات الخارجية ، ووزير البحر ، ووزير الحرب ، ووزير الاحكام ، ووزير التجارة والفلاحة ، ووزير المصالح العامّة ، ووزير المال ، ووزير العلوم ، فقام الباي لتلقّيهم ، وعظّم مَقْدَمهم ، وأجلسهم وحادثهم .

ولما خرجوا قام لمشايعتهم ، فمنعوه من ذلك . وقال له المرشال : « لا نقبل منك شيئا مما (4) اعتدناه من ملوكنا » . ولما خرجوا أتى المرشال بستياني المأمور بعسكر البلد [وهي العسة الجنسية ، ولها عند ملوكهم أي اعتبار] (5) ، فعظّم مقدمه ورحّب به وقال له : « معي سائر كبراء العسكر » ، فخرج لهم الباي ، ومرُّوا أمامه مسلّمين على عادة تحيّتهم ، والمرشال يعرِّف بهم .

ولما خرجوا ، ركب الباي لزيارة مَن زاره من الوزراء ، فمنهم من وجده بداره فاجتمع به ، ومنهم من لم يجده فترك في داره بطاقة الزيارة على عادتهم .

ولما وصل دار المرشال صلت ، تعرَّض له وعظّم قدومه وفرح لتلقّيه وأطال معه المحادثة ، ولما خرج شايعه . وطلب منه الباي الرجوعَ لمكان شَيْبه ، فاستعظم ذلك وقال : « كيف أُخلُّ بواجب ؟ » ، وماشاه الى الكرُّوسة .

وهذا المرشال من أفراد الجنس الفرنساوي ، معدود من رجال الحرب والشجاعة والوفاء ، شهد مع نبليون الاول حروبا كثيرة ، وقاد عن إذنه جيوشا ، وتقدم لهذه الخطة في دولته . وأهل فرانسة يحبّونه ويسمّونه « ظلّ نبليون » . وفي مثل اليوم الذي انفصل فيه نبليون من السلطنة من كل سنة ، يتزيّا بشعار الحزن ويغلق بابه ولا يزور أحدا ولا يقبل زائرا . ومع ذلك فسلطان الوقت يحبّه ، ويعدُّ ذلك له من الوفاء ، ليرضي الجنس الفرنساوي ، لِمَا يعلم من حبّهم في نبليون .

---

(1) Duc d'Aumale

(2) Duc de Nemours

(3) Guizot .

(4) كذا في خ ، ولعلها : « ما اعتدناه » ، والجملة ساقطة من ع و ق .

(5) الزيادة عن ع و ق .

وبلغ الباي ان رسول الدولة العثمانية [بباريس] كاتب الوزير قزو متشكيا من قبول الدولة الفرنساوية للباي بغير حضوره ، فأجابه بأن هذا الملك أتى زائرا لبلادنا ، ولنا معه شروط مرعيّة ، وتقدّم قبول نوّابه ورسله بغير حضوركم . وبالامس قبل أولاد سلطاننا بغاية السرور والاحتفال ، الى غير ذلك من براعة قلم هذا الوزير المضروب بها المثل [عندهم] (1) .

وقوي بذلك أيضا ما توهمه الباي في وزراء الدولة العلية من ميلهم الى خرق العادة التونسية .

وتفنّن هذا السلطان في إكرام الباي تفنّنا بديعا ، واحتفل في ضيافته احتفالا يناسب باريس ، واستدعاه لذلك في قصوره وبستانه مرارا ، على كيفيات مختلفة ، واستدعاه الى المسامرة معه في تياترو بستانه ، وأجلسه حذوه ، ومعه الرّجينة وبقية آله . واستدعى لذلك المرشالات والوزراء والاعيان وأزواجهم ، وكانت ليلة مشرقة .

ومحصّل هذا التياترو : « بناء ضخم عليه قبّة (2) مرتفعة ، وبه رواشن مطلّة على ساحة المجتمع ، مدخلها من غير الساحة . ومحلّ العمل يقابل سائر الناظرين من نصف دائرة . وأعماله حكايات بعض وقائع تقدمت ، يبرزونها من الفكر لحِسّ المشاهدة . ويختارون لذلك البلغاء والخطباء ممن لهم معرفة بالاخبار والتاريخ والاشعار . وعدد العملة في ذلك أكثر من مائة . وهي من الصناعات الشريفة عندهم ، لان مَرْجِعها تربية الناس وتهذيب أخلاقهم ، لما يرون تحسين الحَسَن وتقبيح القبيح معاينةً ، [وذلك أوقعُ في النفس] (3) . وفيها الموسيقى (4) ، وتارة يكون العمل الغناء والرقص .

واتفق ان كان في هذه الليلة حكاية قصة ، ولا أظنّها الا مقصودة . ومحصلها إجمالاً ان بكرا من بنات الاكابر بالنّسب ، مات أبوها وبقيت مع أمها ، وهي بالغ ، فمالت نفسها الى التزوج برجل من افراد الجنس ، وصار يأتيها ويحادثها ، وتنكر أمّها قدومَه ، ولما يخرج تعاتب البنتَ على السرور بقدوم الرجل ، فتقول لها البنت : « ألهذا الرجل قادح في عرضه ومروءته ؟ » ، فتقول لها الام : « إنه ليس من أكفائك في النسب ،

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) فى ع و ق : « سقف مرتفع » .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) فى خ و ع : « الموسيقا » ، وفى ق : « المسيق » .

وفي الرجال من له قدرة على استمالة القلوب بالمحادثة وليس له وفاء ، فهو في الحقيقة متحيّل » ، فتستحي البنت وتسكت . إلى أن قالت لبنتها ، بعد خروج الرجل : « كأنك تريدين التزوج بهذا الرجل ؟ » ، فقالت لها البنت : « وما يمنعني من ذلك ؟ » ، فقالت لها : « ان نسبه ليس كنسبك » ، فقالت لها البنت : « اذا كَمُلت النفس [بالحسب] غطّت نقصان النسب » ، فقالت لها الام : « [ان أنظارك من الاكابر لا يريدون ذلك و] ان السلطان لا يريد ذلك ويمنعك من الرضى به » ، فصاحت البنت في ذلك المجمع [الحافل] : « بأي شرع يتصرف السلطان في ارواحنا بالقهر ونحن أحرار ؟ » ، وأقسمت ان تتزوج بالرجل ، إظهارا لحريتها ، وخرجت فورا الى الكنيسة . ولما صاحت البنت بهذه المقالة ، قال لها السلطان في ذلك المشهد ما معناه : « أحسنت ، أحسنت » ، وصفق بيديه ، وتلك علامة الاستحسان عندهم ، فصاح جميع من في المشهد بالدعاء للسلطان بطول الحياة ، وانسدل ستر محل العمل لإحضار عمل آخر (1) .

والتفت السلطان الى الباي وقال له : « يلزمني أن أستحسن هذه المقالة ، سياسةً لهذا الجمهور ، ولو لم أفعل ذلك ربما يقال انني لا أحب الحرية ، ويجب على أمثالنا مراعاة الجلب لقلوب الرعية بما تستحسنه ، واعظمه العدل الذي منه الحرية » .

وانما علمت هذه الحكاية ، مع تطبيق مشاهدة الحال ، من الكولير دقرانج ترجمان الدولة ، وكان جالسا حذوي ، وعنده من الظرف ما يقتضي تأنيس الجليس ، بل قال لي إن الوزير قِزُو أمرني أن أفسر لك ما تتشوف اليه نفسك ، لانك صاحب قلم الباي ، لتكتبه في رحلتك .

ولما انسدل الستر قام الباي لموضع آخر ، وأشار اليّ فماشيّتُه ، فقال لي : « أتعلم ما استحسنه هذا السلطان وصفّق عليه ؟ » فقلت له : « نعم ، ان دقرانج عرّبه لي » ، فقال : « سلطان الفرنسيس على قوة عُدّته ، وكثرة جنوده ، بهذه الحالة [في مراعاة الرعايا] ، فكيف بنا أيها الشيخ ؟ » ، فقلت له : « ان القوم سبقونا الى الحضارة [بأحقاب من السنين] حتى تخلقوا بها ، وصارت من طباعهم ، وبيننا وبينهم بون بائن ، ولله فينا علم غيب نحن صائرون اليه » ، فقال : « نسأل الله حسن العاقبة » (2) .

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ولهذا الباي استحسان لافعال نبليون الاول ، حتى انه أمر بترجمة حروبه ووقائعه باللغة العربية (1) ، وقرأتُها عليه غير مرة بالمحمدية ، ويرى انه من عظماء الدنيا كالاسكندر واشباهه ، فأحبَّ ان يقف معتبرا على تابوته ، وكان بمحلٍّ يسمّى الانفليد (2) ، وهو موضع من أصيب من العسكر في الحرب بنقص عضو ونحوه ، فأتاه ولمّا دخله اصطفَّ له سائر من له قدرة على القيام ، هذا برجل من خشب ، وآخر بغير ساعد [ونحوهم ، ومنهم مسلم من الجزائر يتكلم بالعربية] (3) وبأيديهم سيوف ، فأتاهم وسلّم عليهم وآنسهم ، وقال لهم : « ان ما وقع لكم من النقص البدني ، الذي هو كمال في الانسانية ، شهادة لكم بالثبات والصبر وحبِّ الوطن » . ووجد من لا قدرة له على القيام ، كل واحد في سريره ، موكل به امرأة تناوله ما يشتهيه ، وتزيل عنه ما يلزم زواله ، وهي حانية عليه حنوَّ الوالدة على الفطيم . وبه مارستان كبير لمن طعن في السنِّ وعجز عن الخدمة ، تجري على الجميع جرايات واسعة ونفقة لها بال ، من أحسن ما يتمنى الإنسان . وطاف الباي على تلك الاسرَّة وحيّا أهلها كل واحد بانفراده . ثم أتى التابوت الذي به نبليون ووقف معتبرا بحال الدنيا ، وهو في صندوق من حجر في صناديق من خشب ، على ما قيل لنا ، مغطّى بساتر من حرير اسود ، وحوله صناجقه المثقبة بالرصاص ، والصناجق التي أخذها في حروبه .

ثم اتاه المرشال الموكل بذلك المكان ، وهو من عسكر نبليون ، يدبُّ على ضعف بدنه وبصره وشيخوخة سنّه ، فتجلد تجلّد الشجعان وفتح له خزانة بها ثياب نبليون وغطاء رأسه ونعله وسيفه ، محفوظة في ذلك المحل تذكارا لصاحبها . وذكر انها كانت عنده مَخْفيَّة . ولما أراد ان يُخرج بعض تلك الثياب بكى ، فقال له الباي : « المقصود النظر فقط » .

ثم طلب من الباي أن يزور محلّه ، فأسرع لإجابته بسرور لـمّا رأى فيه من الوفاء وأكل من طعامه وشكره وشكر زوجته ، وحصل للمرشال سرور بذلك .

وهذا المحل مما يقوي قلوب عساكرهم حين يرون مآل العاجز منهم ، وانه لا يُترك نسيا منسيا . وهذا الشأن هو شريعة الاسلام ، ولمثل هؤلاء حق شرعي في بيت مال المسلمين .

---

(1) انظر التعليق بص : 36 من هذا الجزء .
(2) Les invalides
(3) الزيادة عن ع و ق .

والحاصل انه في مدة اقامته بباريس يركب كل يوم بأتباعه الى الاماكن التي تتوق النفوس لمعرفتها من عجائب باريس ، والامير آلاي المأمور بعسّته يدور معه .

فتوجه إلى موضع مهمّات الطبجية ، ورأى انواع المدافع وآلات جرّها ، والاسلحة على اختلاف أنواعها وأشكالها ، من لدن ابتداء المقاتلة بالسلاح الى عصرنا ، والدروع للفرسان والخيل ، ووقايات الرؤوس .

وتوجه الى دار برفيت (1) باريس ، اي شيخها ، ويعبر عنها بدار الجنس [وبدار الملة] (2) . وهي من اعاجيب الدنيا ، وبها ما ليس في قصور السلطنة . وتلقاه شيخ باريس وطاف به سائر أماكنها واطلعه على أزمّتها ، واستغرق يومه في محاسن تلك الدار . وهي لمجموع الجنس ، لا دخل في تصرفها للملوك الا بولاية الشيخ .

وتوجه الى بستان فرصال (3) الذي يدور له ماء الوادي ويتفجر في أنابيب وفوّارات مختلفة الالوان والاشكال ، يعلو الماء من بعضها قدر عشرين ذراعا ، وتماثيل منحوتة من الرخام والمرمر من الحيوانات ، ينبع الماء من مخارجها على أشكال غريبة . ودارَ في طرق هذا البستان بالكراريس واستغرق يومه في ذلك .

ومن الغد رجع لهذا البستان وسرح نظره في قصره ، ودار في ارجائه وبيوته في مدة خمس ساعات ، وهو من اعاجيب الدنيا .

وتوجه الى دار ضرب السكة [الخالصة] (4) ، وعملُها بالفابور ، وحركوا آلاتها بمحضره ، وهو ينظر الدراهم خارجة موزونة مطبوعة تجري جريان الماء في ساقية من خشب . وطبعوا بمحضره قطعا من خالص الفضة ، اكبر من الريال الدورو ، الا انها بغير آلة الفابور ، مكتوب على كل واحدة ما نصّه : « سعادة بلك تونس قد شرف دار السكة بباريس بحضوره في غرة ديشنبر سنة 1846 مسيحية » ، وبالجهة الاخرى صورة وجه السلطان . وطبعوا أمثالها من النحاس ، وأهدوا جميع هذه القطع للباى واتباعه .

---

(1) Prefet de Paris اى دار الوالى .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) كذا فى خ و ع و ق ، والمراد : Versailles .

(4) الزيادة عن ع و ق .

وتوجه الى دار ندوتهم ، وهـي بيت وكـلاء المملكـة [ولك ان تقول : بيت عمران المملكـة وثروتها ونجاحها] ، وهـي من المباني الضخمة المحترمة ، وبيت الاجتماع نصف دائرة بها مدارج تجلس الوكـلاء عليها صفّا وراء صف ، ويقابل تلك الدائـرة روشـن للسلطان يجلس فيه يوم فتحها [ويقف فيه خطيبا بالقاء ما يريد القاءه على المسامع لتفكـّر فيه عقول الحرية] (1) ، وتحت الروشن كـراسي للوزراء في الارض ، مقابلة لاول درجة من درج الدائرة ، وفي الارض شكـل منبر يقابل الوكـلاء ، لمن يريد الكـلام من الوزراء، بحيث ان المتكـلم يسمعه ويراه كـل واحد من الوكـلاء .

وتوجه الى دار عجائب الحيوانات والنباتات ، فرأى من صنع الله الدليل القاطع على باهر قدرتـه .

وتوجه لمحل يسمّى قبلين (2) ، وهو موضع النسج بالصوف مع التصوير الملـوّن ، يصنـع فيه الناسج ما يصنعه المصور بأدهانه . وللفرنسيس اعتناء بهذه الصناعة التـي قل من شاركـهم فيها ، وهـي عجيبة . واهدى السلطان صورته من ذلك النسج الى الباي ، وهـي الآن بقصر الملك باردو .

وتوجه الى محل يعرف بسيفر ، تصنع فيه الاواني من الطين ، المزوقة بالادهان ، المزرية بأوانـي الفضة ، لما فيها من الجودة واتقان الصناعة .

وتوجه الى دار الكـتب المرتفعة المتسعة الهائلـة وبهـا عدد كـثيـر من [المصـاحف القرآنية وكـتب الاحاديث النبوية والدواوين الفقهية والتفسير وغير ذلك من] (3) الكـتب الاسلامية ، وما لا يحصى من الكـتب الافرنجية في سائر الفنون . يطلب الجالس في طاقها الرابع من قيّم البيت الاسفل كـتابا ، فيطلع اليه الكـتاب في الحين بـآلة . ويسمع الاسفل كـلام الاعلى من حلاقيم نافذة من كـل طاق الى ما يليه . وفيها من المصاحف المنمقة ما يذهل الفكـر ويستوقف الناظر ، ومنها مصحف بصندوق يخصه ، ذكـروا ان الرشيد العباسـي أهداه لمن في عصره من ملوكـهم . وعادة الافرنج لا يعظمون الحروف ولا يحترمون أجرام الكـتب مثل المسلمين ، وانما ينظرون الى ما فيها (4) . ولما رأى الباي يد

(1) الـزيـادة في الفقـرة عن ع و ق .
(2) Gobelins
(3) الـزيـادة عن ع و ق .
(4) في ع و ق : « وحسبهم الاستفادة بما فيها » .

القيم جائلة في المصاحف حين إخراجها للاطلاع عليها ، على كيفية غير معهودة في الملة الاسلامية ، اقشعرّ وقال لذلك القيم : « يكفي ، فاني لا أمسُّ هذا الكتاب الا على شرط مخصوص هو غير قائم بي الآن » ، ورجع ولم يسرِّح النظر في تلك الكتب .

وتوجه الى قصر السلطنة المعروف بالتولري وأهدى للسلطان نيشان آل بيته ، وعلّقه على صدره بنفسه ، وقبّله السلطان بسرور ، وقال له : « اعلم ان نيشانك هذا قبلته فرنسا ، لان منزلتي منها منزلة أب » .

واستضافه الوزراء وتأنقوا في الاحتفال له ، ولاجله أمر السلطان بتعليم عسكري يحتوي على خمسة وعشرين ألفا ، من طبجية وخيّالة ورجال ، أميرهم أكبر أولاد السلطان ، ومعه أخوه أمير آلاي طبجية ، في فسيح من الارض قرب الانفليد ، دار العاجزين من العسكر . وأتى سايس السلطان الى الباي قبل يوم التعليم وبيده زمام به عدد من الخيل لركوب الباي ومن معه ، مكتوب فيه اسم كل حصان وبيان خلقه ، وسروج عربية ومثلها افرنجية ، يركب كل واحد على ما شاء من الخيل بما شاء من السروج ، وكراريس .

وركب الباي بمن معه ، ولما وصل الى مجتمع العسكر ، تلقاه ابن السلطان وقال له : « ان التعليم صنع لاجلك ، فأنت أميره في الحقيقة » .

وشرعوا في صرخ المدافع والمكاحل حتى اسودّ النهار ، وكان يوما باردا ، فقال الباي لابن السلطان : « ان العسكر آلمه البرد [والثلج] (1) ، ويكفي ما حصل ، فأمر بالانفصال .

ووقف الباي وابن السلطان حتى مرّت العساكر أمامهما بمدافعهم وسائر آلاتهم ، وكان يوما مشهودا .

واستضافه ابن السلطان في قصر تولري ضيافة عسكرية حضر مائدتها مائة من أعيان العسكر الذين حضروا التعليم ، والباي وأتباعُه . واحتفل لهذه الضيافة احتفال عظماء الملوك .

ثم استضافه اصغر اولاد السلطان ، وهو امير آلاي الطبجية ، في قشلته ، وتسمى فان صان (2) . وصنع له تعليما ومحرّقات ملونة على اشكال وتماثيل تستوقف الناظر ، وصار بها الليل نهارا . وخرج في تلك الليلة كثير من نساء باريس برجالهن . وصرف على ذلك أموالاً .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) Vincennes .

وتوجه الى دار التعليم الكيمياتي ووجدهم اذ ذاك في اختراع سلك الإشارة ، الاعجوبة الموجودة الآن . وشاهد حال التلاميذ ومقدار ما لكل واحد من التقدم ، وما أهّل الله له النوع الإنساني ، وما وصلت اليه العقول السليمة .

ولم يزل يتردد في الاماكن المشهورة ، كبيت تاج الملك المكلل بثمين الاحجار وما تبعه من عجيب المَصَاغ بفرائد اليواقيت [وغيرها مما يبهر النظر] (1) .

وفي كل ليلة يحضر مائدتَه في قصر نزله أعيان يستضيفهم من رجال الدولة والعلماء وأعيان اهل البلاد ، باشارة من الكولير جول دي لسبس (2) ، ابن القنصل الذي كان بتونس ماتيو لسبس ، وتقدم ذكره ، ومن القنصل ده لَقُو .

اتاه ليلةً رجل من اعيان باريس (3) ، بعد ان شاهد تذهيب الحديد وتفضيضه حتى يخرج كأنه خالص من اتقان الصناعة ، فقال له : « هل استحسنتَ صناعةَ هذا المحل ؟ » ، فقال له : « انها مستحسنة ، غير انها تثير الشك في الخالص » ، فقال له الرجل : « مثلك من يقول هذا ، لان الخالص لا يستحسن الا الخالص ، والمموّه لا يستقبح التمويه » . وبلغنا ان هذا الرجل صار من الوزراء .

ولم يزل مدة اقامته في باريس يتنقل كل يوم من نزهة إلى نزهة ، وهو مع ذلك يتذكر تونس وعادات أهلها ، وأماكنها عند مشاهدة كل عجيب ، ويقول : « ليت مثل هذا عندنا بالمحل الفلاني بتونس » . حتى انه مرَّ يوما [بالمهيع المعروف بشان زِلِزِي] (4) ، ومعناه ممشى الجنة ، فقلت له : « كاد ان يوافق الاسم المسمّى » ، فقال لي : « ما اشوقني للدخول من باب عليوة ، واشتمُّ رائحة الزيت من حانوت الفطايري داخلَه » ، فقلت له مداعبا ، وأنا أتنفس في هواء الحرية وأرِدُ من مائها وقدماي بأرضها ، : « يحق لك ذلك ، لانك ان دخلت من هذا الباب تفعل ما تشاء ، اما الآن فأنت رجل من الناس » ، فقال لي : « لا سامحك الله ، لِمَ لا تحملني على حب الوطن لذاته وعلى أي حالاته ؟ » ، فقلت له : « ان هذا البلد ينسي الوطن والاهل كما قال الشاعر :

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) Jules De Lesseps (غانياج 302)

(3) بعد « باريس » بياض بقدر ثلاث كلمات في غ ، لم يراع في ع و ق .

(4) كذا في ع و ق ، وفي غ : « مر يوما بمكان اسمه زلزا » .

ولا عيب فيهم غير أن تـزيلهـم يعـاب بنسيـان الاحبّـة والاهـل »

فقال لي : « اذاً يصدق علينا المثل المشهور عند العامة « من رأى قمح الناس لا يبزع (1) شعيره » .

وقلت له ذلك خشية ان يظهر منه القلق ، لانه في هذه الايام تحقق ان دولة بريطانيا لا تقبله القبول الاول الا بحضور رسول الدولة العلية [بلندرة] (2) ، جريا على مقتضى سياستها ، فكاتب وزيرها بما محصّله : « ان استنادي الى الدولة العلية وثيق البنيان ، ثابت الاركان ، ولنا معها عادات معروفة . وقد قبلتم رسلنا بغير واسطة ، والرسول نائب ، فكيف تتوقفون على واسطة في قبول المنوب عنه ؟ ولنا معكم شروط محترمة . على ان زيارتنا لدولتكم انما هي زيارة تأكيد للمحبة ، وحيث توقفتم في ذلك على واسطة ، فانه يتعذر علي خرق عادة في آل بيتي ولم يظهر لي سبب يقتضي خرقها . فهذا عذري في عدم القدوم . وبودي ان ذلك لم يقع » . وتكلم في ذلك مع رسول دولة الانقليز بباريس .

وعزم على الرجوع ، وقابل سلطان الفرنسيس للوداع في قصر تلري (3) ليلاً بمحضر أعيان من الوزراء وغيرهم ، فقال له : « الفابور الذي أتيت فيه صغير ، يتعبك في هيجان البحر ، وهذا وقت شتاء » ، فقال له الباي : « قد وصلت فيه بأمان وعافية ، وارجو الله ان ارجع كذلك » ، فقال له : « أنت في ضيافتي ، وعهدتك عليّ ، فلا أخاطر بسفرك في فابورك . وقد هيأت لك في طُلُون الفابور الكبير الذي ارتضيته لسفر ابني حين قدم اليك » ، فقال له : « لا نردّ كرامة من سلطنتك » . وودّعه وودع الرّجينة وخرج ، وشايعه أولاد السلطان .

وسافر فبات بالقصر السلطاني المسمّى فنتنبلو (4) ، وهو من اعظم القصور وأفخم الهياكل ، وبِلِصْقه بلدة ، فأتاه أهلها على عادة البلدان التي مرّ بها . [ولم تتم يومئذ طرق الحديد ، وانما ركب فيها مرة] (5) . وسار على غير طريق قدومه ، فرأى أيضا من الثروة والعمران ما يستوقف الاذهان ولا يحيط به بيان .

---

(1) يبزع : يطرح ، ينبذ .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) كذا في خ و في ع : « تولرى » ، وفي ق : « لوترى » .
(4) Fontainebleau
(5) الزيادة عن ع و ق .

ولما أتى مرسيلية اقام بها يوما وليلة ، واحتفل اهلها لقدومه ، وبالغوا في اكرامه وتعظيمه، ومنهم تجار يعرفهم بتونس مثل ولد الحكيم قاي الفرنسيس طبيب جدّه وصاحبه (1) . واليهودي التونسي الوجيه المسمى بالصايم الذي سافر من تونس خوفا على ثروته ، بعد ان دفع مائة الف ريال جُعلاً للوزير حسين خوجة لاجل تسريحه ، وعُدَّ ذلك من خسران هذا الوزير حيث رضي منه بهذا المقدار ، مع ان ذمّته تفي بأكثر من هذا العدد ، وغيرهُما .

وشمّ من مرسيلية رائحة الوطن ، وأتى أماكنها المشهورة ، ورأى المرسى الجديد ، والسيول المفعمة بالمتاجر ، وآثار الثروة والعمران [وتحقق معنى قولهم « المتجر يقطع سلاسل الفقر » ، لا تكاد ترى واحدا بغير شغل] (2) .

وأتى الدار المعدة لتنظيف السكّر ، وصاحبها من أعيان البلد وشيوخه ، وله معرفة وخلطة مع نبليون .

ومنها توجه الى طلون ، فقابله الاميرال بودين ، واتته اعيان البلد وغيرها مودعين .

وبالجملة فقد صدر من اهل فرانسا وسلطانها ورجال دولته ، مع هذا الباي ما بقي أثره ، ولا يُنسَى خبره ، من حسن القبول واظهار المسرّة والاعتناء . ولا يُستغرَب ذلك في حسن أخلاق هذا الجنس ، وبشاشتهم في وجوه الوافدين اليهم ، وحرّيتهم التي اقتضت أنهم لا يستكبرون ، وميلهم للانصاف ، لكن هذا الاخير في بلدانهم ، فاذا خرجوا منها ربّما بعدوا عن هذا الميل ، إلا ما قلّ منهم .

ووصل الى حلق الوادي صباحا في الثاني عشر من محرم سنة 1263 ، ثلاث وستين (الخميس 31 ديسمبر 1846 م.) ، فتلقته العساكر والاعيان ، ونزل في موكب حافل ، وهرعت له وفود الحاضرة وأعيانها .

وبات بحلق الوادي ، فبلغه ان الفابور « الدنت » (3) الذي أتى وراءه ، انكسر بشاطىء العبدلية ليلاً . فحمد الله على اللطف ، حيث لم يكن فيه .

---

(1) في ع و ق : « صاحب جده وطبيبه »
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) Le Dante

ومن الغد توجه للحاضرة وزار مقام الشاذلي رضي الله عنه ، ومنه توجه الى باردو . واطلقت مدافع السرور من سائر الابراج . ودخل المحكمة من بابها ، وجلس على كرسيّه ، فسلّم عليه رجال الدولة والاعيان من العسكر وغيرهم . ثم دخل صرايته ، فأتاه أهل المجلس الشرعي ، فقام لتلقّيهم على العادة ، وسلّم عليهم سلام المشتاق ، وعظّم مَقدَمهم وجلس معهم (1) ، ففاتحه شيخ العصر وبركة المصر ، أبو إسحاق إبراهيم الرياحي بما لفظه : « نحمد الله على سلامتك ، ونشكر الله على اللطف بك حيث لم تكن في الفابور الذي انكسر . مع ان سفرك هذا في غير زمان لغير مكان ، وهذا من التمكين في الارض ، والله يقول : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (2) ، ولم يزل ظلم العُمّال واللزّامة كما كان ، فاشكر الله بالنهي عن هذا المنكر » . ثم مدّ يده لقراءة الفاتحة وخرجوا ، فقام الباي ، منغّصا من أثر الموعظة ، لملاقاة والدته .

ومن الغد أتته أعيان الحاضرة مهنّئين مستبشرين ، وعلت أصواتهم بشكر الله على قدومه ، وإزالة وحشة مغيبه عنهم ، فقرّت عينه لذلك وقال لهم : « قد بلغني عملكم في مغيبي ، وتحدثت به البلدان ، وانا لا استغرب ذلك من أهل تونس » . ودعا لهم ورجعوا مسرورين . يشير بذلك الى ما صنعه اهل هذه الحاضرة وعساكرها في غيبته مما لا يسع جحده .

فقد كانوا كأهل بيت غاب عنه ربّه المحبب إليهم ، لا شغل لهم الا في انتظار قدومه . ولم تقع في غيبته مشاجرة ولا جناية ، وأن الفقراء يستعطفون الناس ، في طلب الصدقة ، بالدعاء الى الله أن يأتي سيدنا على خير .

وفي مغيبه كان عيد الاضحى ، فخرج ابن عمّه وخليفته ابو عبد الله محمد باي من داره لصلاة العيد بالجامع بغير أبّهة . ولما خرج من الصلاة قال للحاضرين : « عيدنا هو يوم قدوم سيدنا على خير ، والعيد الشرعي مبارك على الجميع » . ودخل داره ولم يجلس لقبول التهنئة على العادة .

---

(1) في ع و ق : « واجلسهم عن يمينه » .

(2) س 22/آ 41

ولما بلغه ، وهو بباريس ، ما صدر من ابن عمّه وما وقع من اهل الحاضرة ، وقع منه موقعا عظيما وقال : « ما كنت أظن أني بهذه المحبة في قلوب الناس ، ولم أر من حالي ما يقتضي ذلك ، وقلوب العباد بيد خالقها سبحانه » . وشكر الله على ذلك .

واستأذنه أهل الحاضرة عند قدومه في زينة البلاد ، إظهارا لسرورهم بأوبته ، فأبى وقال لهم : « في البلاد الفقير والغني ، وربما يتكلف الفقير مضاهاة الغني فيُجحِف به ذلك » .

⁂

وبعد ايام من قدومه بعث أمير لواء الخيّالة ، ابا العباس أحمد ، الى دولة الانقليز ، ومعه مكتوب يتعذّر فيه عن عدم قدومه . وقبلته الدولة أحسن قبول ، واستضافته السُّلْطانة وبعض الوزراء ، ورجع مكرما مسرورا .

⁂

وانقبض الباي عن مباشرة الحكم في المحكمة ، وتحاماه ما أمكن ، لما رأى حال التمدُّن وطموّ سيله ، وعلم أن الحكم المطلق آن انقشاع ليله ، وصبح الحق كادت ان تظهر طلائعُ خيله .

⁂

وفي صفر من سنة 1263 ، ثلاث وستين (اوائل صفر — اواخر جانفي 1847 م) ، توفي العالم المفتي الامام ، شيخ الطريقة الشاذلية ، ابو محمد الشاذلي بن المؤدب . وحضر الباي جنازته وحمل نعشه ، ومشى في جنازته كواحد من اهل الطريقة ، وهو من أهلها . وقدّم عوضه لخطة الفتوى الشيخ القاضي ابا عبد الله محمد البنّا ، ولخطة القضاء أبا عبد الله محمد النيفر ، في يوم واحد . وأحضر لذلك شيخ الفتوى ابا اسحاق ابراهيم الرياحي [وأجلسه حذوه عن يمينه] فقال له في ذلك الديوان : « [سدّد الله اعمالك] (1) ، هما أفضل أهل عصرهما علما ودينا » . وناهيك بهذه الشهادة من ذلك الفاضل .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وفي هذه السنة ظهر للباي ان يطبع من الفضة سكة خالصة ، ويطبع مقدارها أوراقا في اعداد مخصوصة ، بها طابعه وطابع الوزير أبي النخبة مصطفى خزنه دار وخطه ، وكتابة الورقة بخطوط افراد من الكتاب مختلفة [خشية تقليدها] (1) . وذلك لمّا ضاق دخل المملكة واتسع خرجها ، بكثرة العساكر والامراء بغير مأمورين ، والضبّاط بغير مضبوطين ، وغير ذلك مما اقتضته سياسته التي لا يُسأل عنها في ذلك الوقت . وكتب بذلك إعلاما لسائر قناصل الدول بالحاضرة ، نصه ، بعد افتتاحه ، :

« اما بعد فان العمران الحضري لا قوام له الا بالنقود التي هي اثمان البضائع ، ورأينا النقود المسكوكة في إيالتنا غير وافية لإدارة مكاسبها ورواج متاجرها ، فاقتضى نظرنا ، المؤسس على مصلحة العمالة بنموّ متاجرها ودوران مكاسبها ، ان نضرب سكة خالصة من الفضة صرفها خمسة ريالات تونسية صغرى ، من الرائج في العمالة . وكذلك نطبع رسوما مالية في اعداد من الريالات الرائجة ، ونحكم بجريانها في العمالة باعدادها في البيع والشراء وسائر المعاملات ، مثل النقد المسكوك نصّا سواء . ونجعل دارا في حاضرتنا ، حاطها الله تعالى ، فيها مبلغ من الدراهم التونسية لصرف تلك الرسوم المالية . والذي يريد صرف رسم بيده فالدار تصرفه له ، على ان يُسقط صرفا اربعةً في المائة ، في مقابلة نقص الدراهم والزائف منها ، ومصروفِ مَن في الدار من الكتاب والحُسّاب والخَدَمة وغير ذلك من ضروريات اقامتها . ولا يتعطل من يريد الصرف ولو ساعة . وتفتح هذه الدار في كل يوم ساعتين ، من قبل نصف النهار بساعة (2) . اما من له دين على أحد قبل هذا التاريخ ، فانه لا يلزمه ان يقبل هذا الرسم من مدينه الا بصرفه المذكور ، وأما بعد التاريخ فلا يطلب صرفا . ومن بيده رسم تلاشى وخشي ضياعه ولم يرد صرفه ، فان الدار تعطيه رسما عوضه من غير صرف ، اذا كان مقروء الكتابة لا ريب فيه . وأعلمناكم بهذه المصلحة لتكون معلومة لسائر من لنظركم ويتحقق عندهم ان هذه الرسوم المالية حسابها حساب النقود المسكوكة ، ويعتبر التاجر الصرف المذكور في البيع والشراء . والمرجوّ من الله ان تكون هذه المصلحة نافعة للسكّان ، معينة على اسباب العمران . وكتب في الثاني والعشرين من رجب سنة 1263 (الثلاثاء 6 جويلية 1847 م) » .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذا في ح و ع ، وفي ق : « ساعتين من قبل نصف النهار ، وبساعة بعده » .

ولم يكتب على هذه السكة الا ما اعتيد كتبه على سكة البلاد السابقة ، وان كان هذا الخلوص من اختراعاته . وقلتُ له : « لو كتبت على هذه السكة: « احمد الله على على خلوصها ؟ » فقال لي : « كأنك تريد الاشارة الى اسمي ؟ هذا لا يكون مني ، لان ذلك من حقوق السلطان ، ولا أحوم حول حقوق الدولة علي ، والاصلح بنا بقاء ما كان على ما كان » .

ووكل على هذه الدار التي سماها « دار المال » [وهي القشلة المعروفة بقشلة سيدي عامر] ابا الثناء محمود بن عيّاد ، وهو [اذ ذاك] المقرب زلفى ، والنصوح الاوفى ، عند الباي . وجعل الوزير ابا النخبة مصطفى خزنه دار ناظرا عليه ، وكتب لهما أمرا في ذلك ، وابتدأ العمل بهذه الدار في اواخر شعبان (اوائل اوت 1847 م) . واستقام حالها زمنا ، [وقبل هذه الرسوم في سائر الجبايات] (1) ، وحصل منها نفع في ادارة المكاسب ، وتوسعت الدولة ، الى ان هرب محمود بن عياد ، كما سيأتي ، ان شاء الله .

وضرب في هذا التاريخ قطعا من النحاس للاستعانة بها في كسور الريال والتسهيل على الضعفاء ، إلا انه حابَى نفسه (2) في الربح ، ضداً ما فعل في سكة الفضة ، فانه لم يعتبره فيها . ووافقه على هذا الربح في قطع النحاس جميع رجال دولته ، حاشا وزير الحرب ابا النخبة مصطفى باش آغة . ولما صمّم على المخالفة قال له الباي : « ان عقلك لا يرجح بهؤلاء العقول ، فهلاّ اقتديت بهم ؟ » ، فقال له [مداعبا] (3) : « يا سيدي ، حاولت نفسي على السرقة والخطفة فأبت » ، فتجاوز له عنها متبسما . إلا أنه ، مع هذا الربح الذي سمع فيه ما سمع ، لم يضرب الا القدر المعقول المحتاج اليه في النفقات اليومية في البلاد . وغالب السكة في دولته فضة ، وقلّتها غطّت عيب ربحها ، حتى انه لا يقبلها في غالب الجباية ويقبل الرسوم المالية .

⁂

وفي هذه السنة 1263 (1847 م.) استعفى ابو عبد الله محمد باي من السفر بالمحالّ . وبعث يطلبني من الباي ، لابلّغ عنه رسالته ، فأتيته وهو ببستانه في المرسى ، وقال لي : « انما بعثت اليك لتحسن عنّي التبليغ الى سيدنا ، فاني عجزت عن السفر مرتين في

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) في ع و ق : « حابى الدولة » .
(3) الزيادة عن ع و ق .

كل عام ، لما مسني من التعب البدني والمالي ، لانه يلزمني ما لا يلزم غيري من اعتبار لمقامي » ، وغير ذلك من المعاذير الراجعة في الحقيقة لعذر واحد ، وهو قصور يده عن التصرف ، فثبّطتُه عن هذا العزم بما استطعتُ إلى أن قلت له : « هذا أمر يرجع الى عادة في بيتكم ، فلا أنقُل عنك شيئا إلا بحضرة أخيك وتِلْوِك في الدرجة » ، وهو ملك هذا العصر ابو عبد الله محمد الصادق باي . ومرادي ان يكون عونا لي على مراجعته ، فأحضره وأعاد مقالته ، فقلت له : « أترضى هذا من أخيك ؟ » فقال لي : « قد راجعتُه قبل قدومك فأصرّ ، ولا تسعني مخالفته » ، فرجعت الى الباي وبلّغت له خبر الاستعفاء ، فقال لي : « لا سبب في ذلك الا قِصَر يَد التصرف ، وخواصُّه اعتادوا ما كان سابقا ، والوقت لا يقتضيه من وجوه كثيرة ، والعُمّال واللزّامة عليهم ثقل ، فلا يمكن لهم ، والحالة هذه ، الخلاصُ مع الدولة وارضاء باي المحالّ وخواصّه » ، ثم قال لي : « هل عارضتَه بشيء ؟ » فقلت له : « قد عارضتُه وطلبت حضور أخيه ، وهو على رأي سيادتكم » ، فقال : « الله يهديه » ، ثم قال : « يصعب علي تقديم أخيه وهو تِلْوُه في السنّ ، لما فيه من مخالفة عادتنا ، فارجع اليه وقل له : «لو فكّرتَ في الحال ما طلبت هذا الاستعفاء ، وان استعفيتَ من السفر فلا يسعك الاستعفاء من اسم باي المحالّ ، لانه في المعنى ولاية عهد ، وبه هناء المملكة وصلاح بيتنا . ولهذا نبعث للجريد وباجة مَن يَحْصُلُ به خلاصُ الجباية وتأمين السبل . ويخلّص عادة باي المحال السابقة ، ويأتي بها اليك ، ومهما تيسّر لك السفر فأنت في خُطّتك » . ولما بلّغت له ذلك ، عَلِم النصيحة ورضي [باسم] (1) الخطة .

وكره الباي [اظهارَ] (2) تسليم ابن عمّه ، فأولى ابا العباس أحمد زَرُّوق ، وهو من مماليك عمّه ، عَمَلَ الجريد ، وصار يخرج اليه بصفة عامل ، ومعه عقد من الخيل في محلّة صغيرة لا عسكر بها . وأضاف اليه عَمَلَ الهمامّة ليستعين بالمزارقية منهم . فأمّن الطرقات وكفّ عادية الهمامّة ، واستمال رجالاً منهم كأحمد بن يوسف وأمثاله ، وشيخ زاويتهم وبركتهم الخيّر الوجيه أبي عبد الله الحاج محمد كوكة ، استعان بهم على اهل الفساد ، بالرهبة تارة والرغبة اخرى . وله في ذلك أثر جميل ، وان كان مقرونا بشدة وصرامة الا انها في موضعها .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

وبعث لباجة وجبَلّها آغة في خيل أيضا ، [وأمره ان يستخلص عادة باي المحال ويبعث بها اليه] (1) .

وفي هذه السنة هرب ابو عبد الله محمد [بن حميدة] بن عياد لدار قنصل الانقليز ، لمشاحّة مالية وقعت بينه وبين ابنه محمود ، وقد امتزج بالباي وداخله مداخلة اقتضت غيرة أبيه [وهو غيور على الرئاسة] . وعظم عند الباي هروبه لمكانه من الدولة ، وقد كان بالامس رسولَه [ورسول عمّه] الى فرنسا ، فكاتبه [وهو بدار القنصل بقلم العبد الفقير](2) بما نصّه :

« حفظكم الله تعالى ورعاكم ، وحاطكم بحمايته ووقاكم . الموقر المحترم الامجد الارشد الهمام الزكي الاعز ، احد الاعيان ، من اهل الشان ، ابننا محمد بن عيّاد ، امير لواء ، حرسه الله بعين العناية . اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فانه بلغني عنك ما شوش فكري ، وضاق عن احتماله صدري ، لانك تعلم منزلتك عندي ، وانك من خاصة اهل ودّي ، فكيف يليق بك الهروب ، او يمسّك وانا موجود شيء من الكروب ، وعلى كل حال فلستَ لي بمطلوب ، وما كنت أظن ان الغيظ يبلغ بك الى هذا الامر . وها أنا ابعث اليك الاعزّ المقرب الثقة ابننا محمد المرابط امير لواء ، وانت تعرفه وتعلم قربه منّي ومكانته عندي . وعزمت عليك بحياة رأسي ومَعَزّته عندك ان تخرج الى دارك ، وترخي على اوطارك ذيلَ استارك ، وأنت في أمان مني ، ولن ترى إلا ما تعهده من صفاء باطنتي ، وخلوص سريرتي . اما بقاؤك على ما أنت فيه تلحقني منه معرة ، لانك من أكابر خاصّتي وأعظم أحبتي . فكن عند ظني ، ولا تتراخ ولا تُمنّ ، واعلم انك إلي ومنّي . وفي هذا كفاية ، ودمتم في أمن الله وحفظه . والسلام . وكتب في رجب سنة 1263 (جوان — جويلية 1847 م.) .

فأتاه محمد المرابط ، وحاوله على الخروج ، فاعتذر بهنّات عدّدها على ابنه فيها خروج عن الطور ، فاغتم الباي لذلك . ومن فسدت بِطانته كان كمن غصّ بالماء .

والسبب في عدم خروجه ان الرجل حنكته التجارب وجال في الآفاق ، لا ينخدع بزخارف ملوك الإطلاق . وبقي في مهربه ، وآلت النازلة الى المخاصمة لدى مجلس

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

متجري حضره امين التجار والعشرة ببيت الباشا ، تحت رئاسة أبـي عبد الله محمد باي ، بالنيابة عن الباي ، بعد استعفائه من مباشرة السفر . وباشر كـلٌ منهما الخصام بنفسه ، وكـانت حالة تنفرها الطباع ، وتمجّها الاسماع . وسببها الشحُّ المطاع من الابن ، والهوى المتبّـع من الأب.

[وحضر في اليوم قنصل الانقليز] ، ونفس الباي في النازلة مع محمود ، وانتصـر ابـو العباس حميدة ابن عبد الرحمان بن عيّاد لجدّه ، ولحقه الى دار القنصل ، مشاغباً عمّه . [وصرف كـسبه في ديون جدّه ومرضاته ، برورا به] . وطال هروبه بدار القنصل ، ولم يخرج الا في ذي الحجّة سنة اربـع وستين (نوفمبر 1848 م.) ، بتجديد أمان من الباي [له ولحفيده] على يد قنصلي الانقليز والفرنسيس بمكـاتيب لهما . ونبذ الخدمة نافضا يـده منها ، ولازم كِسْر بيته الى ان توفي على حالة تشبه زهد الحكماء (1) .

وكـثرت الاقاويل من اهل البطالة في النازلة ، فمنهم من يقول انها حيلة [من الاب وابنه] للحصول على هذه الحماية ، [اذ لا أمان لمثلهما ولسائر الناس من الملك المطلق] (2) ، ومنهم من يحققها ، الى غير ذلك من الاراجيف .

⁂

وفي مدة هروب ابن عياد وحفيده ، هرب الفقيه الوجيه الخيّـر ابو عبد الله محمـد العنّابـي ، قاضـي رأس الجبـل ، الى دار هذا القنصـل ، وعـدل عن الهـروب الى دار الفرنسيس لنسبته الى عنّابة . وذلك أن امير لواء عسكـر غار الملح ، صالح شيبوب ، أخذ ابنيه غصبا للخدمة بصراية غار الملح ، وفداهما بمال فأخذه ولم يسرّحهما ، ودهاه ما لا قِبـَل له به ، فأحوجته الضرورة الى هذا الهروب ، فوقف معه (3) القنصل وخرج بأمان له ولبنيه ، مـكـتتب من الباي . وعظمت عنده هذه النازلة الشنعاء في الاسلام وظن أن ابـن عياد اغراه على ذلك وحسّن له الهروب ، فبعثني إلى شيخنا تقـي العصر وعالم المصر ، أبـي إسحاق ابراهيم الرياحـي ، لاتـكـلم معه في شأن النازلة ، وبقاء هذا الرجل في الخطة ،

(1) الـزيـادة فى الفقرة عن ع و ق .
(2) الـزيـادة فى الفقـرة عن ع و ق .
(3) وقف معه : ساعده أعانه (لهجة تونسية) .

بعد ان صدر منه ما ينافيها ، وخاطبتُه في النازلة إجمالا ، وهوّلتُ له الحال ، وانه يؤدي الى استنقاص الخطة الشرعية في عيون العامّة ، الى غير ذلك من الخطابة التي لا تروج على مثله ، رضي الله عنه ، فقال لي : « يا بني تريد ان تخدعني وانا ربّيتك ؟ انكم تريدون عزل الرجل بطلب مني ، لتعتمدوه في التجريح ، وأنا لا أرى جُرْحَتَه بما صدر منه . وإن شئت تجريح ابا بكر الصديق [فدونك وإياه] حيث جعل أهله وماله في حماية مشرك لمّا هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم . والمسالة مبسوطة في الروض الأُنُف للعلاّمة السهيلي (1) . وحاصل ما نراه وندين الله به ، ان هذا الرجل فعل ما يجب عليه [او يباح له] (2) ، ولا يُجَرَّح المسلم بفعل الواجب . وذلك انه يجوز أو يجب على المسلم ان يدافع عن نفسه واهله وماله مَن ظَلَمَه ولو أدى ذلك الى القتل ، وناهيك به . وان مات حالَ المدافعة عدّ من الشهداء ، وناهيك بالشهادة . وان عزل الباي هذا الرجل فاني لا اقطع المخاطبة معه فيما يتعلق بالفتوى ، لاني لا أثق بغيره في بلدته . والنصيحة ان الباي يتغافل عن هذا الامر ويطوي بساطه . والعامّة تنبهت الى ان الالتجاء ، عند الضرورة ، بغير المسلم لا محظور فيه . وقد كان جهّالهم يرونه كفرا ، والآن علموا الحق وصاروا يوجّهون الحرج الى من يُلجيء المسلمَ الى الاحتماء بغير اهل الملة . ولا معارض لهم من الشرع ولا من العقل . وأتتني أسئلة في ذلك فأفتيت فيها بالجواز (3) . وان شئت فاكتب إلي سؤالا أجيبك فيه بخطي ، وأوضحها لك بما أدين الله به . ويبعد عندي أنك تجهلها ، لانها في متون الفقه المتداولة بين أيدينا » ، الى غير ذلك في هذا المعنى .

ولما بلّغت ذلك للباي عظم عنده ، ورآه ذريعة لخرق سياج السياسة ، [وجاذبا للتنظيمات الخيرية] (4) ، وطوى بساط النازلة ، وعلم موقع نصيحة الشيخ ، وجعلها مناط سياسته ، وتجافى الاسباب المفضية لذلك بما أمكنه (5) .

---

(1) بروكلمان ج I : 413

(2) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .

(3) فى ع و ق : « بجواز هذا الاحتماء » .

(4) الزيادة عن ع و ق .

(5) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « ما استطاع ان يغلب هواه » .

وفي سنة 1264 (1847/48 م.) ، أتى الولي المجذوب الشريف السيد عبد الواحد من بلده مساكن الى المحمدية ، وتيمّن الباي بقدومه ، وزاره مرارا ، واجزل صلته (1) ، وان كان السيد على درجة من الزهد واحتقار الدنيا لا يرى في الوجود غير الواحد الموجود .

*

وفي سنة 1265 ، خمس وستين (1848/49 م.) ، توجه عزيز مصر ابو الفضل عباس باشا الى الدولة العلية العثمانية ، ونال من فخامتها جزيل الإكرام والعناية ، وتفضلت عليه السلطنة برتبة الصدارة العظمى ، ومازج رجال الدولة ، ورأى مفاوضتهم في شأن تونس ، وانتقادهم على الباي في جموده مع العادات السابقة ، وتخوفه من القدوم الى دار السلطنة ، وان هذا التخوف ربّما يفضي الى ضعف اللحمة الاسلامية .

ولما رجع لمصر ظهر له السعي في ازالة ما بنفس الباي من الافكار ، فكاتبه بما محصّله : « إني توجهت الى السلطنة العلية ، وحصل لي من الفضل والإحسان ما لا يسعه شكري ، مع ما فعله أبي وأخي مع الدولة ، ولم تعتبر الدولة ذلك ، وصار عندها نسيا منسيا ، ولم يصدر منك ما صدر منا ، [ولم نر سببا لهذه الجفوة] (2) .

والنصح يقتضي ان تترك هذا الفكر . فان رأيت ان تجعل بيننا موعدا بمرسى معينة كمالطة أو غيرها نجتمع بك فيها ونترافق الى دار السلطنة ، وترى من جزيل الفضل والاحسان ما تذكرني به ، وتلتزم بنزر معيّن من المال في كل سنة وهو أقلّ من الهدية ، الى غير ذلك من الترغيب .

ووصل هذا المكتوب الى المحمدية ليلاً في ظرف مكتوب وكيل تونس بمصر . والوزير [مصطفى خزنه دار] (3) ببستانه لمرض به ، فبعث الي بالمكتوب وأمرني بفضّه ، فان كان به ما يفوت بفوات الوقت اخبرته به في الحين .

ومن الغد ناولته المكتوب واخبرته بمضمونه واردت قراءته ، فقال لي : « لا اسمع منه شيئا حتى تحضر بقية الجماعة » ، فتوقفت ، فقال لي : « ان هذه نازلة تتعلق بعموم

(1) في ع و ق : « واجزل صلة اهله » .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .

المملكة ، لا أسمعها وحدي » ، [وكأنه يريد بذلك جلب قلوب وزرائه] (1) . وأمر بقدومهم فورا . ولم يكن معه وقتئذ غير وزير الحرب أبي النخبة مصطفى باش آغة . ولما حضر الوزراء قرأتُ عليهم المكتوب ، واتفق الرأي على جوابه ، وشكر صنيعه على الاعتناء والنصيحة .

وأمرني ان أتوجه لوزيره وثقته ابي النخبة مصطفى خزنه دار لتخلفه بمرض ، فأتيته ودفعت له المكتوب وأخبرته برأي الجماعة ، فقال : « هو أمر بديهي » .

ومن الغد جاء الوزير ، وأعيد إعمال الرأي ، فوقع الاتفاق على مكاتبته ، وأمرني بذلك ، فكتبت عنه بما نصه :

« المقام الذي طلع في افق الاسلام شهابا ، واستحق الصدارة العظمى إرثا واكتسابا ، فكساها من ملابس الفخر جلبابا ، وفتح بفضله للخير أبوابا ، ويسّر بعدله للعمران أسبابا ، مقام الصدر المطاع ، الآتي من الكمال بما لا يُستَطاع ، حتى ملأت محاسنه البقاع ، وشنفت أخباره الاسماع ، عزيز مصر ، وفخر هذا العصر ، اخونا السيد عباس باشا مشير مصر القاهرة ، لا زالت بسعادته باهرة ، وبسياسته زاهرة ، وعلى من ناوأها ظاهرة.

اما بعد السلام ، المناسب لذلك المقام ، فانه بلغنا كتابكم الذي هو على الصفاء والوفاء أوضح عنوان ، وعلى الودّ والإخاء أقوى برهان ، تنطق بالفضل فصوله ، وتشير الى كرم الطباع فروعه وأصوله ، ومجدكم معدن نُضَاره ، ومطلع أنواره ، جاريا في ميدان النصح إلى أقصى مضماره ، معلنا بأن سعادتكم لما فزتم بمشاهدة الحضرة المجيدية ، والعظمة السلطانية ، لا زالت بالعز والنصر حرَية ، ناشرة لواء عزها على الملة الاسلامية ، وحصل لكم من العناية ما الدولة له أهل ، وأنتم له محل ، ظهر لكم في جهتنا جفوة ، ومعاذ الله ان يكون سببها مني ، او يختلج ذلك في ظني ، مع دولة هي عز الاسلام ، وحماه الذي لا يرام ، مات سلفنا في خدمتها وفضلها ، وعشنا في وارف ظلها ، آمنين بعدلها ، ولم يقع لنا من فضل سلطاننا وإنصافه ، الا ما وقع لاسلافنا من السادة أسلافه . أمِن الاسلام والوفاء ، مقابلة هذه النعم بالجفاء ؟ بل سعينا لما يزيد في مرضاته ، والفوز بعليّ توجهاته ، كما هو الواجب لسلطنته العلية ، وعدالته العُمَريّة ، وأستغفر الله ان يخطر بالبال مفارقة

---

(1) الزيادة عن ع و ن .

الجماعة ، او تقصير من الاستطاعة . ومع هذا فلم أر لجوادي في خدمة الدولة كبوة ، ولا لصارمي في طاعتها نبوة ، توجب شيئا من الجفوة . والله يرى ان هذه نيّتي ، وعليها طويّتي ، ما هجس ضده بفؤادي ، ولا سرت في طاعتها إلا على (1) سنن آبائي وأجدادي ، شاكرا منها الايادي ، على تأييد اعتيادي . حتى ان كتابكم الاعز وصلنا على حال شغل باحضار ما نتقرب به إلى بابها ، وعليٍّ جنابها ، من تقديم الهدية ، طبق الاصول الاعتيادية . واذا بلغ للابواب العلية ما أنا بريء منه ، فالله هو المطلع على الحقيقة والكُنْه ، الى عدله الالتجاء ، وفي فضله الرجاء ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وهو الذي يجزي كل نفس بما كسبت . والمحقق من عدل مولانا السلطان ، وركن اهل الإيمان ، اذا جاءه نبأ يتبيّنه كما هو صريح القرآن . فاعتمادي على عدله وتقواه ، واستنادي لمراقبته لله ، لانه أيّده الله من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولذلك فوَّض أمرَ هذه المملكة إليه . وأنا ممن يعلم قوله تعالى : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعا وَلاَ تَفَرَّقُوا » (2) ، وان زخرف الوشاة مقالتهم ونمّقوا ، فقد خاب من حمل ظلما ، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما . وسعادتكم ، كتب الله لكم أجر من ساهم وأعان وقَوَّى ، وشمّر في الصالحات عن الساعد الاقوى ، إذ نبّهتنا لهذه الجفوة ، لنبادر لإزالتها بما يقتضي الصفوة ، ولكم بذلك يد عندنا تُذكَر ، وبكل لسان تشكر . واذا كانت القلوب متعاضدة ، والانفاس على المراد متواردة ، يظهر في الغيبة أثرها كما يظهر بالمشاهدة . والله يعرّفكم عوارف السعادات جملا وأفذاذا ، كما جعلكم في المهمات ملاذا ، ومن وَقْع الخطوب عياذا ، ويجازيكم أحسن ما جازى به مَن مَحَضَ النصيحة لله ورسوله وأيمة المسلمين وعامتهم . وعلى عزيز جنابكم السلام التام . وكتب أوائل جمادى الثانية سنة 1265 (أواخر أفريل 1849 م) » .

ولما بلغه الجواب بعث فاضلاً زكيا ثقة ألمعيا فصيحا من علماء حضرته وهو ابو المودة الشيخ خليل الغزلات ، مع أبي عبد الله محمد بدر الدين الصفاقسي ، وكيل تونس بمصر والاسكندرية ، ليتكلما مع الباي مشافهة ، فاجتمعا بالوزير أبي النخبة مصطفى

---

(1) في خ و ع و ق : « عن سنن » .
(2) س 3/آ 103 .

صاحب الطابع ، وقررا له رسالة عزيز مصر ، وظهر من الشيخ خليل انه يروم الاحتجاج على نصيحة العزيز (1) ، فقال له الوزير : « إنـي مأذون بسماع مقالتك وتبليغها » .

وبعد ذلك حضرا عند الباي ، وأجابهما بمضمون جوابه مختصرا مجملاً .

ولما علما انه لا يريد إبداء أعذاره ، طلبا جواب المكتوب (2) ، فأمرني أن أكتب عنه بما نصّه :

« المقام الرفيع شانه ، الواضح في المعالي برهانه ، المشتمل على المكارم المتعددة عمله ولسانه ، مقام سليل الصدور الاعيان ، وعين الصدور الاركان ، عزيز مصر ، وغرة وجه العصر ، ومن تعز مناقبه عن الحصر ، أخونا السيد عباس باشا لا زال كما يختار ، وآثاره تخلّدها أقلام الاقدار .

اما بعد سلام يَعْبَق عَرْفُه ، ويزكو بكم وصفه ، فانه بلغنا كتابكم الكريم المفصح عن الود الصميم ، فتلقّيناه بيد الوداد ، الراسخ في الفؤاد ، وتحققنا منه المراد . وحضر رسول جنابكم ووكيلنا بطرفكم المعمور ، التاجر الوجيه الثقة ابننا محمد بدر الدين ، وأدى الينا رسالته بأوضح بيان ، ومضمونها تَوَجُّهُنا إلى التشرف بالابواب العلية ، والحضرة السلطانية ، التي تتسابق الى مرضاتها الاعمال والنية ، لنفوز من فضلها بكل أمنية ، ونجعل لها مقدارا في كل سنة بدل الهديّة . فساءني في للتوجه عدمُ الإمكان ، في هذا الزمان ، مع ان جنابكم وعد بالمرافقة ، والصحبة والموافقة . والانسان أسير الاقدار ، مسلوب الاختيار ، ومن الاعذار ما لا يتحمّله التقرار ، ويجمل فيه الإضمار بدل الإظهار، والله المطلع على خفيات الاسرار . وأما أداء المقدار في كل سنة بدل الهدية ، طبق أصولنا الاعتيادية ، فعلى هذه العادة مات سلفنا ، والمرجو بفضل الله وكرم السلطنة ان يبقى ذلك في خلفنا ، على ان خزائن الدولة ، عمّرها الله ، لا يظهر فيها هذا المقدار ، المحمول من نازح الاقطار ، وخروجنا عن سنن الآل ، يفضي الى اختلال في الاحوال ، ويرى الشاهد ما لا يؤدّى بالمقال . والمحقق من شيم السلطان ومراقبته لله في عباده ، أن يقوي ما اعتدناه من آبائه وأجداده . وقد قررنا لرسولكم إجمال ما فصّلناه ، وزبدة ما حرّرناه ، والله يحفظ

(1) اى اثبات وجاهة النصيحة المذكورة .

(2) لعله يريد جوابا ثانيا عن المكتوب الاول .

الجميع من الزلل ، في القول والعمل ، وهو المسؤول ان يقوي بكم الشوكة الاسلامية ، ولا يقطع عنكم ما عوّدكم من المواهب السنيّة . وعلى عزيز جنابكم السلام التام من حافظ عهدكم ، وصاحب ودّكم » . وكتب ثامن شوال من سنة 1265 (الاثنين 27 اوت 1849 م.) .

ولما تحقق عند الباي ان الصدر الاعظم ابا النخبة مصطفى رشيد باشا غير راجع عن رأيه ، ازداد حذره . واختار من ثقاته ابا عبد الله محمد خزنه دار عاملة بسوسة ، وبعثه بالهدية للدولة ، وفوض له في الجواب عن هذه المطالب بما يراه من وجوه الامتناع ، وان يسبر بفطنته حالَ القوم ، وهو ممن يُعتَمد عليه في ذلك ، فبلّغ الهدية ، وقوبل بأحسن قبول ، وخلا به الصدر الاعظم ، وأعاد عليه ما يراه من النصيحة ، فالتزم تبليغها ، وأكّد عليه مطلب قدومه لإسلامبول . ثم كتب له جواب مكتوبه وسرّحه .

ولما أتى بالجواب كان فيه ما معناه : « ان هدايا الوزراء قُبِلت طبق الامر السلطاني وهدية السلطان صدر التفضل بتوقيفها » ، ففهم الباي من هذا اللفظ انها لم تقبل ، وان مطلب المال في كل سنة لم يُترَك ، مع ما قرره الرسول من النصيحة ، وأتى بها مرسومة في بطاقة من غير تصحيح ، فساءه ذلك وقال : « لم يبق للسياسة مجال ، ولله فينا علم غيب نحن صائرون اليه » ، فقال له وزيره ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « ان طرق السياسة لم تنقطع ، وبقي منها ان تعيّن الآن شقفا يحمل جوابك عن هذه النصيحة ، وتظهر براءتك مما نُسِبتَ اليه ، حتى تكون في صورةِ مظلوم » ، فأمر أبا عبد الله القبطان كشك محمد بالسفر عاجلاً [ويسافر معه الكاتب ابو الحسن علي الدرناوي] (1) ، وأمرني أن اكتب عنه ما نصه (2) :

« الجناب المقصود لبلوغ الآمال ، ونجاح الاعمال ، [المبني اساسه على ذرى الشرف والكمال] ، جناب ركن الدولة وشمس ضحاها ، وقطب رحاها ، صدر صدور الكبراء ، ومركز دائرة الوزراء [ومرجع انظار الامراء] ، المشير الافخم ، والصدر الاعظم ، السيد مصطفى رشيد باشا ، لا زال محطّ الرحال وقبلة الوجوه ، بالغا من الله ما يؤمّله ويرجوه .

---

(1) الزيادة عن ع و ف .

(2) كل الزيادات الموجودة فى نص هذه الرسالة منقولة عن نص اضافه الشيخ القروى صاحب ق الى نسخته منبها الى أن بالنص الاصلى خللا ، فكأنه عثر على هذا النص الاصلى فى خزينة الدولة التى كان يديرها ، وسنشير فى تعاليقنا الى هذا الملحق بحرفى (م ق) .

اما بعد تقديم [التحية المناسبة لرتبتكم العلية ، وتقرير] ما يجب للسلطنة من فروض الطاعة ، بحسب (1) الاستطاعة ، فان هذا العبد الذي مات في خدمة الدولة سلفُه ، وعاش في فضلها خلفه ، روابطه مع الدولة العلية ثابتة الاساس ، معلومة في الناس ، واضحة وضوح الصبح ، غنية عن الشرح . كما أن ما جُبِل عليه سلطان زماننا من كرم الطباع ، وطول الباع ، أمرٌ انعقد عليه الإجماع ، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع ، [فهو الناظم لكلمة الدين بعد انتثارها ، ومقيل عثارها ، والآخذ بثارها ، والمخلد لآثارها]. والامان الذي مهّده لاهل الإيمان ، واضح للعيان ، لا يختلف فيه اثنان ، ولا يخطر بالبال ما ينافيه ، لانه من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه . وطالما تمنى هذا العبد الوفودَ الى الحضرة العلية ، ومشاهدة الانوار المجيدية ، لو ساعدَه الزمن ، وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، وما صدّه — والله — عدمُ الامان لانه [— والحالة هذه —] من المستحيلات العقلية مع انه لم يصدر منه (2) خلل في عمل ولا نيّة ، [والله المطلع على كل خفية ، لكن الانسان أسير الاقدار ، مسلوب الاختيار ، ومن الاعذار ما لا يتحمله التقرار ، ويجمل فيه الاضمار بدل الاظهار] ، فأعلّل النفسَ بأن التوجّه انما هو تعرض لعناية الدولة ، والمُقام انما هو لحفظ ما لَها في هذا القطر من الصولة ، ونؤثر واجب الخدمة ، على التعرض لمزيد النعمة ، والنصح في خدمة السادات ، مقدم على نفع خاصة الذات . فاقتصرت بالضرورة على السنن المألوف ، والمسلك المعروف ، من تقربي الى [ذلك] الباب العلي بتقديم الهدية ، طبق الاصول الاعتيادية ، في هذا الوجق الذي أشرقت عليه الانوار العثمانية ، وحمته الشوكة الخاقانية ، وان كانت الدولة عن أضعافها غنية ، [وما هو الا لاظهار ما للسلطنة من اليد العليّة] ، فما راعني الا ما في مكتوب الوزارة (3) من أنه صدرت المساعدة من حضرة صاحب الخلافة بالتفضّل بتوقيفها ، وأن هدايا الوكلاء العظام صارت في حيز القبول بمقتضى الرخصة السلطانية . ففهم العبد من التوقيف عدمَ القبول ، ومن عدم القبول نقصانَ الرضى . وفي المكتوب المذكور ما يشير الى ذلك ، مع ما بلّغه الرسول من تفسير الإشارة بصريح

---

(1) في م ق : « بغاية الاستطاعة » .

(2) في م ق : « مع انه لم يصدر من مظهر نعمتها خلل .

(3) في م ق : « مكتوب صدارتكم العظمى ، وجنابكم الاسمى » .

العبارة ، كما ذلك محرر في صحيفة (1) ، فحزن لذلك الفؤاد ، وماج في تيّار الآنكاد ، إذ لم يصدر منا ما يقتضي ذلك ، ولا سلكنا في غير مسالك .

أما كون سلامة تونس وسعادتها متوقفة على تأييد الروابط [القديمة] (2) الى الدولة العلية ، فهو من المعلوم ضرورةً وجاحده منُكِر للبديهيات . واما التبعّد والتوحش الموجب لانواع المحاذير، فمحلّه اذا صدر منا خلاف انطوى عليه ضمير ، أو فعل يقتضي نوعا من التغيير (3) . اما — والحالة هذه — فان العبد لم يجحد حقا معتادا ، ولا أضمر بشهادة الله عنادا ، ولا وطّأ لاسباب الشبهات مهادا . ولم يصدر منه الا المعلوم من سالف الازمان ، وأقرّه السادة القادة من آل عثمان ، والاصل بقاء ما كان على ما كان . فلا مخاطرة — والحالة هذه — بالنفس ولا بالوطن . اما النفس ، فلوجود الامان من ظل الله في أرضه ، والقائم بواجب الاسلام وفرضه ، وعدالتُه العُمَرية ، ونيّتُه الخيرية ، وشفقتُه على البرية ، بأكثر من هذا الامان حَرِيّة . وأما الوطن فانه في حماية دولته ، محوط بصولته ، يدافع عنه بقوته ، ويكافح من ناوأه بشوكته ، ولا منافاة بين الذبٍّ عن هذا القطر الاسلامي وحمايته ، وبين التفضل باستمرار عادته .

واستغفر الله ان يخطر بالبال ، والحال الحال ، ما لا أقدر أن أفوه به من توهم الاستقلال ، أعوذ بك اللّهم من هذا المقال .

كيف ، ومنابر القطر في كل جمعة تنادي بطاعته ، مع الشكر على تقرير عادته ، [التي بها صلاح جماعته] ، ولا رواج للدرهم والدينار ، الا باسمه العالي في سائر الاقطار ، وأشرفُ ألقاب هذا العبد هو ما جعلتْه له السلطنة العلية ، وأهّلته لنيله من المراتب السنيّة ، بمحض فضلها ، وكمال عدلها .

وعدم إمكان الحضور ، لهذا العبد الشكور ، اذا كان سببه صلاحَ الامور ، والمثابرةَ على دوام حفظ الجمهور ، لا يُتوقع منه المحذور .

---

(1) في م ف : « .... نقصان الرضى ، وكذلك فهم من مكتوب صدارتكم العظمى ، ما يشير الى ان فى سيرته ما يغاير الرضى العالى ، وسمع مشافهة من الرسل الى الباب السامى ، مما يفسر تلك الاشارات ، بصريح العبارات ، كما هو محرر فى صحيفة بيدهم ، فحزن .... »

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) فى م و ق : « والتبعد والتوحش الموجب لانواع المحاذير ، انما هو اذا كان من التابع بفعل او ضمير ، أو شبهة تشير الى نوع تغيير ، اما والحالة هذه الخ .... »

واختلاف البشر في مدارك العقول معقول ومنقول ، وصدق الخدمة يقتضي التصديق في المقول ، [والله المطلع على خائنة الاعين وما تخفي الصدور] .

هذا ، وطلب الوزارة — شد الله أزرها ، وقرن باليمن نهيها وأمرها — من العبد الفقير ، أن يودع لامانتها ما في الضمير ، يوجب أن أشرح نيتي ، وما انطوت عليه طويّتي ، فأقول والله شهيد على سرّي وعلانيتي : « هذا العبد الذي نشأ في طاعة الدولة العلية ، ورفل في حلل مرضاتها الجلية ، وتغذى بلبانها ، وعاش باحسانها ، واستظلّ بأمانها ، وتشرف بخدمة سلطانها ، من بيت هو عاشر آله في الخدمة ، ومظهر ما للدولة من النعمة ، أعظم أمانيه دوام رضى مولانا السلطان ، وظل أهل الإيمان ، وان تبقى خدمته على سنن أبيه وجدّه ، ونيلُ هذا هو سعادة جدّه ، وان هذه الإيالة ، الطائعة على هذه الحالة ، لا يُراع لها سرْب ، ولا يتكدر لها شرْب ، بحماية القوة السلطانية ، والشوكة الخاقانية . و[الله يرى ان] بهذا الحال حفظ طاعتها ، وصلاح جماعتها ، وهو السبب في اجتماع الكلمة ، في هذه الامة المسلمة . والله يقول : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا » . واختلاف عوائد الآفاق ، لا ينافي الطاعة والاتفاق ، ولا يكون ذريعة لافتراق . وتمسك البلدان بعاداتها ، مخلوق مع ذواتها ، [ولا يوهم خللا في طاعتها] .

والمأمول من الحضرة العلية أدام الله نصرها ، [وقرن بصلاح العباد أمرها] ، اذا رأى هذا العبد في مقعد صدق ، وحقّق أنه نطق بحق ، أن يَرِقّ لهذه الفئة القليلة ويرحم ضَرَاعتَهم ، ويجمع بابقاء عاداته الجميلة جماعتَهم . حاشا فضله وإنصافه ، أن ينزع حُلّة تفضّل بها أسلافه ، بل المأمول من كرمه الزيادة ، وهو المحيي لمآثر أسلافه السادة . [وهذا العبد لم يقصر به العمل ، عن بلوغ هذا الامل] .

هذا ما في الجَنَان ، نطق به اللسان ، بلا شبهة ولا تمويه ، ولا خواطر تُنافيه . فاذا ساعد القَدَرُ بالقبول ، فهو المظنون المأمول ، (اعتمادا على حديث : « انا عند ظن عبدي بي » ، وان كانت الاخرى فالله مع الصابرين ، وهو سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . والله يعلم أننا ما غيّرنا ، ولا أضمرنا غير الذي أظهرنا ، ويوم تُبْلَى السرائر نُسأل عما حرّرنا .

وهذا المكتوب يشرّف بلوغُه الى الباب العالي ، المستوجب لكل المعالي ، (مَظهرَ التفاتكم) الثقةَ الفاضل المؤتَمَن نخبة أقرانه ، لنباهة شأنه ، ابننا محمد أمير لواء عسكر البحر ، ومعه الكاتب الثقة الخير العفيف الفقيه ابننا علي الدرناوي . وجناب الوزارة يثق بأن ما يُلقَى الى الحاملِين من المقال ، يصل الى العبد الفقير على أحسن حال . والمرجو أن يعود الينا بخبر يبسط النفس ، ويعيد لها الانس . والله يُديم للدولة العلية المجيدية عزا لا يُطاوَل حدُّه ، ونصرا يمضي فيمن عاندها حدُّه . والسلام [من الفقير الى ربه تعالى عبده المشير احمد باشا باي] ». وكتب في 20 ذي القعدة سنة 1265 (الاحد 7 اكتوبر 1849 م) .

[والسبب في طول هذا المكتوب هو الجواب على ما في الصحيفة من النصيحة بالتصريح او التلويح] (1) .

وكان من جواب الوزير الصدر الاعظم ان المراد بالتوقيف هو القبول على اسلوب آداب الكتابة باللغة التركية ، لان ما يقبله السلطان يوقف في خزانة المسلمين ، ولا يقبل السلطان لنفسه شيئا . واقنع البايَ هذا الجواب ، وهو مع هذا الحذر لم يحدث نفسه باستقلال ، ولا سام ربطَ الاسلام باخلال ، ولا حام حول الخروج من تلك الظلال ، وان امتلأت أسماعه بأقوال الضلال ، المنتجة للاضمحلال .

⁂

وفي شوال من هذه السنة 1265 (أوت — سبتمبر 1849 م.) وقع من عسة زواوة بباب باردو سوء أدب ، سببه ان الباي كان بالمحمدية ، ووصل منها الى باردو بعد الغروب ، وأمامه أمير آلاي الخيّالة ، اسمه خليل من جالية تُرْك الجزائر ، في طائفة من الفرسان ، وخَلْفَه مثلها على العادة . واصطف عسكر زواوة لسلام الباي في غير موضعهم ، فانتهرهم خليل التركي وضرب بعضَهم وعاملهم بعنف وشدة . ورام ستر تعدّيه بالشكاية الى الباي في الحين بأن أنفارا من زواوة تجاسروا عليه ، فاغتاظ لذلك ، على غلوّه في حماية العسكر النظامي ، وأمر في الحين باحضار المتجاسرين منهم ، فمنعهم إخوتُهم ودخلوا محلَّ مبيتهم وتسلّحوا ، فبعث الباي الى الداي وغيره من ضبّاط الحاضرة ، خشية أن تسمع

(1) الزيادة في ع و ق .

بقية زواوة فيصدر منهم ما لا ينبغي ، وأخرج لهم بلوك (1) من العسكر ، فخرج واحد منهم بسيف في يده مسلول ، فقُتل بالرصاص في الحين ، وبقي إخوته جاثمين في محلّهم ، فأمر باخراج المدافع لهدم محلّهم وهمّ به ، فتثاقل وزير الحرب ابو النخبة مصطفى باش آغة تثاقلاً أبقى به على رمق اولئك المساكين ، وأثمر هناءَ الحاضرة وعدمَ تحييرها في الليل . وأعانه على ذلك ابو محمد خير الدين ، وكان يومئذ أمير آلاي . وأتوا محلّهم وأخرجوهم الى السجن مذعنين للحكم ، ولم يبق لصراخ المدفع موضع بعد سجنهم . واستعجل الباي في النازلة ، وعظّمها على حقارتها ، انقيادا لهواه ، حتى كادت ان تكون فتنة ، لولا لطف الله .

ومن الغد احضرهم لديه [بديوان المحكمة] من السجن ، وعين ستة من رؤوسهم بحسب ما توسّمه فيهم بنظره ، ولم يسمع منهم مقالاً ، وأمر بقتلهم خنقا ، [وهكذا تُقتَل المسلمون في الملك المطلق القهري] (2) ، وعاقب الباقين بالضرب والسجن .

وأبطل عسة زواوة من باردو ، سترا لتعصّبه وغلطته ، ورَفْواً لما خرق بشهوته . وندم بعد ذلك ولات حين ندم ، وقد سبق السيف العذل . وبقي أياما أسيفا حزينا ، لانه يكره الجرأة على سفك الدماء ، ولا يستسهله الا في تربية العسكر على القاعدة العسكرية ، لا سيما وقد كان بالحاضرة يومئذ رسول عزيز مصر المتقدم ذكره .

وللنقد في النازلة مجال ، وهي من نتائج قضايا الاستعجال . واذا قسته باستعجال أمثاله من ملوك الإطلاق ، ترى بالفكر والعين معنى أخف الضررين .

*

وفي السابع عشر من محرم فاتح سنة 1266 ، ستٍّ وستين ومائتين وألف (الاحد 16 محرم — 2 ديسمبر 1849 م.) ، ظهر في المملكة التونسية مرض وبائي يعبّر عنه في ارض الحجاز بالريح الاصفر ، وأصله من أمراض الهند ، وعبّر عنه في بلادنا بالكوليرة ، وتُلُقّيَ هذا الاسم من أطباء الافرنج .

(1) في ع و ق : « طائفة » .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وصورته ، والعياذ بالله ، أن يصبب الإنسانَ إسهال وقَيْءٌ ، فيصفرّ لونُه ويسودّ ، ويموت في ساعات أو قليل من الايام ، وقلّ من ينجو ، ولم يتقدم مثلُه في هذا القطر . وأول ظهوره في جبل الرقبة ، ثم انتقل إلى باجة فدام بها قليلا ، ومات بها الكثير ، فعزم الباي ، باشارة بعض الاطباء ، على التحفظ من وصوله إلى الحاضرة بمنع الخلطة . فأمر أمير لواء عسكر الخيّالة ، ابا العباس أحمد ، أن يرتّب عسة من العسكر تمنع القادمين من باجة ونواحيها إلى الحاضرة . وأمر أبا الفلاح صالح بن محمد كاهية ان يتوجّه في عقد من الخيل لجهة أخرى (1) . ومن المقدور لا يغني الحذر .

وارتحل الباي إلى بستان وزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار المعروف بقرطاجنة على ساحل بحر حلق الوادي ، يوم الخميس الثامن والعشرين (2) من محرّم (13 ديسمبر) ، ومعه خواصُّ أتباعه . واستصحب لعسّته عددا من العسكر في اخبية ، أمّر عليهم الشريفَ ابا محمد حسن المقرون [امير لواء] . وأمر صهرَه وزيرَ الحرب ابا النخبة مصطفى [باش آغة] أن يتوجه [بأهله] الى بستانه المعروف بالكرم ، على حالة تحفّظ ، وهو لصق قرطاجنة ، بحيث يأتي كل يوم للاجتماع بالباي . [والوزير خزنه دار بأهله في مسكن وحده بقرطاجنة] (3)

وأقام متحفظا على عادة الكرنتينة ، واشتد خوفه من المرض ، وضيّق بعدم الخلطة في الكرنتينة تضييقا لا يلزم عند الاطباء ، حتى قال بعضهم ان التحفظ بالكرنتينة لم يكن في الملّة الاسلامية ، وهي من اختراع الامم الافرنجية ، فنحن أدرى بكيفيتها ، فيعرض عنهم ، حتى وقع الارجاف بأنه سافر من المملكة خُفْيةً وأبقى خَتْمه بيد وزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، فصار يخرج بعض الايام أمام القصر ، وربما يصل الى قرب أخبية العسكر لتراه الناس .

وقلتُ له يوما : « قد بالغنا في الخوف » ، فقال لي بديهةً : « يقبح الخوف اذا كان من قِرْن تراه ويراك وتنال منه وينال منك ، أما من سطوة الله فاذا لم يجمل الخوف فلا يقبح ، ولعل الشجاعة في مثله من سوء الادب مع الله ، ولسنا من رجال التوكّل » ،

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « أن يتوجه بوجق الكاف الى الجهة الغربية » .
(2) هو 27 حسب التقويم
(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ثم قال لي : « لو سبق القضاء والقدر ومتُّ بهذا المرض ، أخشى أن اقول عند حلوله لو فعلتُ الكرنتينة ما حلَّ بي ، مع اعتقادي أن لا فاعل الا الله ، وكان الشيخ محمد بيرم ألّف رسالة لعمّي في جواز التحفظ من الوباء ، وهذا مثل الوباء » ، فأرخيتُ له العنان، إذ لم يكن موضع جدال .

وقال بعض الحاضرين ، وهو ابو النخبة مصطفى خزنه دار : « ان ميّت الوباء شهيد » ، وقد جاز التحفظ منه ، وهذا لا نصَّ في ان ميّته شهيد . وسأل عن ذلك ، فكتب له العالم النحرير ابو عبد الله محمد الطيب الرياحي بأن ميّته شهيد ، لانه مبطون والمبطون شهيد ، كما هو صريح حديث الموطأ ، في تقرير نفيس . وخالفه الشيخ المفتي ابو عبد الله محمد بن سلامة . وكل منهما مات بهذا المرض ، رحمهما الله .

ولما قرب المولد النبوي من السنة 1266 ، كاتب شيخَ العصر إمامَ الجامع الاعظم ، أبا إسحاق ابراهيم الرياحي ، بالاجتماع يومَ المولد على العادة ، ولا يتوقف على قدومه . وأمر بالزيت لمآذن البلاد وغير ذلك مما عوّده ، ووقع الاجتماع وإطلاق المدافع .

وبعد الانفصال كاتبه الشيخ بما نصّه : « سيدنا الذي هو بالمعَقّبات محفوظ ، وبعين العناية الإلَهيّة ملحوظ ، بعد الدعاء لكم وهو في الحقيقة لَنا ، بانسدال الستر وكمال الهنا ، فانّا قد امتثلنا أمركم السعيد ، وكان يومُنا ببركتكم ، وان لم يحضره شخصكم ، يومَ عيد . ومن بركات هذا اليوم أن ألهمنا الله قراءة آيتين فيهما تفريج الكرب وتيسير العسير ، وشفاء الحرج الذي في الضمير ، جعلناهما وِرْدا بعد الفراغ ، وكررناهما ستّا وستّين عدد اسم الجلالة تعرُّضا لإفاضة اللطف العظيم ، من الاسم الجامع لاجل التعميم ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا . والسلام على عليٍّ ذلك المقام ، والحمد لله رب العالمين . والآيتان هما قوله تعالى : « سَيَجْعَلُ اللّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرا » (1) . وقوله تعالى : « فَانَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا » (2) .

وفي أيام مُقامه بقرطاجنة ، أتى قنصل من دولة الانبريال ، فخرج وقابله مقابلة كرنتينة ، وأتى بمكاتيب من دولته تقتضي عمل شروط ، وأحسن قبوله ووعده ان يكون

---

(1) س 65/آ 7 .
(2) س 94/آ 5 و 6

عمل الشروط بعد زوال المرض والخروج من الكرنتينة . وعاقه المرض عن إتمامها فعقدها ابن عمه بعده .

ولم يزل على هذه الحالة من شدة التحفظ والتحذر ، وهو مع ذلك لم يفرّط في شيء من سياسة المملكة . وتأتيه المكاتيب من كل ناحية ،ومطالب العسكر ، فيصدر جوابها ، على كثرتها ، من الغد . ولم يكن معه من الكتبة غيري ، وغير الاكتب البارع أبي عبد الله محمد العزيز بوعتّور ، وهو يحرضنا على الاستعجال بأجوبة المكاتيب .

وفي قرطاجنة اتاه نعي أمير لواء الخيّالة أبي العباس أحمد ، وهو المأمور بالعسّة في الجهة الغربية (1) . فكاتب الآلاي وعزّاهم بأميرهم .

ثم انتقل من قرطاجنة سادس ربيع الثاني (الثلاثاء 19 فيفري 1850 م.) الى المحمدية ، وهو في تحفظ الكرنتينة ، وفيها أولى أبا محمد خير الدين أمير لواء عسكر الخيّالة .

ثم وقع بها المرض فرجع الى باردو ، فوقع به المرض ، فانتقل الى غار الملح أواخر رجب من السنة (اوائل جوان 1850 م.) ، وصاحبها يومئذ أبو الفلاّح صالح بن عثمان شيبوب ، أمير لواء عسكرها المعاوضين . وفيها أتاه نعي الشيخ المفتي أبي عبد الله محمد ابن سلامة ، فوقع بها المرض وكثر في العسكر ، فرجع الى المحمدية في شعبان (جوان — جويلية) واستقرّ بها ، ثم رجع الى قرطاجنة ثانيا ، ومعه الاكتب البارع ابو عبد الله محمد الباجي المسعودي ، لانه سرّحني الى حمّام الانف لمرض أصابني . وقد كان همّ بالتوجه الى جربة ، لولا أعيان من رجال الدولة عارضوا ميله .

وهو وإن اشتد جزعه في هذا المرض إلا أنه فعل مع أهل الحاضرة في أيامه ما لم يزل ذكره حسنا جميلا .

وذلك أن هذا المرض لما أتى الحاضرة نزل أولاً بفقراء اليهود ، واشتد عليهم خطبه ، وفرّ القريب من قريبه ، فأحضر لهم قشلة سوق الوزر ، ونقل اليها المرضى ، وأجرى

---

(1) في ع و ق : « المامور بالعسة لمنع القادمين من باجة ونواحيها » .

عليهم الجرايات الواسعة ، وتطوع لمداواة الفقراء الطبيب مَصْكَرو الصبنيولي ، وله بذلك يد حسنة في البلاد اقتضت مزيدَ حبّه . وجعل بربضي المدينة أطباء ، وصرف في هذه الشدة أموالا عظيمة ، مع طعام وكسوة للفقراء من أي ملّة [تشهد بذلك صحائف الدفاتر](1) ويأتيه كل يوم عدد من مات بالحاضرة . وممّن مات من أعيانها في أول الامر الفقيه الماجد ابو عبد الله محمد ابن الامام أبي عبد الله محمد الشريف ، والعالم النحرير ابو عبد الله محمد الطيب ابن عالم الملة أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، فاهتزّ لموته وتأسف لفقده، وكانت له صبابة في الشيخ والده ، فأمرني أن اكتب عنه معزيًا وهو في قيد الكرنتينة بما نصه :

« العالم العامل الذي صبره على النوائب جميل ، وشكره على المواهب بمزيد الخير كفيل ، بركة البلد ، والمتحلي بثوب الصبر والجلد ، على مرارة فقد الولد وأي ولد ، محبّنا الشيخ سي ابراهيم الرياحي باش مفتي المالكية ، جعله الله ممن قال انا لله وانا إليه راجعون ، اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون .

أما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، ولا رادّ لما أراد الله ، فانه ساءنا ما غيّركم ، وكدّرنا ما حيّركم ، بمصابكم ومصاب أهل العلم بولدكم الطيّب ، وغمام العلم الصيّب ، الذي شكت فقده الدروس ، وألسنة الاقلام وبطون الطروس ، وهذا الخطب لا يغني فيه الدفاع ، ولا ينفع معه الا الاسترجاع ، ومثلكم من يتلقّاه بالتسليم ، من قلب سليم ، ومن الذي سالم الايام فسلم من غوائلها ، وتمتع بنائلها ، سهامها مفوقة لكلّ غرض ، من جوهر وعرض ، والدنيا ليست بدار قرار ، وما عند الله خير للأبرار . أين الامم السابقة ؟ أين أصحاب العزائم الصادقة ؟ كلٌّ قَدِمَ على ما قدّم ، وجدَّ إلى ما أعدّ . جعلنا الله ممن عمل عملا باقيا ، وأسلف سعيا إلى درجة القبول راقيا ، والصبر أنفع الذخائر ، والله يقول : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ » (2) فقد سهّل مُرُّ فقده ، كلّ خطب من بعده ، وسلّى كلّ واجد عن وجده . وهذه المصيبة نتسلّى عنها ، بأن عند الله ما هو أعظم منها . والبركة فيك وفي بقيّة بنيك ، وستبلغ ان شاء الله فيهم أمانيك . وفَرَطُكَ هذا ترى في بنيه ، أكثر مما رأيته فيه ، وعندك والحمد لله مَن يقوم في عليّ مقامه

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) س 33/آ 21

وزيادة ، ونقل الخطط إليه أعظم شهادة . فاشكر الله على نعْمائه ، واصبر على قضائه ، فانما يوفّى الصابرون أجرَهم بغير حساب . ولولا ان الله يقول : « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ » (1) ، ما خاطبت بهذا قطبَ الملّة وعَلَمَ الدين . والله يجعل ذلك خاتمةَ الفجائع وطليعة التهاني ، ويبلّغنا من طول بقائكم غاية الاماني . والسلام من مساهمكم في المصاب الفقير الى ربه عبده المشير احمد باشا باي » .

وكُتِب في 28 أشرف الربيعين سنة 1266 (الاحد 13 جانفي 1850 م) .

ولما وصل المكتوب للشيخ وهو في [حزن] (2) مأتمه ، أمر الكاتب البارع تلميذه أبا عبد الله محمد الباجي المسعودي ، وكان حاضرا بين يديه ، ان يكتب جوابه ، فكتب عنه ، بعد صدر بليغ ، ما نصّه : « سلام كريم ، من قلب كليم ، ورِضْوان عميم، ورَوْح وريحان وجنّة نعيم ، فقد ورد الينا كتابكم الفخيم ، المسلّي عن النبأ العظيم ، والخطب الجسيم ، الذي قابلْنا فيه قضاءَ الله بالتسليم ، وقلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ، فكان كالصبح المنبلج إثر ليل بهيم ، جبر القلبَ المصدوع ، وكفكف غَرْبَ الدموع ، وأعاد بعد الأرَق طيب الهجوع ، وآنس بلطيف خطابه القلبَ المفجوع ، وسلّى عن فقيد لولاه كان الصبر في حيز الممنوع » . وختمه بدعاء ، وأمضاه الشيخ بختمه .

وانما لم ننقل هذا الجواب بتمامه لان من الشدة في هذه الكَرنتينة ان المكاتيب لمّا تأتي يقع تبخيرها ، ثم يخرج لها الكاتب وهي عند أخبية العَسّة ، فينَقُل منها بخطّه ما به الحاجة ، وبعد ذلك يحرقها الامير المأمور بالعسة ، ولا تدخل لساحة القصر الذي به الباي ، وهو من الزيادة في الغلوّ (3) .

واشتد حال هذا المرض في شعبان ، ومات بسببه في الحاضرة اكثر من مائتين في اليوم ، فأشار العالم الفقيه القاضي الحنفي ابو النخبة الشيخ مصطفى ابن شيخ الاسلام ابي عبد الله محمد بن حسين بيرم (4) بجمع أربعين شريفا اسمهم محمد ، يجتمعون في

---

(1) س 51/آ 55

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) ف خ بعد قوله « ف الغلو » بياض بقدر ثلاثة اسطر ، والجملة الاخيرة ساقطة من ع و ق .

(4) كذا ف ع و ق ، وف خ : « ابن الشيخ محمد بيرم » .

جامع الزيتونة من الصباح الى الظهر ، ويقرؤون سورة "يس" اربعين مرة ، ويدعون الله بدعوات حرّرها لهم ، ناقلاً ذلك من بعض الكتب [عن بعض الصالحين ، والاعمال بالنيات] ، فاجتمعوا [بجامع الزيتونة] (1) وتضرعوا إلى من يجيب المضطر اذا دعاه ، فتراجعت الشدة ونقص عدد الموتى من ذلك اليوم شيئا بعد شيء ، حتّى اضمحلّ بفضل الله ورحمته .

والاشراف المنتخبون لهذا الدعاء هم : السيد محمد محسن وابنه السيد محمد ، والسيد محمد ابن السيد احمد الشريف ، والسيد محمد ابن السيد محمد ابن الامام السيد محمد ابن السيد عبد الكبير الشريف ، والسيد محمد ابن السيد أحمد وكيل القراء ، والسيد محمد ابن عاشور ، والسيد محمد ابن السيد علي الشريف شيخ طريقة سيدي محمد بن عيسى ، والسيد محمد ابن السيد محمود بن عثمان ، وابنه السيد محمد ، والسيد محمد العربي البشيري ، والسيد محمد بن عاشور ، والسيد محمد السقاط ، والسيد محمد ادريس ، والسيد محمد بن حسين ، والسيد محمد القلشاني ، وابنه السيد محمد ، والسيد محمد الحجيّج ، والسيد محمد الشمّاع ، والسيد محمد بن عبد الكريم ، والسيد محمد فقّوسة ، والسيد محمد بن ابي بكر بن حمّودة ، والسيد محمد العنّابي ، والسيد الحاج محمد القلاّل ، والسيد الحاج محمد الحشايشي ، والسيد محمد الدنّوني ، والسيد محمد النقّاش ، والسيد محمد الغربي ، والسيد محمد النيفر ، والسيد محمد الغربي العطّار ، والسيد محمد المحجوب ، والسيد محمد زقية ، والسيد محمد التومي شيخ الطريقة القادرية ، والسيد محمد ابن الحاج عبد الله ، والسيد محمد سعيّد ، والسيد محمد التومي ، والسيد محمد النابلي شيخ طريقة سيدي عبد السلام ، والسيد محمد بن حسن بن عمر ، والسيد الحاج محمد شنيق ، والسيد محمد شبيل والسيد (2) ، والسيد محمد عنون ، والسيد محمد الرصّاع (3) .

وكان الوزير ابو النخبة مصطفى خزنه دار يقول : « انتخاب هؤلاء الاشراف شهادة لهم بثبوت النسب الشريف تغنيهم عن الحجة [المكتتبة] (4) .

(1) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .
(2) بياض بقدر كلمتين فى خ و ع و ق .
(3) العدد يتجاوز الاربعين ، ولعل ذلك ناتج عن تكرار بعض الاسماء
(4) الزيادة عن ع و ق .

وفي هذه السنة أتى للباي نيشان من دولة سردانيا ، وقبله باحترام ، وتوقف في حمله لانه يقرب من [شكل] الصليب ، فأفتاه بعض الراسخين في العلم بالجواز [اذا لم يعتقد معتقد أهله] (1) ، وأفتى بالمنع بعض المتورعين .

وبلغ الباي ان الشيخ ابراهيم أصابه شيء من المرض (2) فكاتبه سائلا عن حاله ، فاجابه بما نصه :

« الحمد لله الذي شرّفنا بسؤال سيدنا المشير عنّا ، ولولا كرم طبعه وشماخة مجده لا نكون لذلك أهلاً وما كنّا ، اللهم شرّفه بالزيادة ، في مدارج السعادة . وبعد فالذي أعرّف علَيَّ مقامكم به من أحوالنا على ثلاثة أقسام على طريق الاختصار ، اذ التفصيل لا يحتمله الليل والنهار . القسم الاول حالنا مع خصوص سيادتك ، وما لها في السويداء من عظيم وَدادتك ، وهي الشفقة التي للوالد على ولده ، واللحمة التي بين القلب وكبده . والقسم الثاني ، حالنا مع سائر الناس ، وهي الصبر على أذى اللئيم ، والشكر الجميل للولي الحميم . والقسم الثالث ، حالنا مع الله عزّ وجلّ ، وهو الصبر على البلاء ، والرضى — ان شاء الله — بالقضاء ، فلا أحزن على ما فات ، ولا أفرح بما هو آت ، واذا قلت : متى نصر الله لسيدنا المشير ، يقول كتاب الله : ألا ان نصر الله قريب . هذا جواب ما ظهر لي من ظاهر المكتوب ، وما وراء ذلك من شأن علاّم الغيوب . والسلام التامّ ، الفائح منه مسك الختام ، لحضرتكم التي بها عزّ الاسلام ، من ابراهيم الرياحي » .

أوائل رمضان ، عام 1266 (اواسط جويلية 1850 م.) .

وكاتبه أيضا في الشهر ، سائلا عن حاله ، فأجاب بما نصّه :

« سيدنا ومولانا ، ومن بنعمته وإحسانه تولاّنا ، أبقى الله للعالمين شمسك ، ولا عدم البريّة أنسك . أما بعد فقد بلغنا الكتاب المبرور ، المهدى إلي الحظ الموفور ، من لطائف السرور ، بشدة اعتناء سيدنا ، ومسرّته — حفظه الله — بعافيتنا ، فآنسني بلذيذ خطابه المحبوب ، الانس الذي وجده بالقميص يعقوب . ونحن الآن ، بحمد الله ، في عافية وافية

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) في ع و ق : « تشويش باله » عوض « شيء من المرض » .

وفضل أسنى ، فليزدد سيدنا مسرّةً وهناء . لا زال فضله مشهورا ، وسعيه مشكورا ، وجميل مآثره في كل كتاب مسطورا . والسلام من معظّم قدركم ، الشاكر فضلكم، ابراهيم بن عبد القادر الرياحي ، لطف الله به ، آمين » . في 12 رمضان سنة 1266 (الاثنين 22 جويلية) .

وأصيب الشيخ بهذا المرض أواسط الشهر ، وتوفي أواخره ، وحزن الباي والمصر لفقده . وبعث لاخصّ تلاميذه المرموق عنده بعين الإجلال ، وهو العلامة الفاضل أبو العباس احمد بن حسين القمّار ، وكان قاضيا بالكاف فأولاه رئاسة الفتوى بالحاضرة ، ودروس جامع صاحب الطابع ومدرسته ، فامتنع وأصرّ ، وألزمه القبول . وقدّم لإمامة الجامع الاعظم الشيخ الفقيه الإمام الشريف ابا الثناء محمود محسن .

ولم يزل بالمحمدية في الكرنتينة ، وكاتب أهل الحاضرة باعفائهم من القدوم له يوم العيد للتهنئة .

*

وفي هذه السنة سافر محمود بن عيّاد الى فرانسة ، واصحبه الباي بمكاتيب في الوصاية به ، وأوامر في سراح زيت من المملكة ليبيعها على إسقاط شيء من دراهم السراح، ويتعجل الثمن لشراء القمح والشعير ، لان المملكة توالى عليها عسر الجدب وعسف العمّال ، وزعم انه فعل ورجع .

*

ولما ارتفع المرض ، وقد أثر في عدد اهل المملكة نقصانا واضحا ، لا سيما عسكر الخيالة ، أمر الباي أميرَ لواء الخيّالة أبا محمد خير الدين بجمع عسكر عوض من مات ، يأتي بهم من كِسْرى وبَرقُو وما والاهما .

وعارضه في ذلك وزراؤه بأن الناس لم تزل في دهشة المصيبة العامّة ، ويؤدي ذلك الى النقص في العمران ، مع عدم الاضطرار الى العسكر والحالة هذه ، فأعرض عن مقالهم ورسم لخير الدين عددا لا يأتي بأقل منه ، فتوجه وأتى بالعدد المأمور به ، وقال له :

« يا سيدي إنـي تركـت تلك الجهة فارغة » ، فقال له : « حسبك تنفيذ ما أمرتك بـه ، وما وراء ذلك أنا أعلم به » . ووقع في تلك الجهة نقصان بقـي أثره ، وعُدَّت من شهواته واستعجـــالـه .

⁂

وفي محرم من سنة 1267 ، سبع وستين (نوفمبر — ديسمبر 1850 م.) ، وجّه الباي نيشان آ له للملك سردانية ، ونواشن لوزراء وأعيانٍ من دولته ، مع احد المقربين لديه وهـو صالح بن عثمان شيبوب امير لواء . وكـان الوزير جوزاب راف وقتئذ رسولاً عند الـدولة المذكـورة ، فكـاتبه ليقدّم الرسول وما معه للدولة . وقبلت الدولة النواشن أحسن قبول ، ورجـع الرسول بنواشن من تلك الدولة لاعيان من رجال دولة الباي .

⁂

وفي ربيـع الاول من السنة 1267 (جانفـي 1851 م.) ، رتب الباي قانونا على الزيتون والمراجع بصفاقس وقُراها ، يؤديه المالك أخصب ام أجدب ، وكـتب لهم منشورا بذلك مثل ما تقدم . وهذا القانون ، على ثقله ومخالفته لصريـح الشريعة الاسلامية وحالة البلاد ، هو أحد الشرَّين (1) بالنسبة لحالة الملتزمين ، لانها أفنت الامل وقطعت العمل ، اذ الملتزم لا يسعى الا في نفعه ، وليس وراءه متعقب ولا وازع ، هو الخصم والحكم .

⁂

وفي ليلة المولـد من هذه السنـة بات البـاي بالحاضـرة ودار بها ليـلاً على عادتـه ، [مختلطا] (2) مع عامّة الناس . وحضر موكـب المولد بالجامع الاعظم ، وقرأ التأليف الشيـخ الإمام الشريف ابو الثناء محمود محسن ، وكان يوما مشهودا . وتذكـر مصاب المملـكة بعالمها الشيـخ ابراهيم الرياحـي ، قُدِّس سِرُّه .

وفي الخامس والعشرين من رجب السنة 1267 (الاثنين 26 ماي 1851 م.) ، قـدّم لخطة القضاء [بالمذهب المالـكي] ذكـي العصر ونحرير المصر ، الشريف ابا عبد الله محمد الطاهر بن عاشور ، [وقد كـان استشار فيه شيـخ الاسلام ابا عبد الله محمد بيسرم ،

---

(1) في ع : « خير الشرين » وفي ق : « خير » .

(2) الـزيـادة عـن ع و ق .

فعابه بسن الشباب ، وفي علماء الحاضرة مشيخة . فقال له : « هو في العلم متقدم أو متأخر ؟ » ، فاعترف بتقديمه ، فقال له : « اذاً لا يضرُّ صغرُ السن »](1) .

وابتهج بولايته لانه من ثمرات عنايته بالعلم . وقال : « ان هذا القاضـي من علماء عصـري » .

وقدّم لخطة الفتوى العالم العامل الشريف العفيف ابا عبد الله محمد النيفر .

وفي اواخر شعبان السنة 1267 (اواخر جوان 1851 م.) قال لي الباي : « ان سمرنا في رمضان يـكـون ابتداؤه بقراءة « الشفاء » بحيث نختمه ليلة خمس وعشرين منه ، ونبيـت بتونس ليلة سبـع وعشرين على عادتنا » ، فابتدأنا قراءته أول ليلة من رمضان في المحمدية . أقرأ بحضرته نبذة صالحة منه ، ويقابل معـي وزيره [وابنُ تربيته] (2) ابو النخبة مصطفى خزنه دار بنسخة صحيحة ، ومعنا شرح الشهاب للمراجعة . ويسأل اذا توقف في فهـم شـيء ، بحيث لم تـكـن قراءةَ تعبّدٍ بالالفاظ . ورأيت منه ذكـاء يطير شرره ، وتتبلج غـرره . وكـان يقرع سنّ الندم على إضاعة شبابه ، في غير العلم واسبابه ، ويستعمـل وقت القراءة غايةَ الادب الواجب لسماع الاحاديث النبويـة . وحضر معنا ليلةً شيخُ الاسلام ابو عبد الله محمد بيرم ، وهو الذي قرأ تلك الليلة ، وشاهد من سؤاله ومشاركته وألْمعيته ما أعجـب به .

ولما ختمنا الـكـتاب قال : « هـكـذا ، ان شاء الله ، في كَـل رمضان » . ووَفَـى بِنَذْره ، فلم يزل يقرأ « الشفاء » في كـل رمضان ويختمه ، إلى أن لحق بربّه .

☙

وفي ثامن شوال من السنة 1267 (الاربعاء 6 اوت 1851 م.) ، أتاه وزير البحر أبو الثناء محمود كـاهيـة ، وهو في بيت البحـر [من حلق الوادي] ، وقـال له : « ان قبطـان الفرقاطة « الحسينية » أتى شاكـيا من بحريتها بأنّهم قاموا وتجاسروا على ضبّاطهم [ونجا هو بنفسه هاربا] » ، فغضب لذلك وأمر باحضارهم ، فأتوه بثمانية أنفار من اهل جـزيرة

(1) الـزيـادة فى الفقرة عن ع و ق .
(2) الـزيـادة عـن ع و ق .

قرقنة . ولما أحضرهم لديه اعترف بعضهم بأن ذلك كان على وجه اللعب وأنكر البعض ، فأمر بقتل الثمانية في اليوم وهو في بيت البحر . وقُتِلوا في الحين [هدفا بحب الرصاص] على شاطىء البحر . وبقي هذا القبطان متخوفا من البحرية زمنا . وهذا القبطان اسمه محمد من جالية تُرْك الجزائر بعد أخْذها ، وفي طبعه شدة لانه فاجأ الوزير بقوله ان بحرية الفرقاطة قَامُوا (1) ، فبلّغ الوزير المقالة كما سمعها من غير تثبّت ولا تدبّر ، مع ما يَعلَم من شدة الباي في تربية العسكر ، [واستعجاله في ذلك] . وندم بعد ذلك [على استعجاله] ، لو ينفع الندم . [والعجول مخطىء وان ملك ، والمتأني مصيب وإن هلك](2).

⁂

وفي رجب من سنة 1268 ، ثمان وستين (افريل — ماي 1852 م.) ، قَدِم للباي أميرُ لواء من الدولة العلية العثمانية بنيشان افتخار ، فعظّم الباي مَقْدَمه ، واهتزّ لقبول النيشان، وجمع خاصّته ورجال دولته وأهل المجلس الشرعي يوم قبوله بالمحمدية ، وختم المجلس(3) بدعاء من شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بيرم نصّه : « سبحانك يا من لا تتوجه الاطماع الا إليه ، ولا تنتظم الامور في سلك الاستقامة الا بالاعتماد عليه ، نسألك ان توجه من خزائن فضلك صلاة وسلاما الى رسولك محمد الذي ألبسته من الكرامة تاجا ، وأدرت على متّبعيه العامة سراجا وهّاجا ، ونسألك الرضى عن زواهر نجوم أصحابه ، ومن تعلّق بعَلِيِّ جنابه ، من آله الكرام واوليائه وأحبابه . اللهم أيّد دينَه القويم ببقاء خليفته خاقان الخواقين ، ومَن جعلتَ بيده مقاليد سياسة الدنيا والدين ، وأعطيته من التشريف بخدمة حرمك رايةً تلقاها باليمين ، مولانا السلطان أمير المؤمنين . اللهم اجعل مساعيه فيما يُرضيك ناجحة ، وجواريَ عزماته في بحار الاسعاد سابحة ، وانصر جيوشه على من ناوأه حيث توجّهت غادية أو رائحة ، وامدد اللهم مَلِكَنا أسَدَ هذه البُقْعة ، وشاه هاته الرقعة ، بمدد نصرك واسعادك ، وأعنه على القيام بمصالح عبادك وبلادك ، واجعل طائرَ صيته على فنن العلياء صادحا ، وبَدْرَ همته في أفق المعالي لائحا ، وعُمَّ جميعَ أقطار المسلمين بالعافية ، وأمطِر عليهم سحائب نعمك الكافية ، وفَيِّئْهم ظلال كرمك

(1) قاموا : ثاروا .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق

(3) في ع و ق : « وختم الموكب »

الضافية ، واجمع كلمتهم على إعلاء الدين ، ولا تُرِنا فيهم سيفين مختلفين (1) يا ربَّ العالمين . ونضرع إليك ان لا تجعل نفوسنا الى ما لا يرضيك جانحة ، وتقبل دعاءنا بحرمة أسرار الفاتحة » .

وبعد ذلك رجع الرسول الى منزله ، وحصل له غاية الاكرام والتعظيم ، وسافر .

⁂

وفي السابع والعشرين من شعبان السنة 1268 (الاربعاء 16 جوان 1852 م.) ، سافر محمود بن عيّاد لفرانسا في فابور الباي ، واطلقت لسفره المدافع ، واصحبه الباي مكاتيب الوصاية به ، [وأوامر في تسريح زيت من المملكة] . وأظهر أن سفره لتبديل الهواء ، ومداواة مرض به ، وترك ابنه ابا الربيع سليمان قائما مقامه [في خططه] (2) . وكان من أمره ما يأتي بيانه .

⁂

وفي يوم الاربعاء الثالث عشر من شوال (3) السنة 1268 (السبت 31 جويلية 1852م) ، قبل الزوال ، أصيب هذا الباي بفالج في شقّه ، وكنا بين يديه ، فحملناه إلى بيت منامه . وكان معه الحكيم « كوادريني » الروماني ، فأمر بحكٍّ بدنه بالخَرْدَل وخِرَق الصُّوف ، وبعث وزيرُه مصطفى خزنه دار إلى طبيبيه الحكيمين المشهورين ابراهيم لمبروزو وكستل نوفو ، فحضرا من حلق الوادي ، وفصداه لما حان وقت الفصد ، وقاما بعلاجه قياما يشهد به كل واحد من خاصته ، حتى انهما لا ينامان إلا بالتناوب . وبعد أيام أشارا عليه بالنُّقْلة من المحل الذي مرض به ، فانتقل من محل النَّحْس الى حلق الوادي . ولم يزالا في علاجه ، وتعديل مزاجه ، إلى أن وقف وصار يبدّل الخُطى ، متوكئا على رجل ثالثة هي أبو عبد الله محمد المرابط أمير لواء ، ويكرُّ رجله المصابة . واهتزت البلاد سرورا بوقوفه .

وفي عيد الاضحى شهد أضْحِيتَه [بحلق الوادي] ، وأمر باطلاق المدافع لتضحّي الناس.

---

(1) في ع و ق : « متخالفين » .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) الثالث عشر من شوال هو السبت حسب التقويم

وأتاه أهل المجلس الشرعي وإمام الجامع الاعظم [ومعه بعض الايمة] ولاقوه بمحل سكناه من حلق الوادي ، وقام لدخولهم متوكئا . و[من الغد] أتته جموع الحاضرة فوقفوا أمام الصرايا ، ونزل اليهم لابسا جُبَّة صُوفٍ خلقة وبلغة [في رجليه] كان يلبسهما الولي المجذوب السيد عمر عبادة بالقيروان ، [للتبرك بلباسه] ، وللباي اعتقاد فيه . ودار عليهم متوكئا يكُرُّ (1) رجله المصابة وهو يقول : « مرحبا بأهل بلادي ، وهذا حالي كما ترون ، والرجاء في الله أن أعيش لخدمتكم » ، فذرفت دموع [بعض] (2) القوم ، ودعوا له ، وقرؤوا الفاتحة ، ورجعوا محزونين .

ولما استقر بحلق الوادي ، حرّكه جاذبه الى المحمدية ، فنهاه الاطبّاء عن ذلك ، فأمر ببناء قصر على ربوة قريب منها ، وسماه الصالحية نسبة الى وليٍّ قبره بالمحمدية اسمه سيدي صالح . [وجعل به بستانا جلب أشجاره من البساتين وجلب لسقيها الماءَ على الإبل من الآبار القريبة اذ لم يكن على ماء] . وصرف عليه ما ينشيء بلادا ينتفع بها (3) . وتمّ في أقرب وقت على أعجب ما يرى ، [كما خرب في أقرب وقت] وسكنه أياما قليلة . ثم أمر ببناء قصر بحلق الوادي ، في موضع برج الخريطة قرب باب رادس ، وبنى مسجدا بقربه اذ لم يكن بحلق الوادي مسجد . [وتمّ هذا القصر على احسن حال ، وهو الآن محلُّ سكنى ملك العصر] (4) ، وصرف عليه أموالاً لها بال ، حتى قال بعض الناس : « إن الباي أراد ان يبقي المملكة لمن بعدَه فارغة من المال والعمران » . لكن من ينظر بعين الإنصاف يقول : « هو وإن تركها فارغة من المال وأسبابه ، إلا ان الله حماها من تركها مثقلة بهمّ الدّين ومذلته » .

وتمّ هذا القصر ايضا في أسرع وقت ، وسكنه أياما . وبقي مدة مرضه يتردد بين قصر الصالحية بالمحمدية ، ودار وزيره أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع بحمام الانف ، وقصره الجديد بحلق الوادي .

---

(1) يكر : يجر (عامية تونسية) . (2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) في ع و ق : « وصرف على ذلك من الاموال ما يصلح سائر الخراب بالحاضرة » .

(4) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وفي مدة مرضه أتاه رسول من السلطنة العلية ، أميرُ لواء ، في فابور مخصوص لعيادته. وقبله بحلق الوادي ، وسُرَّ بقدومه ، وعظم عنده موقع هذه العناية . ولما سافر أصحبه مكتوبا بالشكر والثناء ، على هذا الاعتناء .

وأتاه ايضا رسول مخصوص من سلطان الفرنسيس بقصد العيادة ، فعظّم مَقْدَمَه وشكر سلطانه .

⁂

وفي منتصف ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من ذي القعدة 1268 (الاثنين 13 سبتمبر 1852 م.) ، سَرَتِ النار على حين غفلة إلى ان وصلت خزنة البارود بالبرج الكبير المعروف ببرج زوارة (1) بالجبل الاخضر قرب الحاضرة ، فطارت الخزنة وانهدم [جانب من] البرج . وكان ذلك اثر مرض الباي ، فارتاع وهو بحلق الوادي [واهتزت الحاضرة] (2) ، وتشاءم .

⁂

وفي يوم المولد النبوي من سنة 1269 ، تسع وستين (الجمعة 24 ديسمبر 1852 م.) ، أمرني بقراءة تأليف المولد الشريف بين يديه ، لعجزه عن السعي الى الجامع ، فقرأته بمحضر رجال دولته بحلق الوادي . ومن الاتفاق ان صادف وقتَ الوقوف عند ذكر الابيات ، وقوفَ الجماعة بالجامع الاعظم ، أنبأ بذلك صوت المدفع من القصبة . وهكذا في كل مولد ، مدة مرضه ، إلى أن سار لشفاعة صاحب المولد .

⁂

وفي يوم الاحد التاسع عشر (3) من الشهر (2 جانفي 1853 م.) ، أمر بجذب الجفن الجديد ، الذي أمر بانشائه في حلق الوادي ، وعام في البحر سريعا . وكان ذلك في يوم مشهود حضره الباي ، على مرضه ، ومعه رجال دولته . وسُرَّ بسرعة جذبه ، وسمّاه في ذلك الوقت « شفاء أحمد » .

---

(1) في ع و ق : « برج زواوة » . (2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق
(3) هو 21 حسب التقويم

وكـان ابتداء العمل فيه يومَ الاحد التاسع عشر (1) من ربيـع الانور سنة سبـع وخمسين ومائتين وألف (9 مـاي 1841 م.) . وإن لم يحصل الانتفاع به ، مع ما صرف عليه من الاموال الذريعـة ، لانه رسم لصـانعه مقدار طوله ، فقـال له الصـانع ، برتميـل الفرنسيس : « ان هذا الطول لا يخرج من الجابية الى البوغاز ، وان ماء البوغاز لا يـرفـع مثله » ، فقال له : « نوسّع البوغاز ونغرّقه (2) » . وكـان ذلك معنى المثل المشهور في العامّة وهو إحضار الحصيرة قبل بناء الجامع .

وكـان الوافدون من أهل أروبا اذا رأوا هذا الشقف ، وبوغاز حلق الوادي ، يعجبون ويضحكـون . وهو الآن في الجابية كـالجزيرة من خشب .

وصدر الامر من المتولي بعده بتـكسيره والانتفاع بخشبه ، لانه بلي من الماء الـراكـد .

***

وفي يوم الاحد الثامن والعشرين (3) من ربيـع الثانـي من السنة 1269 (6 فيفـري 1853 م.) ، وجه الباي من اعيان رجال دولتـه امير اللواء أبـا محمد رشيـد [اميـر عسكـر الساحل] (4) الى سلطان الفرنسيس في غرض سياسـي ، وأشرك معه في الرسالة محمـود بن عيّاد ، وهو يومئذ بباريس . ورجع الرسول في شعبان (ماي — جوان 1853 م.) ، وبقـي ابـن عيـاد ببـاريس .

***

وفي السنة (1852/53 م.) بلغ نعـي والدة السلطان عبد المجيد خان ، فعيّن البـاي فابورا بعث فيه ابا عبد الله محمد علي آغة في غرض التعزية ، فبلّغ مـكـتوب التعزية ورجع .

وفي هذا المكـتوب أمرنـي بتبديل الاسلوب في الخطاب للحضرة السلطانية ، بمحضر وزيره أبـي النخبة مصطفى خزنه دار ، وقال لي : « أيها الشيـخ أنت لساني الذي أتـكـلم

(1) هـو 17 حسب التقويم
(2) النغريق : التعميق (عـامية تونسية)
(3) هـو 26 حسب التقويم
(4) الـزيـادة عن ع و ق .

به خارج الحاضرة ، وإن تخوفنا ونُفرتنا من الدولة العثمانية أراه يجرّ بنا الى العدم ، ومعاذ الله أن اكون سببا في إخراج هذا الصقع الاسلامي من يد المسلمين ، وخروج روحي أهون علي من ذلك . وهب ان الدولة انتزعت من يدي هذا الملك ، ألست بمسلم ؟ » ، الى غير ذلك في هذا المعنى . ثم استرجع وفاضت دموعه ، سامحه الله ورحمه .

*

وفي شعبان من السنة 1269 ، توقفت دار المال في صرف الرسوم المالية ، لعدم وجود المال الناضّ بها ، الموكَّل لامانة محمود بن عيّاد بمقتضى خطه . وبيان السبب في ذلك يستدعي مقدّمة ، هي ان هذا الباي مطلق التصرف بمشيئته ، وفي طبعه شغف بكثرة عدد العسكر النظامي ، لسياسة انفرد بها ، [لا سيما بعد التنظيمات الخيرية ، لانه ظن ان الدولة العثمانية تَغصبه على ذلك ولو بحرب ، لانه من باب تغيير المنكر بالفعل ، وهو من الواجب على القادر ، في شرع الإسلام ، بل ربما كان أفضلَ من الجهاد ، لان دَرْءَ المفاسد مقدّم على جلب المصالح ، فثمرة الجهاد تكثير سواد المسلمين ، وثمرة التنظيمات إصلاح ما فسد من أمرهم المؤدّي الى ضعفهم واضمحلالهم . وللرجل مشاركة، وفكر يعلم به ذلك] ، فجمع من العسكر عددا مستكثرا لا تحتمله قوى البلاد الطبيعية ، فكثر المصرف على العسكر ولوازمه ، وقلّ دخل المملكة بنقص عملهم منها . وقد كانوا يعمرون الارض بشيء من الزراعة والصناعة ، كل على حسب قبوله واستعداده ، فصاروا حلفاء السلاح ، والتأهب لما تَذْرُوه الرياح ، من تخيل الاستعداد للكفاح ، [وهو على يقين لا يقدر على الدفاع ساعةً اذا غصبته الدولة على هذا الوجه في الدين ، وهو التنظيمات . لكن نفس الحريص لا تتصور الخيبة] (1) .

ولما ضاق حال المملكة ، أنِفَ من تسريح الزائد على القدر المحتاج اليه ضرورةً .

وذلك هو السبب في مظالم الجلد والدخان والمحصولات ، وامتداد أيدي اللزّامة والعُمّال امتدادا لم يعهد مثله في قطر من الاقطار ، وهو السبب في نقص عمران البلاد ، حتى ان الباي اذا جلس في المحكمة كاد أن لا يسمع الا شكايات المتظلمين من

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

اللزامة [والعُمّال] . (1) ولا جواب للمتظلم الا قوله : « اخلصْ مع اللزام » ، من غير سؤال ولا استكشاف .

ولما علم ابن عياد الحال ، وكان من رجال الدولة [المقربين زلفى] (2) ، التزم سرا من الباي قبول القمح والشعير بالرابطة ، على ان يدفع عددا معيّنا من المال في كل سنة ، ويدفع العشرة باثني عشر من الحبوب ، وما زاد على ذلك من التطفيف في القبض والصرف (3) يكون له . وسمّي وكيلاً لان الوكيل في الغالب أمين يدفع ما قبض ، فيقع الاحجام عن مشاحّته لانها باعتبار الظاهر مشاحّة للدولة .

وصار بمقتضى هذا الامر السرّي المكتتب بخطه فيما أظن ، يقبل العشرة بنحو العشرين ، ويدفع العشرة بنحو الستّة . وحسبه دفع مال اللزمة السرية ، ولا نسبة بينه وبين ما يربحه .

[وغير التونسي ربما يستبعد هذا الخبر أو يُحيله ، ومعيار الكيل واحد وتداخل الاجرام مستحيل . أما التونسي الذي يرى ذلك عيّانا ، ربّما يقول ان العشرة يقبلها بأكثر من عشرين ، وذلك ان الحبوب تكون موضوعة على الارض متراكمة ، فيأتيها الكيّال ويملأ الوَيْبة ، ثم يديرها على الحبوب فتلصق كل حبة بأختها ، ثم يجعل عليها الشاشية وهو ما تَرَاكَم من الحبوب خارج الكيلة ، ثم الحملة والذراع وهو ما يحمله صاحب الويبة وما يكون بين صدره والويبة . ثم يأتي القفّافُ بقُفّة تحمل ويبتين ويَغرِف بها من الحبوب المتراكمة ما يستطيع ، ويقبل بها المكيل بحملته وذراعه فتمتلىء القُفّة .

ولما بلغ خبر ذلك للباي استبعده ، وأتى بنصف قفيز من القمح وأمر بكيله على هذه الكيفية بمحضره في بيت البحر بحلق الوادي . ولما كال ويبة استحيا ودخل البيت ، وأمر الامير ابا محمد خير الدين ان يحضر لكيل الباقي ، فكان النصف ربعا . وقال الكيّال لخير الدين : « لو كانت العرْمةُ كثيرة القمح والقفّافةُ مَهَرَةً ، يصير النصف بأقل من الربع » .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) في ع و ق : « من القبض والدفع » .

ثم ان الفلاحة من المسلمين يرون أنهم تُجّار الله في أرضه ، والعشر زكاة وهي أخت الصلاة حق لله تعالى ، ربما تسمح نفوسهم بما يمكن احتماله ، ويرون البَرَكة تَخلُفه ، الى غير ذلك من مكارم أخلاق المسلمين . فترى المسلم ينظر الايدي جائلة في ماله بالتبديد ، وقلبه يتقطع ، لان الشُّحَّ بالمال جِبِلّة . ولذلك تجد اكثرهم يدفع عشره بالحَزْر ، فيأتي بالقفيز ويقبله الوكيل بنصف ، ليستريح . فاذا لم يرض بالنصف وطلب الكيل ، يكون أقلّ من النصف . لان ما يبقى على الارض ، ويسمّى القاعة ، للوكيل والكيّال] (1) .

وازداد بذلك نقصان الفلاحة حتى كادت ان تنقطع ، وبقيت الهناشر مرعى السوائم ومبيت الوحوش ، وتفاقم الامر ، وعيل الصبر ، وضعفت الطاقة ، وظهرت الفاقة . وصارت أزِمّة الاعشار تأتي من البلدان ، واكثر الهناشر مكتوب اسمه مقرونا بلفظ « ابيض » ، كناية عن عدم البذر .

وكنت أقرأ على الباي مجموع كل زمام ليجعل عليه ختمه ، حتى قال لي الامير ابو محمد خير الدين : « ما معنى ابيض ؟ » ، وهو يعلمه ويعلم سببه ، فقلت له : « معناه لا بذر فيه » ، فقال لي : « لِمَ لم تجمعه حتى يعلم سيّدُنا مقدار ما نقص من عمران بلاده ؟ » ، فقلت له : « أشرتُ إلى ذلك ولم يُستَحسَن مِنّي » . وتذكر الناس بهذا الحال حديثَ خُرافة ، وهو ان الفلاح في آخر الزمان يمرّ بالمحراث فيضربه برجله ويقول له : « يا سبب فقري » .

والتزم [ابن عيّاد] (2) مع ذلك القيامَ بما يلزم العسكر من الكسوة وجميع ما تشتريه الدولة ، على مال معيّن يدفعه ، فدبّر في إحداث الرسوم المالية بما يروج في السمع ، لضيق الحال . ووقع بها شيء من التسهيل وادارة المتاجر .

وما زال مصروف العسكر ينمو باعتباره في نفسه واعتبار ما يربحه ابن عيّاد في بيعه للدولة ، [وازِمّة حسابه تشهد بذلك ، فانه لا يرضى في الربح بمثل رأس المال] ، مع ما في طبع هذا الباي من الكرم الحاتمي ، [« والجودُ يُفقِر والإقدام قتّال »] خصوصا

(1) ما بين القوسين ساقط من غ ، مثبت في ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

مع خاصته وكبراء العسكر الذين استكثر منهم كثرة فادحة ، فوق ما يلزم عدد العسكر [والزيادة في الحدّ نقصان من المحدود] (1) .

وتخوّف ابن عياد من هذا الحال ، لسوء سبيله ، واذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ، فأودع لشيخ الدولة ومقدّم الوزراء ابي النخبة مصطفى صاحب الطابع بأن الدخل قلّ والخرج كثر ، ويلزمنا في كل عام شراءُ جانب وافر من القمح والشعير من خارج المملكة ، بأوامر في سراح زيت تدفع لمن يريد إخراجه ، بأقلّ من المال المعين بها ، لانه يدفعه عاجلاً ، وينتظر حضور الزيت للوسق ، فتكلم الوزير مع الوزير المقرّب أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، وحذّره عاقبة الامر ، وربّما يعدُّ ذلك غفلة وإهمالاً ، فقال له : « أنت اولى بالكلام مني ، لمكانتك المكينة وسنّك ، فيغتفر لك ما لا يغتفر لغيرك » ، فتكلم الوزير صاحب الطابع مع الباي ، فلم يُصْغ لكلامه ، فأعاد الكلام للوزير مصطفى خزنه دار ، وأشار عليه بالتوقف والتصريح بالعجز ، فقال له : « أما هذا فلا يقع مني ، وحسبي أن أفعل ما يأمرني به سيدي ، وتوقفي لا يرفع الضرر ، بل أجلب به ضررا لنفسي » . وله العذر ، اذ لا قانون يومئذ الا الشهوة الملكية .

ثم تكلم الوزير مصطفى صاحب الطابع مع ابن عياد وقال له : « كاتِب الوزير واطلبْ منه عرض مكتوبك على الباي » ، فكتب له : « بعدم وجود القمح والشعير ، وأوامر السراح لم نجد لها مشتريا في غالب الظن » .

ولما عرض الوزير هذا المكتوب على الباي ، جمع وزراءه في بيت سكناه بالمحمدية ، وناولني المكتوب فقرأته عليهم ، فأطرقوا واجمين ، ينطق لسان حالهم بالانكار ، ففتحت باب الكلام بتهويل أمر المصروف ، « والواجب فيه الآن الاقتصار على الامر الضروري » ، فقال لي بغضب : « كأنك تريد تسريح العسكر ؟ اكتب لي خطك اذا وقع ضرر من تسريح العسكر فأنت المطالَب به » . ثم قال : « والله لا أسرح العسكر أو يقطعَ رأسي » ، وأشار بيده الى رقبته [من شدة الغضب] . ولما ثاب له حلمه ، [وعلم الجماعةُ ان الغضب على مجموعهم] (2) ، قال له وزير الحرب ابو النخبة مصطفى باش آغة : « يا سيدي ، إن الدنيا الآن مؤسسة على الحقوق باتفاق الدول ، وهذا العسكر إن

---

(1) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .

أعددناه لزيادة في المملكة أو دفع الاجنبي عنها فالمحقق ان ذلك لا يقع (1) ، وان اعددناه لدفع الضرر داخل المملكة فالظاهر انه اكثر من الحاجة ، وان سرحنا البعض فلا مانع من جلبه وقت الحاجة » .

وقال له الوزير الكنت جوزاب راف : « ان الدول بأروبا لا يُبقُون تحت السلاح الا القدر المحتاج اليه ، ويسرحون الزائد ، اعتبارا للمصروف وراحة المتسرحين ، مع غناهم الذريع » .

وقال له وزير البحر ابو الثناء محمود بن محمد كاهية : « ان كثرة العسكر تؤدي الى عدم القيام بواجبهم كما ينبغي ، والعامة تقول في امثالها : قَلِّل ودَلِّل » ، فأعرض عنهم وقال : « تكلموا في تدبير يقلُّ به المصرف ، غير حال العسكر » ، فقال له الوزير صاحب الطابع : « ان معظم المصروف على العسكر وتوابعه ولواحقه » . ولم يقل لهم تكلموا في زيادة دخل ، لانه على يقين بأن ذلك غير ممكن ، باعتبار حالة البلاد من ضعف موادِّ الكسب [الطبيعية بها من الزراعة والصناعة والتجارة] (2) ، اذ لايخفى ذلك على ثاقب فكره . وانفضَّ الجمع على غير طائل .

ومن الغد خرج الينا ونحن ننتظره على العادة ، فلم يجد غيري وغير وزير الحرب أبي النخبة مصطفى ، فقال لي : « هل رجعت عن رأيك ايها الشيخ ؟ » ، فقلت له : « حيث لم يستحسنه سيِّدُنا فهو معدوم » ، فضحك وقال : « صرِّحْ بلفظ الرجوع » . ثم قال لوزير الحرب : « عجبا لك ، كيف ترى تنقيص العسكر وأنت رأسهم » ، فقال له : « يا سيدي ، انما استشرتنا من حيث المصلحة العامة ، والواجب النصح لك ولعامة المسلمين . ان هذه المملكة ورثتها من آبائك وأجدادك ولم تأخذها بحرب ، فهي بمنزلة دار حبس يسكنها المستحقون على التداول ، فاذا انقضت دولة أحد المستحقّين فلا أقلَّ من ان يترك الدار كما أخذها من غير نقص شيء منها ، والاَوْلىَ أن يتركها أحسن مما أخذها لتلحقه الرحمة وهو في قبره . اما اذا تركها بحال نقص ، يلحقه ضد ذلك . وقد أخذتَ هذه المملكة ، وعمرانُها أكثر منه الآن ، [وقد أخذت في طريق العدم] (3) » ، بعبارات أشد من هذه ، فتغافل وتجلّد ، وكانت عادته الإعضاء عن وزيره هذا ، لِما يعلم من صلابته في الحق وخلوصه .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « فهو من طلب ما لاطمع فيه »
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .

ولمّا أيس ابن عيّاد من تبديل الحال ، تيقّن انه ساقط في المهواة التي أردى فيها غيرَه ، كدار الجلّولي ودار سليمان بن الحاج وغيرهما ، مع امتلاء صاعه ، فدبّر في نجاة نفسه وماله ، وطلب من الباي ان يحاسبه على [لزمة] (1) كساوي العسكر ، فانتجت المحاسبة ان له قبل الدولة خمسة ملايين ريالات تونس صغرى ، أخذ فيها تذكرة من الباي محصّلها ان « المامور بدار الجلد يدفع لحامل هذه التذكرة العددَ المذكور » .

ولمّا أتيت بالمكاتيب الى الباي ليمضيها بختمه ، قلت له : « ان هذه التذكرة كرسم مالي ، تُدفَع مثل المال الناضِّ ، ولم يتقدم نظيرُها » ، فأمرني باعادتها على العادة ، فأعدتُها بالإذن للمأمور بدار الجلد بدفع العدد المذكور لمحمود بن عيّاد ، شاط له في حسابه . ولما ختمها وجّهتُها لابن عيّاد ، فأتى بها من الغد وقال للباي : « ان هذا المال الذي شاط لي لم يكن من مالي ، وانما هي ديون علي ، بعضها لم يحلّ أجله وبعضها حلّ ، فاذا لم تكتب لي تذكرة يقبض حاملها ما بها حتى يتيسر لي رَهْنُها في مبلغ أدفعه لمن حلّ أجل ماله ، تقف الغرماء ونفلس لا محالة » .

ولهذا الباي أمان في من يحبّه ، خصوصا ابن عياد ، لما يرى أنه صنيعته . فقد انتشله من مخالب الوزير شاكير صاحب الطابع كما تقدم [في الباب الخامس] ، وأخذ له مالاً عظيما من الدولة لا يأخذه مثله بمقتضى تلك العادة ، وأعانه في خصامه مع أبيه ، وقدّمه على أنظاره [وقرّبه نجيا] ، حتى انه كان يبيت عنده في بالاصه بقمّرت ليلة في السنة ، منقوشا ذكرها على حجر بباب البالاص ، الى غير ذلك من انواع الاحسان المسترقّ لحرّ الانسان . وبمقتضى ذلك صدّقه في مقاله من غير إعمال فكر ، وأمره ان يأتي الكُتّابَ ويدفع لهم التذكرة ، ويبلّغ لهم الإذن باعادتها على الوجه الاول ، ففعلوا (2) .

ولما أتت المكاتيب للامضاء وجدت التذكرة المطبوعة وأخرى معها على الوجه الذي طلبه ابن عيّاد ، فقلت للباي : « هذه تذكرة أمس ، وهذه اخرى على الوجه الذي لم تُمضِه » ، فأمرني بعنف (3) أن أمزّق المطبوعة ونعطي الاخرى للامضاء بالختم .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ف .

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « فامرني بغضب » .

وسكت قليلا ثم قال لي : « تجب إعانة هؤلاء الناس والا تتعطل خدمتهم ، فان توقفهم يوجب توقف الدولة » .

وشرع ابن عيّاد في جمع كسبه ، وظهر ذلك في الخارج (1) ، فأتى الوزيرَ مصطفى خزنه دار بعضُ نصحائه وقال له : « ان ابن عياد محسوب عليك ، وهو من الناس الذين تعمّهم (2) رئاستُك ، وقد بلغنا عنه ما يجب ان ننبّهك له ، وان كنا نعلم ان له وجهة خاصّة مع سيّدنا ، لكن عادة الملوك ينسبون غلطهم للوزراء » ، فقال لهم : « وما يدريكم أني [ما] نبّهت سيدنا ، وهذا ما يجب علي » ، فقالوا له : « ربّما لا يتذكر ذلك التنبيه » ،فقال لهم : « تريدون أنه ينكر ذلك ، ان أنكرني فأنا راضٍ بجميع ما يقع لي » .

ومما قوّى عزم ابن عيّاد على النجاة ، انه دفع مؤنة العسكر بالمحمدية من قمح مصر ، إظهارا لانه اشترى ذلك ، وهو منحطٌّ عن قمح هذه المملكة . واشتكى كبراء العسكر من ذلك ، فقال لهم : « ان المملكة ليس بها قمح كثير ، وشرائي منها يغلي السعر » ، فرُفع ذلك الى الباي ، فأمر أميرَ لواء العسكر أبا عبد الله محمد المرابط ان يقول لابن عيّاد في صحن القصر بالمحمدية بمحضر اكابر العسكر : « ان سيدنا قال لك : عسكر المحمدية لا يأكل الا قمح تونس ، فدبّرْ لهم في ذلك والا ندفعك لهم يأكلونك » ، فقال : « اعمل جهدي ، [ورأى بوارق ما خاف منه] ، وخرج ، وعند ركوبه سبَّ نفسه إن بقي في هذه المملكة (3) . وبعد ذلك بمدة تعلّل بأنه يريد السفر للتداوي من مرض حلّ به ، [وهو صادق في ذلك ، فان عدم الامن أعظم الامراض] ، وليبيعَ أوامر السراح ، وقد كان أذِنَه ببيعها على إسقاط مبلغ كثير من عدد دراهمها ، ومكتوب الإذن بخط ابن عياد [مصحّح من الباي] (4) ، فسرّحه الباي وأحضر له الفابور ، إلاّ أنه لم يعيّن له يوم السفر ، فظن انه وقع الندم في تسريحه ، فكاتب الوزير « بأن مولانا سرحني للسفر ، وعلى ذلك جمعت احوالي ، وتوقّفه الآن يدلُّ على أني ممنوع » . وناولني الوزير المكتوب ، فقرأتُه على الباي ، فأحضره وآنسه وعيّن له يوم السفر ، فبعث

---

(1) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « وظهر ذلك للمشاهدة »

(2) فى ع و ق : « تشملهم رئاستك » .

(3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « اعلن بسب نفسه ان بقى فى هذه البلاد » .

(4) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .

والدُه سرًّا مع أبـي عبد الله محمد بوكراع الجربـي ، وكـان الباي يأنس بتجاهله وتغفّله ، بما محصّله : « ان محمودا ابنـي مسافر سفـر هروب ، ولدارنا سلـف قـديم في الخدمة والصداقة ، ولا أرضى ان يشينها ما عزم عليه ابنـي . وآيـة صدقـي انـه وسق في الفـابور صناديقه ، وفيهـا سائر دفاتره ، وحجج ديونه ، وأوامر ولايته ، وتذاكـر مدافيعـه ، وسائر ما تحت يده من الرسوم المـالية ، واوامـر سراح الزيت ، وغير ذلك ممـا يشهـد بـأنه غير راجـع . فابعث الى الفـابور من تثـق به ، فـان وجدت الحال كما ذكـرتُه فلك النظـر ، وإن وجدت الحال بخلافه فدونك والحـكم فيَّ بما تراه » ، فأعرض البايِ عن ذلك ، عـلى عادته في سدّ ابـواب الوشايـات عن خواصّه ، وقـال : « ان محمد بن عيّـاد صاحب غرض ولو مـع أولاده ، فـأراد ان يُعدِ منـي خديمـا نـاصحا مثل محمود . ونتحقـق أن ما ذكـره لا وجود له ، وإذا وجدتُه كـاذبـا لا نرضى ان نعاقبـه على كـذب ظاهره نصيحة ، والرجل شابَ في خدمة أسلافنا ، فالحياء يمنعنـي من ذلك ، ويتغير قلب محمود حيث كـان موضعا للشك » . وقال ذلك لمحمود قبيل سفره (1) .

ولما سافر يوم الاثنين السابـع والعشرين (2) من شعبان سنة 1268 ، ثمان وستين (14 جوان 1852 م.) ، كما تقدم ، ترك ابنَـه ونُـوَّابـَه قائمين مقامه في خلاص ديونه ومبـاشرة أعماله ، وحضّهم على إرسال ما يستخلصونه من المال .

ولما سمع بمرض البـايِ اشتـدّ حاله في طلب ديونـه على كـيفيـات لا عهد بها في المملـكـة ، ونوّابه يبعثون له الاموال من داره مع كـل فابور . وبعث يتقاضى تذكـرة الخمسة آلاف ألف (3) من المأمور بدار الجلد ، ودفع له المأمور شيئا منها . والوزير خزنه دار يلاطفه الى ان كـتب له مرة ، لما عيل صبره ، : « كـان ظنـي انه لمّا يصلك الخبر بمرض سيدنا ان تترك كـل شـيء ، وتقدم لشدّ أزْرنا وإعانتنا على الخدمة في هذا المضيق، فاذا أنت أشدُّ الناس مضايقة ، وليس هذا من الوفاء » ، الى غير ذلك .

ثم ظهر في صحيفة الاخبار بباريس ان محمود بن عياد حصلت له حماية الفرنسيس. ويقال ان من القانون الفرنساوي أن من ملك دارا بلوازمها في باريس ،وسكنها بنيّة الإقامة ،

---

(1) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « وقال لمحمود قبيل سفره : « ان والدك أسر الى بأنك غير قادم ، لانـك حملت معك سائر مـا تحتاجه من المكـاتيب ، ولم نصدق بذلك » .

(2) هـو 25 حسب التقـويم . (3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « الخمسة ملايين » .

وطلب حماية الفرنسيس ، فلفرانسا ان تحميه إذا قبله سلطانها . ولا يخفى ان حمايته من يوم قبول السلطان له ، لا فيما مضى من أحواله . وصعب على الوزراء إخبار الباي بذلك ، لما يعلمون من محبته وشدة ميله لمحمود بن عياد ، وان سماع هذا الخبر يؤثّر في مزاجه العليل ، حتى انه لم يتجاسر أحد على إخباره بموت ابنه سليمان .

هذا ، ومحمود بن عياد لم يزل على حاله ، ساعيا في قطع اتّصاله ، فظهر له ان بعث من فرانسة رسوما مالية ، وأوامر في سراح زيت مع بعض نُوّابه ، وشرع نوابُه في صرف الرسوم بالنقد ، والذي دُفع لامانته من الرسوم أكثر من المال الناضّ .

ولما كثر ذلك بدار المال ، أتى النائبُ بها ، وهو القائد نسيم بيشي اليهودي ، إلى الوزير وأخبره الخبر ، فتلطف في إخبار الباي ، فحزن واسترجع ، وقال ما معناه : « مِن مَأمَنه يُؤتَى الحَذِر » . وقال للوزير : « [انا في فراش مرض] افعلْ ما تراه » ، فقال : « الذي اراه الآن غلق دار المال ، توقيفا للضرر ، ومكاتبة قناصل الدول حتى ننظر في النازلة » ، فكتب لهم بما نصّه : « اما بعد فاننا لما رتّبنا الرسوم المالية ، كما في علمكم، وكّلنا على دار المال ابنَنا محمود بن عيّاد أمير لواء ، وأعطيناه رسوما مالية ، وأوامر في سراح زيت ، وأمرناه مهما يخرج رسما يجعل صرفه عينا بدار المال ، ومهما دفع أمر سراح يجعل سراحه بدار المال . ثم انه سافر وأقام ابنَه مقامَه ، ولما توفي أقام ابن أخيه مقامه . ولما تفقّدنا دار المال لم نجد بها صرف ما خرج من الرسوم ، ولا بقية الرسوم ، فوجب أن نُعلمكم لتنبّه على من هو لنظركم لا يقبلوا من نُوابه الرسومَ المالية ولا أمر سراح في زيت حتى ننفصل معه . اما هذه الرسوم المالية الدائره فان أربابها يأتون بها الينا فنجعل عليها علامة الإمضاء ، وذلك في مدة عشرة أيام من يوم التاريخ ، وتبقى دائرة في المتجر بين تجّاركم ورعايانا كما كانت قبل هذا ، ولا يأتوا بالرسوم الى دار المال لاجل الصرف حتى نعلمكم . وبعد هذا يرجع الحال كما كان ، من أراد ان يصرِّف بدار المال فله ذلك ، على مقتضى الحكم المسطر في عين الرسم . وقد أذِنّا الاعزَّ الثقة العمدة الخلاصة ، نخبة الاركان ، وزير العمالة [امير الامراء] (1) ابننا مصطفى خزنه دار ، برسم علامة الإمضاء على الرسوم والاوامر . ودمتم في أمن الله . »

وكتب في 2 شعبان من سنة 1269 ، تسع وستين» (الاربعاء 11 جوان 1853 م.) .

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وأتى الوزير لدار الباي بالقصبة ، وأمرني أن اصحبه [في مدة العشرة أيام] (1) ، ووضع علامته على الرسوم والاوامر ، وأتاه بعض نواب ابن عيّاد بأوامر ورسوم ، ففطن به الوزير وامتنع من إمضائها .

وجمع الباي وزراءه بالمحمدية ، على حال مرضه ، وتكلم معهم في النازلة ، فقال بعضهم ، وهو الوزير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « كأنّ خبر ابن عياد وما فعله لم يبلغ سيدنا إلا هذه الايام » ، فقال : « حذّرني مصطفى خزنه دار مرارا عديدة على كيفيات مختلفة ، وأنا أكره سماع ذلك منه ، ووقع في نفسي انها غيرة من قرب محمود ابن عياد إليّ ، فقلت له : لا تكلمني بعد هذا في شأنه ، فاني أعلم بحقيقته منك ، وهو من المعتمدين عندي ، فكن في إعانته . ومعاذ الله أن أنسُب غلطتي إلى غيري ، ولو كنت في قيد مرض ، ونفسي تأبى ان أجمع عليها بين الغلط ولطخ الغير ، [الموت عندي أهون علي من ذلك] » (2) . ثم قال له الوزير صاحب الطابع : « ما خبر هذه التذكرة التي بها خمسة ملايين يدفعها المأمور بدار الجلد لحاملها ؟ » ، فقال له : « إن هذا ، وأشار إلي ، راجعني في شأنها ونقمت عليه المراجعة ، وحاصل الامر ان نازلة محمود بن عيّاد لا يتحمل ثقلها غيري » .

ولما انفضّ الجمع قال للوزير نصحاؤه : « أنت أعلم منّا بحال سيّدك ومربّيك ، وما كنّا نظن ان يصدر منه هذا » .

وانتقل الباي من المحمدية الى حلق الوادي ، ولم يزل الحال يشتد ، فقال صاحب الطابع للوزير خزنه دار : « أنت بمنزلة ابني ، والموت والحياة بيد الله ، وما كل واحد يفعل فعل سيدك هذا ، فالواجب ان تضع قدمك في الخدمة على أساس ، ولهذا اليوم ما بعده . وان سيّدك لم يزل مصرًّا على رأيه من عدم تسريح العسكر ، وتبديل حال المصروف ، فالرأي ان تحصي على التقريب ما في الرابطة من الحبوب ، وتخبر سيدك بحال دولته جهرا (3) » ، فقال له : « نعم » . ومن الغد قال له في بيت حلق الوادي المعروفة

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) في ع و ق : « علنا » .

ببيت الكاغظ التي يجلس فيها لعامّة الناس وخاصّتهم ، بمحضر الوزراء والاعيان : « يا سيدى إني توقفت في القمح والشعير والدراهم ، وابن عيّاد هرب ، ولا غنى لي عن رأيك ، فأشر عليّ » ، فقال له : « يا مصطفى ، لا أسمع منك شيئا ، وحسبي ان اقول لك : دبّر في القمح والشعير والدراهم بما تراه من الوجوه ، ولك الإذن في ذلك ، ولا نسرّح أحدا من العسكر » ، وقام من موضعه متغيرا منزعجا ، ثم قال للوزير وهو يماشيه : « أتسلمني وأنا بهذه الحالة ؟ » ، فبكى الوزير وقال له : « افعل رضاك ولو أدّى الى موتي ».

وأقام في ولايات ابن عيّاد من سار على سيره فيها ، وصار يبيع في الزيت والحبوب لآجال ثم يدفعها بعد تحصيلها [او يدفع ثمنها دراهم] (1) ، الى غير ذلك مما يضيق هذا المختصر عن تفصيله .

واقتحم في ذلك الاوجال ، وجلّى في هذا المجال ، وأبلى في هذه الشدّة البلاء الحسن ، وأدّى حقوق سيده على أكمل نسق وقدمها على مصلحة الوطن (2) . واستعان في ذلك بالقايد نسيم كبير اليهود ، ورأى منه [في الخدمة والنصح] (3) أكثر من عادته ، والباي حليف أسف ، وطريح فراش .

وفي هذا المضيق أهدى أميرُ اللواء ابو عبد الله محمّد خزنه دار عاملُ الساحل (4) للباي ألف قفيز شعيرا موصلة للرابطة ، فشكره ودعا له .

وفي هذه المدة بعث محمود بن عياد يطلب اهله وابنه الصبي [احمد] (5) على يد قنصل الفرنسيس ، فمنعهم الباي من السفر ، فقال له القنصل : « ان مطلبك في محمود ، وابنُه صبي ، وزوجتُه لا قيّم عليها ، فلا وجه لمنعهما عن حاميهما الطبيعي » ، فأصرّ على الامتناع حتى سافروا هاربين ، وأعانهم القنصل . وندم على إصراره ومخالفة نصحائه ، لانهم أشاروا عليه بتسريحهم لتقوى الحجة عليه فيما يدّعيه من الشدّة وتوقُّع المخاوف (6) .

---

(1) الزيادة عن ع و ق

(2) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « وقدم حقوق سيده ومصلحة نفسه على مصلحة الوطن » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) فى ع و ق : « عامل سوسة »

(5) الزيادة عن ع و ق .

(6) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « وتوقع المكروه وعدم الامان » .

ثم جمع رجال دولته واستشارهم فيما يكون عليه العمل في شأن ابن عيّاد ، وما تحت يده من الاوامر في سراح الزيت والرسوم المالية ، فاتفقوا ان الباي يكاتب السلطنة الفرنساوية في ذلك وينتظر من عدلها الإنصاف ، فكاتب السلطنة ، وبعث بالمكتوب وزيرَه جوزاب راف . وغاية ما حصل ان الرجل الآن له الحماية الفرنساوية ، ولكم أن تطلبوا منه ما لكم عنده من الحقوق .

ولما علم ان النازلة آلت الى جدل وخصام ، وعرض الحجج على معيار الافهام ، واعتذر الوزير جوزاب راف عن مباشرة ذلك ، أتى الامرَ من بابه ، واستعان على الصعب بأربابه ، وأعطى القوسَ باريها ، والفرسَ مُجريها ، فكاتب أمير لواء الخيّالة أبا محمد خير الدين ، وهو اذ ذاك بباريس ، وأذِنه بمباشرة النازلة ، وقبلته الدولة الفرنساوية احسن قبول . وانعقد لذلك مجلس بوزارة الامور الخارجية ، وتأملوا في حجج الطرفين . ودامت النازلة نحو ثلاث سنين (1) ، آل الامر فيها الى ما لخّصه خير الدين في كتاب طبعه باللغة الفرنساوية واللغة العربية ، من أهمّ فصوله أن ما في يد ابن عيّاد من أوامر الزيت والرسوم المالية لا عمل عليها ، ودعواه رهنَ الاوامر لم تثبت ، وان ما أخذه من المال الناض في دار المال يردُّه ، وانه يتمّم حسابه فيما له وعليه بتونس (2) التي هي منبت النازلة ، إلى غير ذلك مما هو مسطّر في ذلك الكتاب ، وهي من عظائم خدمة خير الدين في هذه المملكة . ولو تمّ مراد ابن عيّاد ، ووجد من خير الدين أذْناً صاغية لمواعيده ، كانت المملكة في أسره لوقتنا هذا (3) ، لكثرة ما بيده من الاوامر والرسوم .

والحق انه لا يعاب ابن عيّاد بنفس الهروب ، لان الخائف على نفسه وماله ، بمقتضى العقل والشرع له ان يتحصن بما يراه مانعا ، [والاّ كان ملقيا بنفسه الى التهلكة] (4) ، والدولة يومئذ لا وازع فيها من شهوات الملوك ، والعيب كلُّ العيب في حال الهروب ، لانه لوّثه بما ارتكبه وبما ناضل عليه ، لولا تدارك لطف الله على يد خير الدين .

وسمعتُ من الباي انه قال : « والله لو ان ابن عياد ردّ اليّ ما أمّنتُه عليه من الاوامر والرسوم المالية ، وطلب الاستعفاء من الخدمة وسكنى أيّ مملكة شاء ، كنت أكتب

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « اكثر من عامين » .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « على عادة تونس » .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « في اسره الى ما شاء الله » .
(4) الزيادة عن ع و ق .

له مكتوبا في براءة عرضه يطبعه في صحف الاخيار ، إذ لا ولاية لي على استرقاق قلوب الرجال الا بالإحسان ، وكنت أحاسبه كما يشاء حتى يظهر في الوجود فعلي وفعله . لكن المقدّر كائن لا محالة » .

وليت شعري هل يروج هذا في فكر خائف من ملوك الإطلاق ؟

وانما أطنبنا في هذه المقدمة ، ليرى الناظر أسباب النقص الذي وقع في هذه المملكة الضعيفة كيف تسرّى اليها (1) . ومن سعادة جَدّك ، وقوفك عند حدّك . واذا أدبر الامر كان العطب في الحيلة . واكثر مصارع الرجال تحت بروق الاطماع .

وكان السبب في سفر خير الدين لفرانسا ان الباي لما تحقق عنده الحرب بين الدولة العلية ودولة الموسكو ، رام أن يفعل أكثر من عادات أسلافه مع عسر الوقت .

والعادة ان الدولة التونسية تبعث شقوفا حربية لإعانة الدولة العلية اذا كان لها حرب . ولم يكن له من اليُسر ما يوفي بهمّته ، فبعث خيرَ الدين لاقتراض مال من بعض ديار المتجر بفرانسا . وكتب له تفويضا بيده ، ولم يُعَارض في ذلك أحد من خاصته (2) .

وبعد سفر خير الدين جمع رجال دولته ، وهو في فراش مرضه ، وقال لهم : « ان الدولة العلية لها حقوق علينا باعتبار العادة ، منها أن نوجه مراكبنا لإعانة أسطولها اذا وقع لها حرب . ووقع لنا تعطيل عن إرسال شقوفنا ، سببه قنصل الفرنسيس بَكلار (3) ، كما تعلمون . ولنا بفضلها حقوق باعتبار عاداتنا ، والمسارعة لحقوقها الثابتة تقوية لحقوقنا المبنية على محض الفضل . ورأيت ان لا نقتصر على العادة السابقة ، بل نزيد على ما فعله سلفي بأن نوجه عسكرا بسائر ما يلزمه من الاخبية والمهمّات ، ونقوم بما يلزمه في مدة وجهته ، ونبعث ما عندنا من المراكب ، فقالوا له : « نعم الرأي لو ساعدته الجِدّة ، وأنت ترى ما نحن فيه من الضيق » ، فقال لهم : « الاعتماد على الله » . وهو يرى ان خير الدين يتساهل في الاقتراض ، الا انه لم يصرح بذلك . ثم جمع سائر ما في خزائنه من المصوغ

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « النقص الذي وقع في هذه المملكة الضعيفة حسا ومعنى ولا زال » وبعد بياض بمقدار ثلاث كلمات ، وفي ق كتب بالاحمر في موضع البياض : « بياض بالاصل » .

(2) كذا في خ ، و في ع و ق : « ولم يعارض في ذلك غير وزيره وصاحب سره وابن تربيته مصطفى خزنه دار » .

(3) Béclard

والاحجار الثمينة والجواهر النفيسة ، وتبرع وزيره ابو النخبة مصطفى خزنه دار بجميع ما عنده من ذلك ، حتى حلي زوجته أخت سيده ، وكان لا يرى لنفسه كسبا مع سيده . وبعث بجميع ذلك الى خير الدين وأمره ببيعه ، فلم يجد ما يقارب الثمن ، فتوقف في البيع وكتب يستشير ، فكاتبه الباي منتقدا عليه التوقف ، وأمره ببيع ذلك بما يجد ، وحضّه على ارسال الثمن عاجلاً ، فامتثل وبعث الثمن ، وقدره نحو المليونين فرنك ، انفقها في لوازم العسكر الذي عزم على إرساله للدولة العلية من الاقوات والاخبية والخيل [وسبّق لهم مرتب أشهر] (1) وغير ذلك .

واختار من رجال دولته وثقاته مَن يستكفي به وهو أبو عبد الله محمد خزنه دار عامل الساحل ، ودفع له جانبا من المال وأمره بالسفر الى اسلامبول ، وفوّض له إن وجد مَن يلتزم له القيامَ بلوازم العسكر ، يدفع له ما يراه من المال ويرجع لتونس ، والمدد يأتي للملتزم شيئا بعد شيء ، فسافر لهذا المهم أواسط شوال سنة 1270 ، سبعين (أواسط جويلية 1854 م.) ، قبيل سفر العسكر . وأعانه الله على ذلك ، ورجع اوائلَ ربيع الاول من سنة إحدى وسبعين (أواخر نوفمبر 1854 م.) ، بعد أن وصل العسكر ورتّب لهم من يقوم بلوازمهم أحسن قيام ، وهم جماعة التجار الجرابة باسلامبول ، ودفع لهم ما حمله من المال .

وكانت هذه الخدمة من عظائم حسناته في المملكة . ولم يستعن الباي في هذا الجيش بدينار ولا درهم من أحد على أي وجه ، سوى مصوغ الوزير ، إما لعلو همّته التي اقتضت بَيْعَ ما له من الطارف والتالد [بأبخس الاثمان] (2) ، او لمّا علم من عجز الناس وضعف المملكة .

وقدر العسكر نحو الاربعة عشر ألف مقاتل ، ما بين طبجية ورجال وفرسان وبحرية، حملهم في مراكبه الحربية وكانت سبعة ، واكترى لبقيتهم خمسة وستين مركبا ، وأمّر على الجميع أميرَ الامراء أبا محمد رشيد [أميرَ عسكر الساحل] ، وأمره ان يتوجه بمن معه من [أعيان] (3) الضباط لزيارة الولي أبي محفوظ محرز بن خلف وأن ياخذوا من

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

مشهده صنجقا ، وزيارة الولي العالم أبي الحسن علي ابن زياد تلميذ الامام مالك ، وزيارة مقام الامام الشاذلي رضي الله عنهم . وكان ذلك يوم الاربعاء الخامس والعشرين (1) من شوال السنة 1270 (19 جويلية 1854 م.) ورجعوا لمحلتهم أمام حلق الوادي .

ورام الباي أن يتوجه لمشايعتهم بنفسه وهو في قصر حلق الوادي ، فقيّده المرض عن هذا الغرض ، فأمرني بمكاتبتهم بالتحريض ، وبعث المكتوب اليهم عشيّة اليوم مع وزير الحرب أبي النخبة مصطفى باش آغة ، ومعه الاكتب (2) ابو عبد الله محمد الباجي المسعودي لقراءة المكتوب عليهم ، ونصه : « من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوّض جميعَ الامور إليه ، المشير أحمد باشا باي ، إلى أبناء تربيّتي ، وأقوى عُدّتي ، وأهل مودّتي ، وأعزّ أسْرتي ، ورجال نُصْرتي ، عامّة الجيش الذي اختاره الله للجهاد في سبيله ، وأمّل فيهم قُطْرُهم أحسنَ تأميله ، المرؤوس بأمير الامراء ، ونخبة أعيان الكبراء ، ابننا رشيد . تقبّل الله جهادكم ، وقوّى استعدادكم ، ونصر جموعكم وآحادكم ، وكبت بكم أضدادكم ، وزيّن بأثركم الجميل وطنكم وبلادكم .

اما بعد السلام على جميعكم فردا فردا ، ايها الجند الذي اتّخذ عند الرحمان عهدا ، أنتم الفئة المختارة الى (3) الجهاد على بعد الشُّقّة ، والاجر على قدر المشقة ، وهذا أوان سفركم ، وفتّح الآذان الى ما يُنقَل من خبركم ، ولا بدّ للأب من وصاية بنيه عند السفر ، من أمير الامراء إلى آخر نفر .

اعلموا قوّى الله عصبتكم ، وعجّل أوْبتكم ، ونصر وجْهتكم ، أن الله المتفضل بالمنّة ، جعل الجهاد بابا من ابواب الجنّة ، ووعد المجاهدين بالدرجات العالية ، والنعم المتوالية ، تحت بيض السيوف وسُمْر الاسنّة . وتذكروا قوله تعالى : « إنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ » (4) . مُشترٍ وَفيٌّ ، وربح لا غائب ولا خفيٌّ .

(1) هو 23 حسب التقويم .
(2) في ع و ق : « ومعه الاديب البارع » .
(3) كذا في خ و ع و ق .
(4) س 9/ آ 111 .

وقال تعالى : « إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » (1) ، الى غير ذلك من القرآن العظيم في هذا الخصوص ، والحديث الشريف النبوي المنصوص .

يا ايها الشُّجْعان ، كتاب الله بين أيدينا ، ولسان الشريعة بالنصر والجنة يُنادينا ، وأيسر من ذلك يحرك حميّة الدين ، ويُثير الغضب لله ولرسوله ولإخواننا المؤمنين .

يا أهل الهمم العلية ، والنفوس الابية ، والغيرة الدينية ، أقيموا فريضة الجهاد فقد تأكّد الفرض ، وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والارض . واعلموا ان الجبّان وإن مات يترك العار ، ويستقبل في آخرته النار ، إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يَرجُون . فكونوا في طاعة الله يدا واحدة ، بقلوب متعاضدة ، وأنفاس على فخر وطنكم متواردة ، ولا تَنْسَوا حقّ وطنكم وبلادكم ، تربة آبائكم ومَنْبِت أولادكم ، ومستقرّ قلوبكم وأجسادكم ، لا تُكسبوه العار، بقبح الشعار ، والحرص على العمر المستعار ، فالحذر لا ينجي من الاقدار ، والدار الآخرة هي الدار . وتحققوا من أبي نُصْحكم ، المثابر على ربحكم ، ان لواء وطنكم وأرضكم ، هو ما يظهر للابصار من عِرْضكم [فالله الله في عرضكم نظّفوه](2) ، الله الله في عَلَمكم فانصروه ، الله الله في حسن الثناء فاربحوه ، الله الله في العار فلا تقربوه ، فقد قالت الاحرار : « النار ولا العار » ، وهو بشهادة الله أطول من الاعمار .

وأوصيكم بطاعة كبرائكم بالقلب والقالب ، فان ذلك للعز والنصر أعظم جالب ، ومن خالف رئيسه لم يؤمّل رئاسة ، واوهن قوّته وأذهب بأسه . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (3) .

وأعظم أمنيتي ، ومنتهى محبتي ، ان لا نفارق جَمْعكم في الامن والخوف ، وان أكون مركز دائرتكم في ملاحم الحُتوف ، ولا أستأثر براحة عنكم ، بل أكون

(1) س 61/ 4 .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) س 8/ 45 و 46 .

كواحد منكم ، لكن إن فاتكم جسمي فقلبي بين أظهركم ، يشاهد ان شاء الله حسن مَنْظَرَكم ومَخْبَرَكم ، ويبشر وطنكم بجميل أثركم ، والعين ترقب إيابَكم سالمين منصورين ، سعداء مشكورين . ولولا ما تعلمونه من ألم المرض ، ما قدَّمتُ على مشايعتكم بنفسي أعزَّ غرض . فأشايعكم بنظري ، وأوجّه معكم قلبي ، وهو سرِّي ولبّي. « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (1).

وأستودعكم الله الذي لا تخيب ودائعه . اهـ .

وأمرني ان نحضّر مكتوبَ الولاية لاميرهم .

ومن الغد ، وهو يوم الخميس السادس والعشرين (2) من شوال (20 جويلية) ، حضرت المراكب بخارية وغيرها ، وقدم أمير الجيش المذكور ، ومعه أعيان الضباط [بلباس المراكب] (3) لوداع الباي وهو بقصره في حلق الوادي . ولما وقفوا بين يديه ، دَعا لهم ، وأمرني ان أقرأ عليهم منشورَ ولاية أميرهم ، ونصّه :

« من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور اليه ، المشير احمد باشا باي سدَّد الله أعماله ، وبلّغه من نصر الدين آماله ، الى من يقف على هذا المنشور ، والخطاب المحرر المسطور ، من أبنائنا أمراء الأُمراء ، أعيان الوزراء ، وأمراء الالوية ، وأمراء الآلايات ، وقائمي المقامات ، وأمناء الآلايات ، والبنباشية ، واليوزباشية ، وسائر ذوي الولايات العسكرية ، والجيشِ الذي وجّهناه للجهاد في سبيل الله وخدمة الدولة العلية ، تقبّل الله جهادَهم ، وكتب لهم السلامة والسعادة ، والنعم المُزادة .

اما بعد فان فارس الشجعان ، وعمدة أهل الشان ، ونخبة الكبراء الاعيان ، الثقة العمدة ، والمختار في الرخاء والشدة ، أمير الامراء ابننا رشيد ، قدمناه ، على بركة الله تعالى وحسن عونه ، أميرا على الجيش الموجّه لدار الخلافة العلية ، والابواب الخاقانية العثمانية ، للجهاد في سبيل الله . فليقمْ بهذه الخطّة عالما بقدرها ، متّصفا بما يُحمَد من فخرها ، وأوصيناه بالاحتفاظ على الجيش بأن يجعل مصلحتهم مناط نظره وفكره ، وملاك سره وجهره . وعلى سائر الجند عموما وخصوصا في هذا السفر ، من أمير اللواء الى النفر ، ان

(1) س 47/آ 7 .
(2) هو 24 حسب التقويم .
(3) الزيادة عن ع و ق .

يتلقوا أمره بالطاعة ، و يد الله مع الجماعة ، وليعلموا ان طاعته طاعتُنا وهـي طاعة الله في الحقيقة، وطاعة الله أسلم طريقة ، ومن عصى أمره ، والعياذ بالله ، فقد عصى أمرنا وأمرَ ربِّه ، ونزع يده من الاسلام وحزبه ، والله تعالى يوفق جميعكـم لما يحبّه ويرضـاه ، والهدى هدى الله .

والله المسؤول ان يُسمِعنا عنهم الثناء الحسن ، والسلوك في أقوم سنَن ، حتى يغنموا الفخـر لهم وللـوطـن .

وأستودعه وأستودعـكم الله الذي نزّل الـكـتاب وهو يتولىّ الصالحين . وكـتـب في شـوال سنـة 1270 » .

ولما تمّت قراءة المنشور على الحاضرين ، وضعتُه بين يدي الباي ، فناوله مباشـرة للأمير ، وقال له : « هذه أمانة الله عندك » . ودعا لهم وخرجوا ، فركـبوا البحر في اليوم ، وأطلِقت عليهم المدافع ، وكـان يوما مشهودا .

ولما قـرب أوان سفـر هـذا العسكـر ، قلتُ للبـاي : « نحضّر مـكـتوبـا للحضرة السلطانية ؟ » ، فأنف من ذلك لعلوّ همّته ، وبعده عن الإعجاب بنفسه ، وقال : « أي شيء فعلنا حتى نـكـاتب في شأنه السلطان ؟ » ، فقلت له : « هذا اول عسكـر نظامـي خرج من المغرب الى المشرق ، وهو بالنسبة لمملـكـتنا عدد كـثير » ، فقال : « حقّر عملك يعظّمْه غيرك . نعم ، لا بدّ من مـكـتوب في الوصاية بهم للصدر الاعظم ومـكـتوب لسر عسكـر ، فاننا وان جمعتنا الاخوة الدينية والخدمة السلطانية ، لا ننسى نسبتنا التونسية ».

ونص ما كـتبه للصدر ، بعد افتتاحه : « اما بعد تقديم التحية ، المناسبة لتلك الوزارة العلية ، والفخامة الراسخة الجلية ، فهذا أمير الامراء ، وأحد اعيان الـكـبراء ، الثقة العمـدة الاحزم ، فارس هذا الميدان ، ابننا رشيد ، وجّهه معظم قدركم بهذه الفئة القليلة السابـق تقريرها لجليل وزارتـكم ، ووجّهنا معه ابننا محمد أمير لواء . والله يرى ما للعبد الفقير من الاستحياء عند عرضها على الباب العلي ، ويسهّل الامرَ أنّ ذلك على قدر العبد الفقير لا على قدر الدولة ، ذات العظمة والصولة ، والاعتماد على الوزارة العظمى في الإنهاء والتقرير ، وبهمم الرجال ، تُنال الآمال ، وتحسن الاعمال . والمأمول من وزارتـكم المحمودة الصفات، ان تهب لبائع نفسه لله حسن الالتفات . فاليد في طاعة الله وخدمة الدولة (1) واحدة ،

(1) ق ع و ق : « وخـدمـة الخلافـة » .

والقلوب على ذلك متعاضدة ، والانفاس متواردة . والمأمول ان يرى أميرُ هذا الجيش من عنايتكم فوق الامل ، والله يسدّده لمَرْضِيِّ العمل ، وينصر مولانا السلطان ، ويعلي بسطوته اركان الإيمان ، ويديم وزارتكم ركنا رفيعا ، وكهفا منيعا ، والسلام » .

وكتب الى سر عسكر ما نصه بعد افتتاحه : « اما بعد السلام التام ، المؤدي لحق المقام ، فان العبد الفقير لما رأى ما يجب عليه من الحقوق الدينية ، والخدمة السلطانية ، وما لا يُدرَك كلّه ، لا يترك كلّه ، جهّز في سبيل الله سبعة آلاف من العساكر النظامية ، ومعها اثني عشر مدفعا بجميع ما يلزمها من الآلات الترتيبية ، وسبعمائة من الخيل للمدافع وغيرها ، وجميع ما عندنا من الشقوف الحربية على قلّتها ، وذلك لنظر أمير الامراء ، وأحد أعيان الكبراء ، الثقة العمدة الخلاصة نخبة أقرانه ، وفارس ميدانه ، ابننا رشيد . ووجّهنا معه الثقة العمدة الحازم ابننا محمد أمير لواء . والمحقق ان هذا المقدار وأضعافه ، لا يظهر في بحر الدولة والخلافة ، وكلٌّ يعمل على شاكلته ، ومقدار استطاعته . ومَن يبخلْ فانما يَبخَلُ عن نفسه ، ودينه وجنسه . والله المتفضل بالنصر والمنّة ، اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهم الجنّة . وقد شرع العبد الفقير الآن في إحضار مثل هذا العدد والعدّة ، وسيقدم باعانة الله في قليل من المدة . والله يعلم ما حصل لنا من نهاية الخجل ، لقلّة العدد وعدم إمكان العجل ، وبودّنا ان كانت هذه الفئة من الطلائع الاول ، لكن ليس للمخلوق تأثير في عمل . والمرجوُّ من الله ان يجعلهم ممن يشمله قوله : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ » ، ويؤيد مولانا السلطان بنصر عزيز من عنده ، ويجعل جند السماء من جنده . ودمتم ودامت لكم المعالي ، على ممر الايام والليالي ، والسلام » .

وكان ابتداء وصول هذا الجيش للقسطنطينية يوم الخميس الثاني والعشرين (1) من ذي الحجّة 1270 (14 سبتمبر 1854 م.) ، عند اشتداد الحرب .

وأكرمت الدولة العلية مَقْدَمهم ، واستضافهم السلطان مدة إقامتهم بدار خلافته ، ووقف بنفسه قدر ساعة وربع في حرّ الشمس من غير وقاية حتى مرّوا بين يديه . ومن العناية ان جعل منهم طائفة في عسّة اسكي(2) صراية ، وهو موضع عسة اسلامبول .

(1) هو 21 حسب التقويم .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ن : « سكي » .

وتتابع وصول بقية العسكر جمعا بعد جمع ، وعيّن لهم جهة توجّهوا اليها .

وكانت سيرتهم في الغربة مشكورة ، وحسناتهم مذكورة ، من الصبر والثبات والتجلّد على المشاقّ ، وطاعة الكبراء ، ونزاهة النفس والحياء ، والتحفظ من مواقع التهم ، والقيام بآداب الغربة ، والالتحام على عادة اهل تونس في غير وطنهم ، فان الغربة تعقد بين المتعاديين منهم إخاءً واتّصالاً ، وغير ذلك مما جلب لوطنهم جميل الذكر . ولاميرهم آثار جميلة معهم في هذه الوجهة .

ووقع هذا البعث موقعا حسنا عند السلطان ورجال دولته ، فبعث السلطان رسولاً مخصوصا من المقربين لديه اسمه مصطفى باشا بمكتوب بمعاني التقريب والمحبة ، بخط يد السلطان ، ونيشان افتخار ، وحكة مرصعة بثمين الاحجار ، ووسطاها الطُّغْرى السلطانية مطبوعة [في جرمها] (1) . وفروة كان يلبسها السلطان .

وكان وصوله أوائل محرم من سنة 1271 ، احدى وسبعين (أواخر سبتمبر 1854 م.) . واهتز الباي لقبول خط السلطان [وقبّله مرارا ووضعه على رأسه وتيمّن به] (2) في قصر الصالحية بالمحمدية بمحضر وزرائه وكبراء عسكره وأعيان دولته في يوم مشهود .

وبعد انفصال الموكب قال لي : « هذه ثمرة تحقير صنعنا الذي هو حقير بالنسبة للدولة العلية ، وعدم مكاتبة السلطان في شأنها » .

ولما عزم الرسول على الرجوع ، أمرني بكتب جوابه بما نصه :

« الابواب التي تعنو الوجوه لاعتابها ، وتتشرف الملوك بشعارها وكتابها ، ابواب الخلافة العلية المجيدية ، والسلطنة الخاقانية العثمانية ، المخدومة بالعمل والنّية ، والشمس عن مدح المادح غنية ، كيف وقد جعلها الله ظلاً ظليلاً في أرضه ، أقام بها شعائر فرضه، على يد من اختاره المجيد سبحانه لدينه وعياله ، وأرانا العناية به في حميد أعماله . اللهم أدم هذه الدولة للدول تاجا ، ونورا في الاسلام وهّاجا ، وحصنا للملة وسياجا .

اما بعد تقديم التحية المناسبة لعظمة الخلافة ، ذات الفضل والإنافة ، فقد ورد على هذا العبد الفقير من فضلها المشهور ، ومِنَنِها المعلّقة في النحور ، ما رأيته أعظم من

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

قدري ، بل لم يختلج في صدري ، ولا حدثني به فكري ، فحسبته فائدة عمري ، ونتيجة دهري ، وملاك سرّي وجهري ، وكان به على سلفي فخري ، وأنّى للعبد الفقير والتشرف بهذا الشرف من تلك اليد المباركة العلية ، والراحة المجيدية السلطانية ، أعلى الله يدها ، وكثر عددها ، ونصر جندها ، وأنار سعدها . ما هذه العناية التي تنطق بفضل مسديها وتُعرِب ، ما هذه الآية التي هي أعظم من المغرب (؟) ، ما هذا الالتفات والتقريب ، المالك لقلب الاريب ، ما ذا يقول العاجز ولا يكاد يبين ، في مكتوب خطته يُمنَى سلطان السلاطين ، وخاقان الخواقين ، وإمام الحرمين ، وقطب البرّين والبحرين ، وثالث العمرين ، وسر العباد الصالحين . تلقيته تلقي المريض للشفاء ، وصاحب العهد للوفاء ، وأخذت ببركة الخلافة كتابي بيميني ، ولولا التبرك أجللته عن اللمس ولو بعيني ، وضممته الى صدري ، وسَعِد به سَحْري ونَحْري ، وحَفِظتُه في مستقرِّ الإيمان ، وجعلته نُصْبَ الفكر والعيَان ، وحازت به دارُ خدمة الدولة أعظمَ شأن ، لا يقوم بشكره عمل ولا لسان . سيول فضل ملأت كلّ ثنية ، وبلّغت كلّ أمنية ، وأياد بالمعالي مَعْنية . وكم تعرّف الفقيرُ وسلفه من أنعم الخلافة بالانواع والاجناس ، واستضاء من عنايتها بنور يمشي به في الناس . فبينما العبد من نيشان الامتياز في بشرى ، اذ جاء الفضل المجيدي بمسرة هذا النيشان الكبرى ، الذي يبعث القلوب الاسلامية ، على مزيد الصّداقة والغَيْرة والحميّة ، ومعه المرصّع الذي أكملت العلامة العلية حُلاه ، وأظهرت للعيَان سرّه ومعناه ، فضل على فضل من موضعه ، ونور على نور من مطلعه ، ولم يرَ العاجز في خدمته نَبيهَ عَمَل ، يستحق به ما فوق الامل . عواطف الخلافة لهذا الإنعام هي الاهل ، والنظر لغير ذلك من الجهل . بلّغ هذا الكتابَ الكريم ، المتلقّى بالتعظيم والتكريم ، عَبْدُ النعمة السلطانية ، المتحليّ من التفاتها بأعظم مزية ، أميرُ الامراء مصطفى باشا ، بلّغنا الله وإياه من رضى الدولة ما نشاء ، وحسب العاجز أن يبتهل الى الكريم المتعال ، بالدعاء لهذا السيد المفضال . اللهم انا عَجَزْنا عن أداء ما يجب لهذا المنعم من الشكر الواجب شرعا وعقلاً ، فاجزه عنا بأفضل ما جازيت به خليفةً برا رحيما عن عبادك المؤمنين ، وبما أنت أهله يا أكرم الاكرمين ، وانظِمْه في سلك الخلفاء الراشدين ، وانصر بشوكته هذا الدين القويم المتين ، وأرِنا فيه مصداق : « فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » (1) . واجعل السلطنة فيه وفي

(1) س 61/1 14

آله الصالحين ، الى يوم الدين ، بحرمة خاتم المرسلين ، والسلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله من العاجز عن شكـر هذه النعم العظيمة ، والمنن الجسيمة ، الفقير الى ربه تعالى عبده المشير احمد باشا باي . وكُتِب في محرم سنة 1271 (اكتوبر 1854 م.) » .

ولم يزل الباي يبعث في العسكر والعُدَّة والدراهم في فابورات اشتراها في تلك المدة لهذا الغرض ، وهو مع ذلك ينتظر خبر الغرض الذي وجّه له أمير اللواء خير الدين .

وتثاقل خير الدين في ذلك لما رأى فيه من الضرر الفادح في الحال والمآل ، والباي يحرّضه ويُغلِظ له في القول ، وهو مع ذلك يتثاقل ، اعتمادا على عقل سيده .

⁂

وفي يوم الاحد الثاني والعشرين (1) من جمادى الثانية 1271 (11 مارس 1855 م.) ، عطف الباي على خديمه أبي الفلاح صالح بن عثمان شيبوب ، وسرّحه من سجنه ، ورد عليه وظائفه بعد ان انتزعها منه ، لسوء أدب صدر منه في الخدمة ، وأمور نَقَمها عليه ، فسجنه ببيته من صراية باردو نحو العام .

⁂

وفي شعبان السنة 1271 (افريل — ماي 1855 م.) بلغ لتونس ان حضرة سلطان الفرنسيس نبليون الثالث رُمِي بحبّة من رصاص ونجّاه الله منها ، وقتل الضارب بعد نحو العشرين يوما ، حتى قامت عليه الشهادة بالتواتر المستفيض [على عادتهم من التأني في الدماء] (2) ، فاقتضى نظرُه تهنئتَه ، فعيّن لذلك ابن عمه ابا عبد الله محمد المأمون باي وأخاه أبا عبد الله محمد الامين باي ، ووجّه معهما ثقته المقرّب لديه أمير الامراء أبا عبد الله محمد المرابط الغرياني ، والامير آلاي فليجي ابن الوزير جوزاب راف . وكاتب الوزير راف ، وكان بباريس هو وخير الدين ، ليكونا في خدمتهما .

وسافرا يوم الخميس غرة رمضان (3) السنة (17 ماي 1855 م.) ، على طريق جنوة [في فابور المتجر] (4) .

(1) هو 21 حسب التقويم
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) هو 29 شعبان حسب التقويم
(4) الزيادة عن ع و ق .

وبقـي الباي في قصره الجديد بحلق الوادي على فراش مرضه ، مشغول البال في النهار بأحوال العسكـر والتدبير في لوازمه ، وإرسال من يحضر منهم الى اسلامبول ، وفي الليـل يسمع كـتاب « الشفا في التعريف بحقوق المصطفى » ، على عادته في رمضان . ولم يزل هذا دأبه الى يوم الاربعاء الرابع عشر (1) من رمضان (30 ماي 1855 م.) ، أصبـح باكـما في لجج سكـرات الموت ، ووزراؤه وخواصّه محدقون به ، قلوبهم وجلة ودموعهم جـاريـة ، يفدونه بأنفسهم لو يقبل الفـداء . وبعثوا الامير أبا العباس أحمد زرُّوق الى ابن عمّه وولي عهده ، وهو في بستانه بالمرسى ، فأتى في الحين ومعه شقيقه صاحب الدولة الآن ، ابو عبد الله محمد الصادق باي ، وبقي معه إلى العصر ، فقال : « أرجع الى محلي لانـي ضعيف البدن بمرض » ، فطلب منه الوزراء ان يبقـي معهم أخاه ، ففعل .

وبقـي الباي على حاله يجود بنفسه الزكـية ، وأرجو انها رجعت الى ربها راضيـة مرضية ، نصفَ ليلة الخميس .

وتوفّاه الله في عبادة ، وأمارات سعادة ، متمسكـا بالعروة الوثقى ، والآخرة خير وأبقى، فدفع الوزراءُ خَتْمَه لابن عمّه الحاضر وبعثوا لولي العهد فأتى ، وبايعوه البيعة الخاصة .

وركـب الى باردو ، ومعه الوزير مصطفى صاحب الطابـع وأمير لواء العَسّة فرحات والعبد الفقير ، لقبول البيعة العامة .

وبقـي أخوه مع بعض رجال الدولة بحلق الوادي ، حتى حملوه فجر يوم الخميس ، في كـرُّوسة مغطّاة بالصنجق ، إلى داره بباردو .

ودفن صبيحة يوم الجمعة (15 رمضان — 1 جوان 1855 م.) بتربة آله ، على فخامة لم تعهد لمثله . وحضر جنازتَه العسكـر بالسلاح منكّسا .

ولما خرجوا بنعشه من باردو أطلق منه مدفع ، وبعد دقائق يطلق مدفع ، إلى أن رجعت الناس من الجنازة ، بعد ان وضعوا ذلك الجسد على التراب ، والآمال سراب ، وكـل مـا فوق التـراب تـراب ، والدنيا أحلام ، والعمـر منـام . قابلـه الله بفضله وإحسانـه ، وعفـوه وغفـرانـه .

---

(1) هـو 13 حسب التقـويم

حـــال هـذا البــــاى

كان كريما جوادا متلافا ، يعطي الجزيل ويحتقره ، عظيم النفس ، ما رأيته مسّ دينارا ولا درهما بيده ، الا في غرة محرم لما يتبدل طابع السكة لاجل تاريخ السنة . يُؤتَى اليه بجانب مضروب في اليوم فيحثو منه بيده حثو الثمرة ويعطي وزراءَه والحاضرين من يده إلى أيديهم ، جذبا لقلوبهم وربْطاً (1) وصلة به ، وهم يتيمّنون بذلك على عادة عامّة البلد في الثمار ، يشتهون أول مذاقها من يد كريم ، فيقيسون السكة الجديدة على بواكر الثمرات ، وما يبقى يأمر وزيره بتفريقه على من دون الحاضرين . وهو أول من ابتكر هذا الصنع في رأس كل عام . أعطى كثيرا من الرباع [والعقار] (2) لخاصّته وأتباعه الذين اوقفوا أعمارهم على خدمته ، وبذلوا نفوسهم في مرضاته . ويقول : « ان الملوك حسبهم الملك وهو الجباية ، والرباع للمالكين من الرعايا ، ومن عمرانها تنمو الجباية » .

ودفع في مرضه مالاً له بال [باعتبار ذلك الحال] (3) في دين على ابن عمّه وولي عهده ، وقال لوزيره ابي النخبة مصطفى خزنه دار : « لا يستقر لي قرار وابن عمي مدين للوافدين من التجار ، واذا لم يكن عندي مال حاضر (4) فبع ما تراه مما أملكه بما تسمع من الثمن ، فلا أتهنأ وابن عمّي مدين » .

[وكان] عالي الهمّة ، متعلق النفس بالمعالي تعلقا أفضى الى ضيق حال المملكة ، لانه طمع في الحاقها بالممالك المتسعة في القوة والحضارة والرفه في أسرع وقت .

ومن ايامه ابتدأ التأنق والسرف في الكراريس والابنية الضخمة وغير ذلك ممّا يدعوه ترف الحضارة ، والناس على دين اميرهم . وهو الذي جعل نواشن الافتخار على اختلاف مراتبها ، وقَبِلها منه الملوك وأعيان الوزراء والاكابر من غير المملكة . وبالغ في كثرة إعطائها للناس حتى قال له دقرنج (5) مترجم سلطان الفرنسيس : « ايها السيد ، ان النيشان لا يعمل السلطان ، والسلطان يعمل النيشان » . [وارتمض لسماعها] (6) .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وقوة وصلة به » .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « واذا لم يكن عندك ناض » .
(5) كذا في خ ، وفي ع : « داقرانج » ، وفي ق : « دقرانج » (Des Granges)
(6) الزيادة عن ع و ق .

وتغالى في هدايا الدولة العثمانية ، وقد كانت قبل من الموجود بلا تكلف ، واذا قيل له ان هذا وأضعافه لا يظهر في عظمة الدولة العلية ، يقول : « نعم ، لكن الهدايا على قدر مهديها ، ونرى لنفسي شيئا من المقدار » .

[وكان] متواضعا ، على علو منصبه وعزة نفسه ، ما شمّ رائحة كبر ولا إعجاب بفعله .

بلغه ان مولانا الشريف عبد الرحمان سلطان المغرب عزم على عمل عسكر نظامي في مملكته ، وتوقف في المعلمين . ولم يسوّغْ كونَهم من الافرنج ولا من الترك ، للجهل باللغة من الجانبين ، [واختلاف الطباع] ، فقال نبعث الى تونس ، ففرح [الباي] بذلك وانتظر . ولما طال أمر الانتظار ، تحقق ان الخبر غير صادق وقال : « تمنّيتُ لو وقع ذلك » ، فقيل له : « ومن الذي تبعثه ؟ » ، فقال بديهةً : « ابعث الامير آلاي حسن المقرون ، ومعه ضباط من أشراف مساكن الذين بالعسكر . [وعدّد افرادا منهم مثل أبي الحسن علي بن عمر المساكني الشريف ، وغيره من اهل الحاضرة] ، واكاتبه بأننا بعثنا لشريف سلطنتك أشرافَ عساكرنا ، وجرايتهم علينا ، ونكتفي من فضلك بالقبول » (1) .

و[كان] وفيَّ العهد وفاءً لم يعهد مثله ، وكاد ان يرى جميع الناس مثله في الوفاء ، وهو الذي غرّه في محمود بن عياد وغيره . ولعله كان يظن ان الوفاء مقدّم على حفظ النفس والمال . سليمَ الصدر من الحقد والحسد . ومن صغر الهمّة ، الحسدُ على النعمة . ما ظهر عليه انه تمنى زوال نعمة عن أحد ، بل يسوؤه زوالُها بسبب سماوي .

اذا قال له أحد (2) في معرض الإغراء : « إن فلانا طغى [عليّ] (3) بماله ، يقول له : « زاد الله في ماله » ، وربّما انتهره .

لم يتحقد على مذنب ، لا سيما إذا لامه أو عاقبه ، ويقول : « مثلي معكم كالوالد مع بنيه ، والشيخ مع تلاميذه ، يربّي المذنبَ على قدر ذنبه ويصفح ، فاذا حقّد يتحقد الابنُ وتحصل النّفْرة فتزول الفائدة » . بل ربّما استرضى من ربّاه ، على قدر حاله ، بأنواع من السياسة بديعة الاسلوب ، تسترقُّ [أحرار] (4) القلوب ، وتنسي بالإحسان ، جميع ما كان .

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) في ع و ق : « اذا قال له متظلم » .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) الزيادة عن ع و ق .

[وكـان] آية الله في الحلم والعفو بعد القدرة . اذا وقف الجانـي بين يديه ، يريه من بروق الرعب ما ييأس به من السلامة ، ثم ينجلي سحابه عن عفو أو خفيف عقوبة . يحنَ الى قبول الشَّفَـاعَـة في المذنبين [معه] ، وربما حضّ عليها وزيرَه [وابنَ تربيته] ، شديدُ الحزم ، ماضيَ العزم ، مُقيلاً للعثرة ، مقداما ، سريـع الفهم ، ثاقب الفـكـر ، ومـع ثقوب فـكـره لا يتظاهر بالردّ على من تقدَّمه ، ويحترم احكـامهم ، الا اذا وجب [في سياسته] نقضُها ، فانه يبالغ في سَتْر ذلك ، ويعجبه قول المأمون لابيه الرشيد : « لا تردّ على من قبلك فيردّ عليك مَن بعدك » ، ومصداقه ما تراه في أوامر قانون الزيت وأمثاله ، متغافلاً عن الزلّة ، نزيهَ السمع عن عورات الناس ومثالبهم ، لا سيما في خاصّته ورجال خدمته ، لا تحركـه الوشاية ، بل ربما يفعل ضدّ ما قصده الواشـي ، بعد عرضها عـلى ميزان عقله ، فصيحَ اللسان مع شـيء من الحُبْسة تعتريه وقت الغضب ، قويّ الجَنَان في مزاولة المعضلات ، شـكـورا لا تضيـع عنده مزايا الرجال . رقّى اعيانا من العرب (1) الى درجات ومناصب لم تخطر ببالهم ولا أمّلوها ، كـأبـي العباس صميدة بن علي بـن عزّوز بن عمارة بن دالية [عميد بيت بنـي رزق من دريد] ، و[وجيه العرب أبـي محمد] قظوم بن محمد سيد قومه الفراشيش [وبيت قِرَى الضيف] ، وأبـي الفلاح الـكـاهية صالح ابن محمد الـكـلاعـي ، وكـان يشركـهم احيانا في التدبير ، اغتباطا بهم ووثوقا بنصحهم ، وغيرهم من الرجال . محبّا لاهل المملـكـة لا سيما الحاضرة ، يحسن لمحسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، غاضّ الطرف عن مساوئهم ، معينا لهم على نوائب الدهر ، يعظم أهـل البيوت ويعرف منازلهم [سواء كـانوا بالحاضرة او بالخيام] . قال له بعض المتزلفين : « ان داركم أقدم دار بتونس » ، فقال له [بديهةً] : « ان دار الرصّاع ودار القَلْشانـي ودار القَصّار ودار العصفوري ودار الغَمّاد وديار الاندلس أقدم من دارنا ، وكـذلك بيـوت بعض الاكـابر من العربان » ، سمّى منهم بيت السبوعـي في جلاص وبيت جلال بن مسعـي في الهمّامة .

يرى كـلّ واحد من أبنـاء المملـكـة أهـلاً لـكـل خطّة ، وموضعـا للتقريب ، ولا يتعصب لصنف دون آخـر ، لمَا في ذلك من انحـلال العصبية وقطـع سلـكـها ، ويقول : « أصل الملك محبـة الرعيـة ، ولا محبة اذا وقـع الالتفـات لصنف دون بقية النـاس ، واذا

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « من عرب الخيام » .

انحلّت العصبية انحلت عُرى الملك والمملكة ، فالواجب الانصاف بين افراد الناس من غير التفات لنسب ولو هاشمي » ، ولذلك صاهر أبا عبد الله محمد المرابط الغرياني من أعيان اكابر القيروان على أخته ، وكان سلفه يصاهرون مواليَهم لاسباب رأوها ، وكان الباشا علي باي بن محمد يصاهر كتابه باللغة التركية ، ومن ذريتهم اولاد ابن الخوجة واولاد الستاري واولاد ابن الكاتب واولاد مهنيّة وغيرهم ، [لا مطمع في هذه المصاهرة لعربي] (1) .

ولما أمرني بالكتابة الى اهل المجلس الشرعي ليأتوا للعَقْد توقفت ، فقال لي : « ما سبب توقفك ؟ » ، فقلت له : « أحسب في أيام العِدّة هل انقضت » ، وكان ذلك بعد موت زوجها رمضان باش مملوك ، فقال لي : « ظننت بك غير هذا ، ومالي لا أزوج أختي من رجل من بيوت بلدها جبرا لخاطر أهل المملكة حتى يرى الكفءُ منهم انه اهل لهذا التقريب ؟ » ، وأمر شيخَ الإسلام أبا عبد الله محمد بيرم بانشاء خطبة ، [إظهارا للعناية ، وهو أول خطيب من الحنفية في مثل هذا العقد] (2) فأنشأ خطبته البليغة المشهورة ، ونص المقصود منها ، بعد حمد الله والثناء عليه وعلى رسوله وفضائل النكاح ، ما نصه : « هذا ولما كان النكاح بالمحل الذي ذكرناه ، والمقام الذي شرحناه ، بحيث تبين انه من الدين ، وسنن سيد المرسلين ، وامتنّ الله به في كتابه حيث قال : « كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » (3) ، وكان ذلك من معلومات مولانا نخبة الملوك الاكابر ، ورُقاة الاَسِرَّة والمنابر ، ووارث الملك كابرا عن كابر ، صاحبِ الصيت الشهير ، الملكِ الافخم المشير ، ذي القدر المُنيف ، الغنيّ باشتهار مآثره عن التعريف ، صدر منه أيده الله الامرَ المطاع ، الذي يسرع إليه الاتباع ، بايقاع هذا العَقْد السعيد ، المزدوج لكمال المناسبة بيوم العيد ، المشرقة في سماءِ المسرة زواهره ، المنظومة بلَبّة الايام جواهره ، بين عقيلة بيت الرئاسة ، المحرزة بأخُوّة مولانا الرتبةَ الشامخة من النفاسة ، رضيعة لِبَان المجد ، البالغة من الصون والعَفَاف إلى أبعد حد ، الحائزة بنسبها العريق في الملك الدرجة المعلومة ، الطاهرة الجليلة السيدة فَطّومة ، وحليفِ المناصحة لمولانا في خدمته ، المثابر على مرضاته ولو ببذل مهجته ، المتغذي لكمال قربه بلبان نعمته ، أحدِ كبراء

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) س 44/آ 54 .

الاجناد ، القائمين بالمحافظة على عمارة هذا النّاد ، الناصح الرئيس الضابط ، أبي عبد الله السيد محمد المرابط ، أمير الطائفة الخامسة من العسكر المحمّدي المنصور . وذلك لمّا رأى مولانا من تأهّل جيده لِلُبْس هاته القلادة ، وعدم قصوره عن أن يُعمل في المجد زناده ، لتدرّعه من عراقة الاصل بسلاح ، وتدرّجه من بيت عفّة وصلاح ، فشدّ ، أيده الله تعالى ، عضده رفعته بعلاقة المصاهرة ، ورصّع تاج عزّه بهذه الدّرة الفاخرة ، فتلقى النعمة قائما بشكرها ، وتلقف الامانة ملتزما برعْيها وبرّها ، باذلاً لها من المهْر المناسب ما أوجبه الدين القويم ، وتضمّن تفصيله غير هذا الرقيم . قرن الله بالسعادة أوّل أمرهما وآخره ، وعمّ ببلوغ المراد مستقبله وحاضره ، وهنأ مولانا الامير بما ملكه من هاته المملكة وخوّله ، وأضفى عليه لباس النعم وجلّله ، ووصل بالتوفيق والتسديد قوله وعمله ، وبلّغه من الدنيا والآخرة أمله ، كما اختاره لحراسة هذا القطر وأهّله . وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين » .

وخطب بها يوم العقد في موكب مشهود ، وبنى الزوج بزوجته في داره بالمحمدية كأمثاله ، [حتى كان ما كان ، مما يأتي من حوادث الزمان] (1) .

ومن إنصافه أن أمير لواء العسّة أبا المسرة فرحات ، أحدَ أعيان مماليكه أتاه يوما مخبرا بمملوك أتى هاربا يريد الخدمة بالصرايا ، فقال له : « يا بني ، ان القدر الموجود عندي فيه بركة ، وقد ربّيتهم كأولادي يعلمون طبعي وأعلم طباعهم ، وأي حاجة لي في آبق من سيده أدخله في مسكني ؟ ان شاء الخدمة فثبّته في العسكر » ، فقال له : « هو صغير » ، فقال له : « فليكن في المسيقا » ، فقال له : « انه مملوك ، فكيف يكون في المسيقا ؟ » ، فغضب وقال له : « ان الناس عندي سواء ، واذا أكبرتُ المملوكَ عن المسيقا يلزمني أن أكبر عنها أولادَ المملكة الذين أنا واحد منهم » ، وعدّد له أفرادا من أولاد المملكة بالمسيقا . ولما خرج ، قال للحاضرين وكنت معهم : « ان فرحات لم يشمّ رائحة السياسة ، ولو درى ما قال هذا الكلام في مجمع » ، فاعتذرنا عنه بكلام لم يَرُج في سمعه ولا قبِله بطبعه .

ومن أمثالها انه صلىّ الجمعة بجامع صفاقس لمّا توجّه للأعراض ، وكان الخطيبَ يومئذ الشيخ الفقيه الخيّر أبو عبد الله محمد الفراتسي ، فخطب بما أعدّ الله لامراء السوء

(1) الزيادة عن ع و ق .

الظالمين ، ونعى جور الجائرين . وكنت حذوه فرأى بوجهي أثر ذلك . ولما فرغ من صلاة السنة ناجاني بما لفظه : « لا يخلو ، اما ان أكون موفقا او غير موفق ، فان كنت موفقا فالحق ما قال ، لانه نقله عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإن كنت غير موفق فلا أجعل نفسي معنى للمقاصد ، بل اقول مثله ، تبعيدا للتهمة عن نفسي » . ولم يُظهِر للخطيب شيئا .

وقد فعل في المساغب مع سكان المملكة (1) من إعطاء القمح لضعفائهم مسويا في ذلك بين المسلمين واليهود والنصارى من رعايا الدول ، وكلمه في ذلك بعض خاصّته ، فقال : « ان المهاجرين الى مملكتنا ، وان انتفعت المملكة بهم وانتفعوا بها ، نراهم كالضيوف ، وللضيف حق » .

وفعل مع سكان الحاضرة ، زمنَ مرض الكوليرا ، ما تحدثت به الرفاق ، وطار خبره للآفاق ، من إعطاء المسكن والكسوة للعراة ، والاطباء والادوية والاقوات .

وأعظم مزاياه على أهل بيته وقوفه في استمرار عادات وطنه مع الدولة العلية ، والمخاطرة بنفسه دون خرق سياجها ، معترفا بطاعة الدولة العلية ، كما تقدم في مكاتيبه للدولة ، وإن ندم على ذلك في آخر أمره ، لما فيه من شبه انقسام في الاسلام يوجب وهنا . وصرح بندمه مرارا لوزرائه ، مشفقا من ذنبه ، تائبا الى ربه . وأنا أشهد له بذلك بين يدي الله ، وهو أعلم به منّا . وشاهد الحال يصدّق هذا المقال . ولله درُّ القائل :

إن القِداح اذا اجتمعن فرَامَها ... بالكسر ذو حَنَق وبطش أيِّدِ
عزّت فلم تُكسَر وإن هي بُدِّدَت ... فالوهن والتكسير للمتبدد

لكن التوبة مركّبة من الندم ، بشرط الإقلاع ، وهو بشهادة الله مما يستطاع .

وما خَفِي الرشدُ لكنّه ... أضلَّ الحلومَ اتّباعُ الهوى

وعبد الشهوة أذلُّ من عبد الرّقّ ، ومَن أضلُّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله ، ولله في خلقه أسرار ، وسبحان من أقام (2) العباد فيما أراد ، وهو اللطيف الخبير .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « مع سكان الحاضرة » .
(2) في خ و ع : « اقام العباد » ، وفي ق : « اوقع العباد » .

وكـان ، سامحه الله ، نزيـه النفس عن العقـوبة بالمـال ، وهو أول من أبطلهـا في المملكـة ، اذ كـانت بلا قانون يُعتمَد ، بل كـانت على قدر كسب المذنب ، وتـارة تستأصله . حتى ان مشايـخ توزر اذا تولى أحدهم يعتبر في مشارطة ولايته ما يقربه (1) من كسب المتولي قبله ، لانه يأخذه من محبسه ويحمله معه معتقلاً لبلده ، ويتنوع في تعذيبه ليُخرِج منه المال ، وربما مات بعضهم بالعذاب . ومن العجب ان المتولي على يقين بأنه آيل لمثل ذلك يومَ عَزْله ، فاقتلع جرثومة هذه المفسدة والمعرة وقبـح الاحدوثة ، وان كـان والده ازال منها شيئا .

ولا يقبل الهدية من العمال الا من دار بن عيّاد ، على كـره منه ، إرضاءً له ، ويقول : « ان هدية العُمّال فساد للأعمال » . ويقبل الخيل من أعيان العربان لما في طباعهم من الانفة لردّها ، وتطيّره بردّ ما سمّاه الله خيرا وعقده بنواصيها .

غضب مرة على أمير لواء عسكـر غار الملح ، أبـي الفلاح صالح بن عثمان شيبوب ، لاسباب ظهرت له ، فسجنه بمحله في صراية باردو ، ثم رأى بعضَ أهل الصرايا راكـبا على مركـوب له ، فاقشعرّ لذلك وقـال لوزيره مصطفى خزنه دار : « إنـي رأيت فلانـا راكـبا على مركـوب صالح » ، فقال له الوزير : « لا علم لي بذلك » ، فقال له : « سل عن ذلك ، فانـي سجنت الرجل عقوبةً ولم نرد أخذ شـيء من ماله » ، فقال له الـوزير : « إن كسبه بيد أتباعه ووكـلائه ، وقد أوصيتهم بالاحتفاظ عليه حتى تعفو عنه ان شاء الله ، وإنـي في إعانتهم على حفظه من غير أن نسأل عن مقداره » ، فسُرَّ بذلك ودعا له .

وكـان يقول : « ان العقوبة بالمال تقتضي ان الحاكم يحب وقوع المخالفة ، بل كـثرتها ، ليحصل المال المحبوب في طبـع البشر . والحاكم انما جعل وازعا لمنـع وقوع المخالفة » .

وعلى نفرته من عقوبة المال ، فهو شديد في أمر الجباية ، لا يرى فيها رفقا ولا يسمع فيها شـكـاية متظلم ، غاضّ الطرف عن العُمّال . جوابه للمتظلم : « اخلصْ فيما عليك مع اللزّام » . ومن يتظلم من سوء التقاضـي ، جوابه : « اللزّام يعرف » . حتى قال لي بعض الحذاق من الكـتاب : « لو قال المتظلم يا سيدي ان اللزّام عرف وعمل بمقتضى معرفته ، وانـي شاك من معرفته ، ما يـكـون جوابه ؟ » ، الى غير ذلك ممـا هذا سبيله .

---

(1) في ع و ق : « تقريب كسب من كان قبله » .

وهـي من أعظم ما عُدّ عليه ، وجلّ من لا عيب فيه ، حتى آل أمرها إلى غِنى امثـال بن عيّاد ، ونقصٍ واضح في عمران البلاد .

ومع ذلك لا يخلو عن إعمال الفكـر فيما لا يقتضي فساد السواد الاعظم [من أهل المملكـة] . قال له بعض وزرائه لما اشتد عسف اللزامة في شأن الجلد والدخان [وغيرهما](1) — وفرض خسارته — : « لو جمعت هذا المال وزدت عليه مثله ووزعته على سائر أهـل المملكـة ، كـان أنفع وأحسن » ، فقال له بديهة : « لا أعادي افريقية في يوم واحـد ، لان كـل من تطلبه يصير بطبعه عدوا ، وفي حالتنا الآن نوع تستّر لا يقتضـي اجتماع القلوب على النفرة في يوم واحد » .

ولاقى في ذلك مرارات المواعظ نطقا وكتابة من شيخنا العالم التقـي أبـي إسحـاق ابراهيم الرياحـي ، وكـان يخشى دعوته ويهابه ، ونقّص ذلك من شهواتـه بعض الشيء .

ومع ذلك كـان متثبّتا في الدماء ، يتحرج من قتل النفوس ولو قصاصا ، الا فيما يرجع للعصيان وتربية العسكر . حتى ان مستوجب القصاص يؤتى به آخرَ ديوان الحكم ، وتقرأ الحجة بمحضره جهرا ، ويأمر بنفوذ القصاص ، ويقوم فورا ويبقى يومَه مغموما [مـكروبا] (2) .

وفي أيام مرضه وهو بالصالحية ، استوجب قاتلو المهندس بنوا الفرنسيس القصاصَ ، وكـانوا أربعة ، فتحرج للباس ثيابه ، وأمر باحضار ديوان المحكمة ، فقلت له : « الظاهر ان هذا تعب زائـد [وانت بحال مرض] ، فـان القـاتلين يؤتى بهم الى بيتـك الذي أنت فيه ، وتأمر بما تراه » ، فتعجب من مقالتي وقال لي : « انها نفس انسانية يراد إتلافها ، ولا نقتل بنـي آدم في المقاصر من غير ديوان ، تعظيما لحرمة النفس ، أتراها دجاجة ايها الشيـخ ؟ » ، فقلت له : « ان النفس لما قتلت نفسا أخرى ارتفعت عنها الحرمة وصارت كـالدجاجة » ، فقال لي : « هذا معتبر في القدوم على القصاص منها ، اما الاعتبار الدنيوي فلا بد من ملاحظته » [وكـان مِحْجَاجا] (3) ، فخرج ، ولم يحضر باش حانبة الترك . ولمـا نادى رئيس البوابين باش حانبة على العادة ، تقدم أحد الحوانب ثم تـأخر ، ظنّا ان المقصود ذات باش حانبة ، فأمره بالتقدم وأولاه باش حانبة في اليوم .

(1) الـزيـادة عـن ع و ق .
(2) الـزيـادة عـن ع و ق .
(3) الـزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وكـذلك فعل في قصاص آخر وهو [على مرضه] (1) بالصالحية في المحمدية .

يحمل الكَلّ ، ويعين على نوائب الدهر ، ويرحم عزيز القوم . استأذنه ابو عبد الله محمد قرمانلي ، من بيت قرمانلي ملوك طـرابلس ، وهو بمالطـة في القـدوم الى تونس [للسكـنى بها ليدفن في مقابر المسلمين] ، فأذن له ، وقدم بابنيه أبـي محمد حسن وأبـي الثناء محمود ، وعظّم مَقْدَمه وأجرى عليه جراية كـافية . ولما توفي دفنه بتربة الملوك من بنـي أبـي حفص بسيدي محرز . ولم تزل الجراية جارية على بنيه ، مع ما لهم من الإجلال والاحترام [المناسب لمقـامهم] (2) .

وكـذلك فعل مع أبـي الربيـع سليمان بن جلاّب ، عزيز قومه في تقرت من بـلاد الصحراء ، ويسمى بالباي ، وبيتهم من بقايا بنـي مرين ملوك المغرب ، كما ذلك في تاريـخ الوزير أبـي محمد حمودة بن عبد العزيز . وأجرى له جراية ، مع معاملته بما ينبغـي لمقامه ، والوفاء له بما فعل جدُّه مع جده ايام غربته . وهذا شأنه مع من كـبـا به جواده ، وتولى عنه اسعاده . وكـثير منهم في الحاضرة ، كـالتاجر أبـي عبد الله محمـد هارون الاندلسـي ، وأبـي عبد الله محمد البامري وغيرهما ممـا يطول تعدادهم .

[وكـان] متألفا لرجال دولته ، آخذا بمجامع قلوبهم ، يراهم كجوارح بدنه ، يسرُّه ما يسرهم ويسوؤه ما يسوؤهم . يعود مرضاهم بنفسه او يبعث أحدا من خاصّته ، ويأتـي منازلهم لا سيما في رمضان ، ويقترح فيها ما يشتهـي من الوان الطعام ، تأنيسا لهم . ويهش لـكـل واحد على قدر منزلته ، مانحا لهم حق التساوي في أصل عنايته ومحبته ، وان اختلفت كميتها (3) باختلاف الاوصاف ، بحيث لا تجد في رجال دولته من يرى نفسه مبعدا او مكـروها . يتكـلم مع بِطانته تـكـلّمَ الاكـفـاء ، ويباسطهم ويمازحهم ، فهو كما قـال الشاعر :

ازال حجـابه عنّـي ، وعينـي تـراه مـن المهـابـة في حجـاب
وقـرّبنـي تفضّلُـه ، ولكـن بعـدتُ مهـابـةً عنـد اقتـراب

(1) الـزيـادة عـن ع و ق .
(2) الـزيـادة فى الفقرة عن ع و ق .
(3) فى ع و ق : « مقاديرها » .

ويتحمل مخاشنتهم له في النصيحة ، وان لم يعمل بها ، لا سيما وزير الحرب أبو النخبة مصطفى باش آغة ، لانه جِدِّي الطبع . وهو في قلوبهم أهيب من أسد ، وفي أعينهم أعظم من أُحُد ، مع حبٍّ امتزج بالارواح ، امتزاج الماء بالراح ، لا تحرك رواسيَه عواصفُ الرياح . ويقول : « ان الله لما توفي أبي عوضني من سميّه أبا وهو مصطفى صاحب الطابع ، وأخا هو مصطفى وزير الحرب ، وابنا هو مصطفى خزنه دار . والوزراء أعضائي ، والإنسان لا يتألم من أبيه وأخيه وابنه وأعضائه ، والعامة تقول : من تضربه يده لا يتوجع ، لا سيما وقبول النصيحة أو تركها بيدي » .

ولما توفيت والدته اراد التصدق عليها بتسريح [بعض] (1) المسجونين في الديون ، فأمر أبا محمد خير الدين أمير لواء الخيالة ان يحصيهم لذلك ، فأحصاهم وقال له : « ان جميع المسجونين او اكثرهم في سجن العمال واللّزامة ، وهذا زمامهم » ، فارتمض لذلك وقال له : « خذ من الوزير ما عليهم وادفعه عنهم » ، مع انه انما أمره باحصاء الدين لا بسببه ، ولم يظهر له تغيرا من ذلك ، لانه كان يستنجبه ويقربه .

وكذلك لما هرب ابن عيّاد وبقيت خططه شاغرة . قال لوزيره خزنه دار : « تكلّمْ مع خير الدين يباشر أحوال رابطة الطعام (2) » . ولما كلّمه ، امتنع وقال : « إن اردتم مني ان أباشر مثل ابن عياد فطبعي يمنعني من ذلك ، وما بالذات لا يتخلف . وإن أردتم أن أباشر بما يقتضيه الحق والعقل ، ربما ينقص من دخلها نقص فادح يشين عرضي » . ولما بلغ ذلك للباي قال : « صدَقَني » . ولم يتغير ولا نقصت منزلتُه عنده .

وكذلك عرض ولاية الدخان على أبي عبد الله محمّد [خزنه دار] (3) عامل سوسة ، فامتنع مدّعيا بأن أوقاته مستغرقة في خدمة أعماله ، ولا يمكن ان يقبل ذلك الا بنقص من خططه . ولما بلغه ذلك ضحك وقال : « ليس هذا عذره ، وانما عذره هو عذر خير الدين ، لكنه غطّاه بسياسة » . ولم يتغير ولا نقّص من تقريبه ، بل زاد في حظوته .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) هي ادارة مطامير خزن الحبوب للدولة ، وهي خارج باب سعدون ، بقي اسمها الى الآن ، حيث المستشفى المعروف بهذا الاسم اليوم .

(3) الزيادة عن ع و ق .

وخواصّه يتحققون منه هذا الخلق الكريم [من محبة شيعته وذويه] (1) ، حتى ان صميدة بن علي بن عَزّوز لما توفي بتونس ، أمر الوزير بكتمان ذلك عن الباي ، خوفا عليه من انفعال مزاجه بالحزن لفقده ، وهو في فراش مرض .

ومن تألّفه لرجال دولته انه لا يَحجُب والدته عنهم ، ويقول لهم : « هي أمي وأمكم » . ويوم العيد يأتي بهم اليها ويقول لها : « أولادك أتوك ، وأنا اكبرهم ، للهناء بالعيد » ، فتدعو لهم وله . ومَرِضت فلزمها تبديلُ الهواء ، واشتهت أن تكون بحلق الوادي ، فقال لها بديهةً : « تكونين في دار ابنك وزير البحر محمود بن محمد كاهية ، وديارهم انما هي بيوت من داري » ، فحملها الى داره وبقيت مدة هي أم الدار وآله كبناتها وخدمها . وتكرر نزولها بدار الكاهية .

ولما جذب للبحر الجفن الذي أنشأه بحلق الوادي أيام مرضه كما تقدم ، اقترحت عليه أخته الصغرى ، زوج الوزير أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، أن تشاهد ذلك [فأسعفها لانه يصطفيها] . وكانت والدته بحلق الوادي في دار الوزير المذكور ، فأتى بها اليها وباتت ليالي . وهو أول ملك باتت أمه وأخته في دار وزير غير مَحْرَم ، [الا انه لم يدخل الدار] (2) .

وفي أيامه استعفى وزيره في الامور الخارجية ، وهو خادم ابيه ، وعمُّه من الرَّضَاع ، الكنت جوزاب راف ، لمكالمة وقعت بينه وبين قنصل الدولة الفرنساوية الكولير دي لقو ، فظهر له ان يسلّم في الخدمة ويسافر لباريس لمحاكمة القنصل ، فاستعظم طلب الإعفاء وكاد ان يعده ذنبا ، فقلت له : « يا سيدي ، ان الامور لا تتوقف على أحد » ، فقال لي : « أنت لم تصل لهذه المنزلة عندي إلا بعد سنين ، فاذا فقدتك لا بدّ من سنين يحصل فيها مثلك » ، فقلت له : « لم تخل المملكة من رجال تتقوم بهم خُطَطها » ، فقال : « نعم ، ولكن مرادي الامتزاج ، وهو لا يحصل دَفْعةً ، وأنا رجل في أسْر مألوفه ، وقد ألِفْتكم وألفتموني . نسأل الله ان لا يفرق جَمْعَنا » . وكاتب الوزير المستعفيَ بما معناه [لانه لم يَحضُرني لفظه] : « أنت حرٌّ تفعل في نفسك ما تراه ، ولست أراك خديما حتى تستعفي ، إنما أنت شيء ورثتُه من آبائي ورضيع أبي ،

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وأنت تُقرُّ بذلك ، ولك عليَّ بهذا حق لا أستطيع جَحْده . فعليك أن لا تستعفي ، وعلي ان لا أعفيك » . إلى غير ذلك مما ألجأ الوزير إلى ان جاء متنصّلاً من فعلته ، قائلا : « إن مثلك لا يستعفي العاقل من خدمته ، وأتحمل لاجلك ما عظم علي احتماله ، ولو نزعت مني خطتك ما فارقت خدمتك » . إلى غير ذلك مما خصه الله به من مغناطيس قلوب الرجال ، فهو مِصْداق قول القائل :

عليك محبّاتُ القلوب تهافتت كما حول بيت الله يجتمع السَّفْرُ
وما حبّهم كان اختيارا وإنما لحبّك مَن يُبصِرْ سجاياك يُضْطَرُّ

وله في تعظيم الجناب النبوي والادب معه آثار مشهورة . مدحه شاعر ، وهو احمد فارس (1) صاحب الجوائب ، بقصيدة عارض بها قصيدة كعب بن زهير في المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهي « بانت سعاد » المشهورة . فلما قرأت مطلعها بين يديه ، اقشعرَّ وقال لي : « هذه معارضة لبانت سعاد ؟ » فقلت له : « نعم » ، فأمر للشاعر بجائزة سنية ، وقال لي : « مزّقها الآن » ، فقلت له : « بعد قراءتها نمزّقها » ، فحلف بالله « لا نسمعها ولا يسمعها أحد من خاصّتي » . وبقي يستعيذ بالله أن يعارض مدح المصطفى بمدحه ، مع انه لا محظور في ذلك . لكن الاعمال بالنيات ، ونية المؤمن خير من عمله .

ومن آثار ذلك محبته في آل البيت النبوي وتعظيمهم والتشيع لهم ببِرِّه وصِلاته . وكان يسمّي ما يعطيه لهم « هدية » ، ولا ينطق بلفظ الإحسان على عادة بلدنا في تسمية جوائز الملوك إحسانا أو صدقة ، تفرقةً بينهم وبين غيرهم ، ويقول : « قبولُهم مني ، إحسانٌ لي » .

وقال له بعض الوشاة : « ان الشيخ محمود محسن لا يحبّك ، ويذكرك بسوء ، ويحب ابن عمك » ، فقال : « ما أسعدني لو أحبني ، وان كان لا يحبني فماذا أصنع مع ابن علي وفاطمة رضي الله عنهما ؟ » . وزاد بعد ذلك في مبرته وإكرامه . وقلت له : « أترى ان ابلغ للشيخ [من تلقاء نفسي] (2) ما بلغك ؟ » ، فقال لي : « والله ان الخبر لم يصحَّ عندي ، ولا شك ان سماعه يسوؤه ، ولا أرخص لك في إدخال إساءة على شريف » .

(1) الشدياق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

وكـنت في بعض الاحيان اقول له : « ان غلوّ سيدنا في السادة الاشراف غُلُـوُّ شيعة » ، فيقول لي بديهةً : « لا اعتقد خـلاف مذهب أهل السنـة في تقديـم الخلفـاء الراشدين على حسب تقدمهم ، ولو كـنتُ حيًّا يوم الجمل ويوم صفّين ، أقاتل مع سيدنا علي ، محبة في آل بيت الرسول ، وان آخذنـي ربـي بذلك فأرجو رحمته على ما خلقه فيَّ ».

وكـان محبّـا للعلم ، معظما للعلماء ، عارفا بمنازلهم (1) ، ذا وَلُوع بفن التاريـخ . قرأت بين يديه كـتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة مرارا متعددة ، وكـتاب المنتظم [في اخبار الرشيد والامين والمأمون والمعتصم] (2) ، وغيرهما من كـتب التاريـخ الاسلامية ، واذا ذكـرت له مقدمة ابن خلدون ، يقول لي : « نعرفها » ، ويستشهد منها بما يـوافـق غرضه . وتاريـخ نبليون الاول المعروف (3) .

وكـان يتأسف على ضياع شبابه في غير طلب العلم ، وهو بشهادة الله موضع أسف لمن علم فطرته السليمة وفكـره الوقّاد . ولذلك اجتهد مع ابناء تربيته ومماليكـه بالصرايا في تعليم القرآن والكـتابة ، وضمَّ اليهم شيـخَ تجويد . وضم الى ابن تربيته ووزيره أبـي النخبة مصطفى خزنه دار ، الشيـخَ العالم أبا زيد عبد الرحمان الكـامل ، والفقيه ابا النخبة الشيـخ مصطفى بوغازلي الحنفـي ، فأخذ عنهما ما حصّل به مشاركـةً . ولذلك تـرى غالب ممـاليكـه فصحاء يجيدون القرآن (4) ويحسنون الكـتابة .

[وكـان] معتقدا في الصالحين ، يحبُّ مجالسة أهل السلوك منهم ، كـالشيـخ أبي النخبة مصطفى بن عزّوز ، ويتباعد من المجاذيب مع تعظيمهم واعتقادهم ، ويشتهـي معرفة الحدثان منهم ومن غيرهم . وكـثر ذلك أيامَ مرضه حتى آل به الحال الى استـكشاف عاقبته من العزامين على اختلاف أصنافهم ولو من غير أهل الملّة . وفي المثل : « الغريق يتمسك بشعرة » .

وكـان وزيره خزنه دار يُجِلُّ مقامَ سيده عن ذلك ، ويباشر هؤلاء بنفسه ، راضيا بنسبته إليه دون سيده ، وان كـانت حالة سيده تنافي ذلك [التستّر] (5) ، لانه سويٌّ

---

(1) في ع و ق : « عارفا بما لهم من الفضل » .
(2) الـزيـادة عن ع و ق .
(3) « المعروف » في خ ، و « المعـرف » في ع و ق .
(4) كذا في خ ، وفي ع : « يجيدون القراءة » وفي ق : « يجودون القرآن » .
(5) الـزيـادة عـن ع و ق .

الظاهر والباطن ، صادق اللهجة ، مترفع عن ضده ، ويقول : « لو كان الكذب مباحا ما حَسُنَ من مثلي ، لان سببه في الغالب الخوف » .

[وكان] شديدا في مواضع الشدة ، هيّنا في مواضع اللين ، له شيء من الاوْبة الى الله عند سماع الموعظة ولو من غير أهلها . دخلتُ اليه في ليلة من رمضان ، قبيل وفاته ، لقراءة « الشفاء » ، فوجدته على فراشه واجما مطرقا مفكرا حزينا ، ووزيره جالس بين يديه ، فقلت له : « لا بأس عليك ، مالي أراك مطرقا ؟ » ، فقال : « لما أنا فيه ، انا الآن نصف إنسان ، طريح فراش ، أتوقع ان أكون كَلاًّ على من يحبّني ، ومحمود بن عياد في فرانسا يخاصمني على مالي بمالي » ، فأردتُ تقوية قلبه وقلت له ، على غير سنن الادب الواجب على مثلي لمثله : « أي شيء جرى لك ؟ » ، فأجابني بصوت شجيٍّ : « أتحب لي أكثر من هذا ؟ » ، فقلت له : « اشكر الله يا سيدي ، ففي الحديث الشريف : ما من مصيبة الا وعند الله أعظم منها ، وأعظم من فقد اليد والرجل ، فقد العقل ، وفقد اللسان ، وتفرق الخاصة ، وانحلال الحامية ، وثورة العامة ، وصولة البغاة ، وانقطاع الجباية ، وغلبة الدين ، وقهر الرجال ، الى غير ذلك مما يهوّن هذا الحال ، وأنت على ما أنت تبعث في الجيوش من المغرب الى المشرق ، والكلمة مسموعة ، والامر مطاع ، والرعية في حزن لمرضك ، والدولة دولة ، وقد ابقى الله عليك نعمة العقل . وان هروب ابن عيّاد لم تهرب به المملكة . ومتى احتاجت الناس لقوّة بدنك وسرعة مشيك ؟ فان تيمورلنك أخذ الاقطار وهو نصف إنسان محمول على أعناق الرجال في الحروب . فالواجب عليك يا سيدي شكر الله تعالى القادر القوي ، فاني أخشى اذا لم تقيّد نعمته بالشكر ، يرسل علينا نقمة أشدّ مما نحن فيه ، والله على كل شيء قدير » ، فبكى ، رحمه الله ، واسترجع ، وقال : « يا ربي إني تائب اليك ، راضٍ بما حكمت به عليّ ، نشكرك على نعمتك » . ثم أمرني بالقراءة ، ولم يزل نادما مستغفرا من مقالته .

والحاصل من ترجمة هذا الامير انه ذو همّة عالية ، استصغر بها ما أقامه الله فيه ، فحمّل هذه الإيالة ، على ضعف حالها ، وضيق مجالها ، ما لا طاقة لها به من التقدم في ترف الحضارة ، والاستكثار من الجند ، والإفراط في تكثير قادتهم ، وغالبهم أسماء بلا مسميات ، مع التفنن في الكرم الحاتمي ، فجاد وما لديه قليل .

وأتعبُ خلق الله من زاد همُّه وقصّر عمّا تشتهي النفسُ وجدُه

إلى غير ذلك من مقتضيات علو النفس [والإمْرة] (1) المطلقة ، حتى تجاوز الحدود ، وهو نقصان من المحدود ، والتقدم للغاية تأخر عنها ، والزيادة على الكفاية نقصان منها ، ولا يخلو الانسان من ودود يمدح ، وعدوٍّ يقدح .

ومَن ذا الذي تُرضى سجاياه كلُّها كفى المرءَ نبلاً أن تعدَّ معائبه

ومَن ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط ؟

واذا تتبع المنصف ما له وما عليه ، يجد سيئاته مغمورة في حسناته ، « والحسنات يذهبن السيّئات » . وأرجو الله ان يكون من الذين « خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحا وآخَرَ سَيِّئا » . وناهيك انه لم يترك على البلاد تِباعةً . وبعض الشر أهون من بعض . ومن استبطنه وخالطه ، يعلم ذلك علما يقينيّا . ولا أزكّيه ، وقد ذهب الى ربه العالم بما أودَع فيه . وهذا بموازنته مع مَن تقدمه من غالب آل بيته ، وأمثاله من ذوي الملك المطلق ، والا فالكمال وراء ذلك كله لله .

ومن مآثره قصر باردو وقشلته ، وابنية المحمدية والصالحية بها ، [وليتها لم تكن] ، وقصر حلق الوادي وجامعه ، وقشلة الطبّجيّة ، وقشلة الخيّالة [بمنّوبة] ، وقشلة غار الملح وتوابعها من المباني ، وزاوية أبي مدين الغوث ، وزاوية على ضريح المجذوب الحاج فرج امام سيدي عبد الله الشريف ، وزاوية لمقابر الاشراف قرب دار المملكة ببطحاء القصبة ، وأعجوبة دار الملف [على وادي مجردة] (2) ، وغير ذلك .

وهو الذي رتب وجقا من الصبايحية بسوسة والمنستير ، ووجقا بقابس قاعدة وطن الاعراض ، ووجقا بالجريد ، وكلها محتاج اليها فيما يراد منها . وغير ذلك من المآثر الواضح في الجامع الاعظم خبرها ، وعلى العلم والعلماء والاشراف أثرها .

واتفق ليلة الاربعاء الخامس عشر من رمضان ان كان درس الشفاء فصل « ومن توقيره صلى الله عليه وسلم برُّ آله وذريته » . واستزاد القراءة في تلك الليلة ، ومهما أردت القطع يشير علي بالزيادة ، [تلذذا بفضائل آل رسول الله صلى الله عليه وسلم] (3) ، الى أن ادرك منا التعب .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

واصبح نهار الاربعاء باكما يعالج سكرات الموت ، ووزراؤه وخواصه محدقون به ، قلوبهم وجلة ودموعهم جارية ، يفدونه بأنفسهم لو يقبل الفداء ، إلى آخر ما قدر له من انفاس المدى (1) .

وبعثوا [الاميرَ] أبا العباس أحمد زَرُّوق الى ابن عمه وولي عهده ، وهو في بستانه بالمرسى ، فأتى في الحين ، ومعه شقيقه صاحب الدولة الآن ابو عبد الله محمد الصادق باي ، وبقي الى العصر ، ثم قال : أرجِعُ لمحلي لاني ضعيف البدن بمرض ، فطلب منه الوزراء ان يُبقِيَ معهم أخاه ، ففعل . وبقي الباي على حاله يجود بنفسه الزكية وهو في السكرات ، الى آخر ما قُدِّر له من انفاس الحياة ، نصفَ ليل الخميس . وتوفاه الله في عبادة ، وأمارات سعادة ، متمسكا بالعروة الوثقى ، والآخرة خير وأبقى . فدفع الوزراء خَتْمه لابن عمه الحاضر ، وبعثوا لولي العهد فأتى ، وبايعوه البيعة الخاصة . وركب من فوره الى باردو ، ومعه الوزير [مصطفى] (2) صاحب الطابع ، وأمير لواء العسّة فرحات ، والعبد الحقير . وبقي أخوه مع الوزراء ورجال الدولة في حلق الوادي ، حتى حملوا الميت فجر يوم الخميس ، في كروسة مغطاة بالصنجق ، الى داره بباردو . ودفن صبيحةَ يوم الجمعة ، حذو أبيه بتربة آله ، على فخامة لم تعهد لمثله . وحضر جنازته العسكر بالسلاح منكسا . ولما خرجوا بنعشه من باردو أطلق منه مدفع ، وبعد دقائق أطلق منه مدفع آخر . وهكذا الى ان رجعت الناس من الجنازة ، بعد ان وضعوا ذلك الجسد على التراب ، والآمال سراب ، وكل ما فوق التراب تراب ، والدنيا أحلام ، والعز منام .

قابله الله بفضله وإحسانه ، وعفوه وغفرانه ، وهو الغفور الرحيم .

انتهى الجزء الثاني .

---

(1) الى هنا ينتهى خ ، والفقرات الاتية من ع و ق .

(2) الزيادة فى الفقرة عن ع .

الباب السابع

في دولة

المشير الباشا أبي عبد الله محمد باي

ابن حسين باي بن محمود باي بن محمد باي بن حسين باي بن علي

مولده في شعبان من سنة 1226 ، ست وعشرين ومائتين والف (اوت — سبتمبر 1811 م.) ، وأمه حفيدة عثمان داي الشهير الذكـر .

قرأ شيئا من القرآن في اوائل سنه على الشيـخ المجود أبي العباس احمد السَّنَّان ثم على الفقيه أبـي محمد حسن التطاونـي .

وتدرب في الفروسية والرماية والنسج على منوال الشهامة .

ولم يعرِّج به والده على شـيء من طرق التهذيب وأخلاق الـكمال (1) التـي يجب ان يتعلمها مثله من ابناء الملوك ، فـكان على الفطرة ، الى الامّية أقرب .

وسافر بالمحالّ في حياة عمّه الباشا أبـي النخبة مصطفى باي ، وهو الذي رقّاه عن حالة الطفل [كما تقدم في الباب الخامس] (2) .

وسافر في دولة ابن عمّه المشير ابـي العباس أحمد باي ، مرضـيّ السيرة ، محمـود السريرة . واستعفى من السفر ، كما تقدم في الباب السادس .

ولما توفي ابن عمّه المشيـر أبو العبـاس أحمد بـاي ليلة الخميس السادس عشر من رمضان سنة 1271 ، إحدى وسبعين ، كمـا تقـدم ، استقدمـه الـوزراء ورجال الدولة من بستانه بالمرسى ، فقدم لحلق الوادي وقت السحر .

ولما دخل البيت ورأى ابن عمه طريحا على الارض ، وعند رأسه شيخنا العالم الفاضل الصالح ابو عبد الله محمد بن ملوكـة ، بـكـى واسترجع وقال للحاضرين : « كـأنـي ملقّـى على الارض كـأخـي هذا » .

ويقال انه نَـمَـى إليه من بعض من له أثارة من علم الحدثان ان مدة ولايته قصيـرة كجده الاعلى سَـمِـيِّـه .

---

(1) كـذا في خ ، وفي ع و ق : « وأخلاق السياسة » .

(2) الـزيـادة عن ع و ق (انظر ص 197 ج 3) .

ولما بايعه الحاضرون البيعة الخاصّة ، قال لهم : « ان بيتنا لا يصلح إلا بكم ، كما انكم لا تصلحون الا ببيتنا » . وفي الحين كاتب الداي وأهلَ المجلس الشرعي وأمراء العساكر ومشايخ الحاضرة بوفاة ابن عمه وقيامه مقامه .

ودفع له أخوه الحاضرُ على الوفاة صاحبُ الدولة الآن خواتمَ الميت المؤمّنة عنده بحضرة الجماعة . ولما أخذها ، أمره أن يبقى مع الوزراء ليأتي بالميت . ونهض الى باردو [فوصله عند الشروق] (1) .

ولما دخل البيت بباردو بكى ، ولم يجلس في موضع ابن عمه ، فتقدم له بعض الحاضرين وقال له : « وددنا ان صاحب هذا الموضع لم يمت ، ولما اصبنا بموته لا تطيب أنفسنا الا بجلوسك في موضعه » ، وأخذ بيده وأجلسه في الموضع .

ولما تجلّى النهار ، بلغ الخبر للحاضرة ففزع مَن بلغه الخبر الى البيعة .

ومن الغد جاء أهل الحاضرة [على العادة] (2) للبيعة العامّة .

وقدّم أخاه أبا عبد الله محمد الصادق باي للسفر بالمحالّ ، وألبسه نيشانه . وسرّح أبا عبد الله محمد بن عثمان باي من محبسه بالدار الكبيرة في باردو .

وكاتب جهات المملكة بوفاة ابن عمّه وولايته ، فتسابقت البلدان والعروش للبيعة ، طائعين مستبشرين ، على العادة مع كل جديد . وأقرّ الوزراء ورجال الدولة على مراتبهم .

وقال له الوزير أبو النخبة مصطفى خزنه دار : « ان شرفي هو خدمة بيتكم ، لانني نشأت في داركم تحت ظلال نعمتكم ، فنطلب من فضلك ان تحاسبني على جميع ما جالت فيه يدي » ، فقال له : « أنت ثقة مصدّق أمين » ، فألحّ في طلب ذلك ، فأمر أبا عبد الله محمد عاملَ الساحل بمباشرة حسابه ، فأحضر كُتّابَه وقُبّاضَه ودفاتره واطلع على المقبوض والمصروف . ولما تمّ تلخيص الحساب ، جاء به الوزير مع [أعيان] الدفاتر الى الباي ، وقال له ، بمحضر الوزراء ورجال الدولة : « هذا حسابي ، قبضت في مدة خدمتي ما هو مرقوم في هذا التلخيص ، وصرفت في المدة ما هو مرقوم ايضا ، وكان المصروف أكثر ، وأنا غير طالب له ولا دفعته من مالي ، وليس على دولتك المباركة

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

دَين » ، فقال له بعض الحاضرين من الوزراء بديهةً من غير روية : « أنا أول قادح في هذا الحساب ، ومن أين جاءت هذه الزيادة ؟ » ، فأجابه الوزير بلين وسياسة : « لك ان تنظر في فصول القبض هل نقص منها شيء ، وفي فصول الدفع هل زاد فيها شيء ، وما وراء ذلك [لا تسألني عن] (1) نتيجة أصابعي ، ولي ان أطلبه لو استحللت الخيانة . ولهذا أتيت بالدفاتر ليطلع عليها كل من يريد الانتقاد » ، فخجل القادح ، واستصوب الحاضرون الجواب ، لان وراءه العيان . وقال الباي ، منكرا على القائل : « إنا نعلم ذلك » . وأخذ الازمّة وصحّحها بخطه في ذلك الجمع ، بعد أن اطلع على تلخيص جوامعها ، فقال له بعد ذلك : « الآن أجدِّد خدمتي لسيادتكم على اساس صحيح » ، فدعا له الباي .

وبعد ذلك جعل [هذا الباي] (2) مناطَ نظره التخفيفَ من الجباية ، والضربَ على ايدي العمّال . وذلك ، بشهادة الله ، هو الاصل الاصيل في سياسة الممالك ، شرعا وعقلا وطبعا ، لا سيما في هذه الإيالة المسكينة .

وأسقطَ من الجباية المرتبة على بيع الحيوانات والانعام اكثر من نصفها ، وقد كانت ربع الثمن .

وأبطل حرسا بأبواب البلاد يفتشون الداخل بها خشيةَ ان يكون عنده الدخان او غيره من الاشياء ، الى غير ذلك مما كان ينقمه على ابن عمّه لِمَا يسمع فيه انكار الناس . وتجاهر بذلك تجاهرَ القادر على تغيير المنكر .

وكاتبه ابو محمد خير الدين [من باريس] في شأن اقتراض المال المأذون فيه من ابن عمه ، فكتب له بأن لا يفعل ، وقال لي اكتب له : « صَبرُنا على أنفسنا خير من صبر الناس علينا » ، بهذا اللفظ . وشكر خيرَ الدين في عدم الاستعجال ، [والعجلة والندامة فرسَا رِهانٍ] (3) ، وأنقذ بها البلاد من هاوية ، وان أوقعها في مثلها غلطا ، كما سيأتي ان شاء الله تعالى . ومن صبا الى الشهوات ، اعقبته البليات .

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ورأى هذا الباي ، بحسب نظره ، ان معنى الملك هو انتصابه كل يوم بالمحكمة لفصل المتنازعين كصاحب الشرطة ، وكان ينكر على ابن عمه عدمَ مباشرة ذلك ، ويراه من التفريط ، لانه لم يتوصل لسبب ذلك .

وأحزمُ الناس من لم يرتكب سببا   حتى يفكّر ما تجني عواقبه

وانتدب الوزير ابا النخبة مصطفى صاحب الطابع للخدمة ، وتقدم ، وظهر منه ما يُنكَر على كماله ، من الاستعجال بالاعتراض على أمور سلفت كان ينقمها على الوزير خزنه دار ، وهي في الحقيقة صادرة من ابن سيده وابن تربيته أحمد باي ، وحجبه عن ذلك ما يحول بين المرء وقلبه . وقوة الامراء ، تجعل الاوزار على ظهور الوزراء .

ورام هذا الباي إجراء الناس على السذاجة المتقدمة وعادات المسلمين ، وإن خالفها في نفسه وحاشيته وذويه ، فقدّم [صهرَه] (1) أبا النخبة مصطفى بن محمد بن محمد بن محمد بيرم محتسبا (2) فرام تغيير المنكر وحمل الناس على ما رآه من الحق جملةً . ولا يخفى ان ذلك كان متعذرا في الصدر الاول ، فضلاً عن هذه الاعصار . قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لابنه : « نخشى ان نحمل الناس على الحق جملةً فيتركوه جملة ، وان الله ذم الخمر مرتين وحرّمها في الثالثة » .

ثم أمر باحضار ما وجده من العسكر والمهمات والخيل مهيّأً لإعانة من في خدمة الدولة العلية من العساكر التونسية ، وتوجه لحلق الوادي يوم الخميس الرابع عشر (3) من شوال السنة 1271 (28 جوان 1855 م.) ، وحضر لركوبهم في البحر ، ورجع في يومه وترك وزير الحرب ابا النخبة مصطفى حتى تمّم ركوبهم ، وشحن لوازمهم .

واختار ابا عبد الله محمد عامل الساحل لسفارة الدولة العلية ليأتي له بفرَمان الولاية السلطانية على العادة . وبعث معه جانبا من المال ، إعانةً للدولة . وأوصاه بأن يُشيِعَ بأنه عازم على القدوم لاسلامبول .

---

(1) الزيادة عن ع و ف .

(2) اى قائما بوظيفة الحسبة

(3) هو 12 حسب التقويم .

وسافر يوم الاثنين الخامس والعشرين (1) من شوال السنة 1271 (9 جويلية 1855 م.)، وأصحبه الوزيرُ مصطفى صاحب الطابع ، ابنَه أبا عبد الله محمد رشيد كأحد أتباعه ، وأمرني بالكتابة للدولة بما نصّه :

« اللهم بالثناء عليك نتقرب اليك ، وبالصلاة على رسولك وخلفائه المتناسقين ، نسلك سبيل المتّقين ، وبشكر نعمك ، نقرع باب كرمك ، وهو باب الدولة العلية العثمانية ، والسلطنة المجيدية الخاقانية ، المخدومة بالاعمال والنيّة ، المقصودة لبلوغ الامنية ، الوارد فضلها على الاقطار من كل ثنية ، والشمس عن مدح المادح غنية ، وكفاها أن رفعت من الملة الحنيفية أركانا ، وأقامت للحق قِسْطاسا وميزانا ، وروت أحاديث العناية الربانية صحاحا حِسانا ، ووَرِث ملوكُها الارضَ وهم الصالحون سلطانا يتبع سلطانا ، من سَمِيِّ ذي النورين الى من اختاره المجيد سبحانه لعباده ، وأقام به شعائر دينه وفروض جهاده ، وتولاه باعانته وإسعاده ، وسيّر على يده مصالح أرضه وبلاده . لا زالت القلوب بطاعته مؤتلفة ، والسيوف والاقلام بخدمته متّصفة ، والالسن في الإقرار بعجزها عما يجب له منصفة . وبما ذا أحيّي تلك الحضرة العلية الشامخة ، والقدم التي [هي] في كل فضل راسخة ، ضاق نطاق العبارة ، ولم يبق الا مسلك الإشارة ، بالرجوع إلى السنّة ، وتحية أهل الجنة ، السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله ، من عبد نعمته ، العاكف مذ نشأ على خدمته ، محَمد ابن خديم الدولة حسين باشا باي .

أما بعد ، فالمعروض على تلك الحضرة ولها طول العمر ، ونفوذ الامر ، أن رهين نعمتكم ، وعبد طاعتكم ، وعاشر هذا البيت في خدمتكم ، ابن عمِّ عبدكم ، ومقام أخيه المشير أحمد باشا باي سار (2) الى عفو الله فداء الحضرة السلطانية ، متزودا بما مات عليه من طاعة الخلافة وخدمتها بالعمل والنيّة ، وفي الحين بادر أهلُ الإيالة التونسية عموما وخصوصا ، وكانوا بنيانا مرصوصا ، إلى هذا العبد الفقير وألقوا إليه مقاليد أمورهم ، والنظر في حفظ مفردهم وجمهورهم ، فقام العبد بما وجب عليه من جمع الكلمة الاسلامية ، والدعاء على المنابر للسلطنة المجيدية ، راجيا رضى الخلافة في تأمين البلاد ، وزوال روعة العباد ، وسدِّ طرق الفساد ، واعتصمنا بحبل الله جميعا ، ولبّى العبد الفقير سلطنتكم

---

(1) هو 23 حسب التقويم

(2) في ع و ق : « صار » .

سامعا مطيعا ، على عادة أسلافه الخُدّام ، مع السلف الصالح السلاطين الكرام ، ووسيلةُ هذا العبد انه نشأ في ظل سلطنتكم ، وتغذّى بلِبان نعمتكم ، وتعرف من نعمكم الانواع والاجناس ، واستضاء من عنايتكم بنور يمشي به في الناس ، والكرم يرى لسالف الخدمة ، تأكُّدَ حرمة ، وقد تُرجَى العنايةُ من ذلك الباب ، اعتمادا على فضل ذلك الجناب ، ولا يمتُّ بغيره من الاسباب ، وعادات السادات ، سادات العادات .

والامل أن تزيد خدمة عبدكم على خدمة من مضى ، حتى يرى من ظل الله الرضى . والله يعاملني بنيّتي ، فيما عرضتُ من أمنيتي ، قبل حلول منيتي .

وقد ابتدأ العبد خدمته بما كانت اليد فيه مع من تقدم واحدة ، والقلوب والجوارح عليه متعاضدة ، وهو إرسال طائفة من العسكر إعانةً لتلك الفئة القليلة التي تقدمت ، وبحسن القبول قوبلت ، والامل الذي عليه المعوَّل ان يشملها [من] الفضل [ما شمل] (1) الاول ، ومعها جهد المقلٍّ ومنتهى طاقة الضعيف وعلى قدر المهدي الهدية ، في هذه الإعانة الجهادية ، وعلم السلطنة بالحال والكُنْه ، يقتضي الإغضاءَ عنه . يقدِّم ذلك عبدُ السلطنة المكتفي بوثوقه وأمانته ، وسياسته ونجابته ، أحدُ خواصِّ عبدكم ومحلُّ ابنه محمد أمير لواء . وهو النائب عن العبد العاجز في طلب الفضل ، الذي وسيلته الرجاء والامل . وفضل الكرام لا يتوقف على ملاحظة عمل .

اللهم أعنّا على ما أوجبت لهذه السلطنة من فروض الطاعة ، وتأدية الحق جهدَ الاستطاعة ، واعصمنا بيدها الطولى من الإضاعة ، واحملنا من مَرضاتها على سَنَن السُّنّة والجماعة . اللهم انا اليه ناظرون ، وعلى أمره صادرون ، ولإنجاز وعدك في نصر من ينصر دينك منتظرون ، فما فقد شيئا مَن وَجَدك ، ولا خاب مَن قَصَدك . آمين يا رب العالمين ، وسلام على المرسلين ، والخلفاء الراشدين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين . وكتب في شوّال 1271 » .

ورجع هذا السفير [ناجح المسعى] (2) يوم الثلاثاء العشرين من محرم سنة 1272 اثنتين وسبعين (2 اكتوبر 1855 م.) ، ومعه كاهية رئيس الكتاب في الصراية السلطانية ، بالتشريف السلطاني وفرَمان الولاية للباي ، وترقى السفير الى رتبة أمير أمراء ، وقبل الباي الفرمان في موكب حافل مشهود بباردو .

(1) الزيادة عن ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

وكـاتب الباي السلطنـة الشريفـة بالمغـرب بما نصّه : « الجنـاب الذي نتسلىّ عن المفقود بوجوده ، ونستضـيء في ليل الشدائد بأنوار سعوده ، ونتقرب الى الله بحبه وحبّ آبائه وجـدوده ، ونتحصن بموالاتـه من كـل خَطْب قبـل وروده ، جنـاب السلطـان الرفيـع الشان ، لباب السلاطين الاعيان ، الحائز قصَبَ السَّبْق في كـل فضل وإحسان ، وكيف يوفي البيان ، بفضائل مَن حبُّه أمان وإيمان ، مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام سلطان المغرب ، لا زال كـل لسان بفضله يُعرِب ، ويتفنن في ذلك ويُغرِب .

أما بعد سلام كـريم ، طيّب عميم ، تَفْتَرُّ عن ثَغْر الوداد مباسمه ، وتَهُبُّ في تلك الساحة العَلَوية نواسمه ، فالمعروض الى ذلك الباب لا زال محروسا من غِيَر الايام جنابه، مسدولاً عليه ستر الله وحجابُه ، أن ابن عمّنا ومقام أخينا المشير سيدي أحمد باشا باي سار الى عفو الله ليلة الخميس السادس عشر من رمضان ، بمرضه الذي أصابه منـذ أزمان ، ولـكم طول العمر ، ودوام الامر ، وفي الحين أجمع أهل الحل والعقد على بيعتنا ، وسارعوا الى الانتظام في سلك طاعتنا ، فلبّينا دعوتهم ، وقبلنا باعانة الله بيعتَهم ، وجَمَعْنا الكـلمة ، وائتسينا (1) بالصبر على ثقل الامانـة في حفظ هـذه الامـة المسلمـة ، وبادرنا باعلام حضرتـكم الشريفة ، وسدتـكم المنيفة ، لما لنا في بيتـكم النبوي من تشيـع واعتقاد ، وموالاة ووداد ، ووثوق واعتماد ، [وتيمن واستناد] (2) .

والله أسأل ببركـتـكم وعنايتـكم وإعانتـكم التوفيق لما يرضاه ، فالهدى هدى الله . والمرغوب من نفسكم الزكية المحمدية ، وهمّتـكم الحسَنية العلوية ، وسلطنتـكم المطـاعـة بالعمل والنيّة ، المتوسَّل ببركـتها في بلوغ الامنية ، ان يـكـون دعاؤكم سبب إسعـادنا ، وأعظم أمدادنا ، في بلوغ مرادنا . والله يرى أن مرادي الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقـي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . والسلام » . [وكـتب في اوائل المحرم عام 1272] (3) (اواسط سبتمبر 1855 م.) .

وأجابه السلطان بما نصه :

---

(1) كذا في غ ، وفي ع و ق : « وتدرعنا » .

(2) الـزيـادة عـن ق .

(3) الـزيـادة عن ق .

« من عبد الله سبحانه المتوكل على الله ، المفوض أمره إلى الله ، امير المؤمنين ابن امير المؤمنين ، ابن امير المؤمنين ابن امير المؤمنين ، عبد الرحمان ابن هشام أيّد الله جنوده ، ونصر أعلامه وبنوده ، تحية تنمُّ بأسرار اليمن في المبدإ والإعادة ، وتشرق بأنوار البشائر في مطالع السعادة ، وتفتح للرضى والقبول كل باب ، وتؤم بفيوض الكرامة والإسعاد حضرة الاحباب ، إخوان الوفاء والصفاء والإنصاف ، المختصين بأطايب الشيم وجلائل الاوصاف ، ومن تسامى مجدهم وسَنَاؤهم حتى جاوز العَنَان الى الافلاك ، ومن نظمت الليالي والايام مآثرهم نظم اللآلىء في الاسلاك ، حضرة الفرد المراد بهذه الجموع ، المتحلي من أبّهة الملك بكلِ مرئيٍ ومسموع ، سلطان الممالك التونسية ، والاقطار الافريقية ، الجالس على كرسي قاعدتها التوفيقية ، والحائز بالفرض والتعصيب لمزايا ولاياتها التصورية والتصديقية ، المشير الامجد الباشا محمد باي أسعد الله ذكركم ، وأعلى على الاقدار قدركم .

أما بعد فانه بلغنا كتابكم الذي شفَّ عن طواياكم النيّرة ، وأنبأ بشناشنكم الطيّبة الخيّرة ، وهو وإن كان بأوائله أذهل الاذهان ، فقد خفَّ بثوانيه ذلك الخطب وهان ، وذلك أنه نعى أولاً أخاكم الهمام المرحوم ، ثم بشّر ثانيا بولايتكم التي هي مركز تدور عليها السعادة وتحوم ، ونحن نسأل الله الذي له الامر كلّه ، وبيده ملكوت كل شيء وعقده وحلّه ، ان يبعث من حضرة تأييده لمعونتكم من جنود الإمداد ، ما لا تحيط به الاعداد ، ولا يدرك بالاستعداد ، وان يقوّيكم على الخير الذي جبلكم عليه ، ويساعدكم على هذا الامر العظيم الذي اختاره لكم واختاركم له وندبكم إليه ، ولا شك انكم ان شاء الله بذلك أحرياء ، بأمارة ان جعلكم من طلب الإمارة أبرياء ، فسيقت لكم بلا استشراف منكم ولا معوّل ، اذ لم تجد المعالي عن جلالتكم متحوّل ، فلذلك حطت في ذَرَاكم النزيه أحمالها ، وأناخت في ساحة عزّكم أجمالها ؛ وقصرت على سيادتكم تفصيلها وإجمالها .

فاحمدوا مولاكم الكريم الذي خصّكم بأشرف مواهبه ، واسلكوا الى إرضائه من شكر آلائه أحسنَ مذاهبه ، وتعرضوا لمزيد فضله الذي وعد به الشاكرين ؛ واطلبوه عند ذكره فانه مع الذاكرين .

هذا ، وانا معكم على ما درج عليه الاسلاف ، من التواصل والاتفاق والائتلاف ، ذات واحدة وبناء مرصوص ، كما هو مُسنَد منصوص ، فادعوا الله لنا وأمّنوا اذا دعوتم ، لا

سيما اذا انفردتم بالله (1) وخلوتم ، ونحن لكم كذلك ان شاء الله وعلى عهدكم ومحبتكم ، والسلام » .

[في متمم محرم الحرام سنة 1272] (2) (الجمعة 12 اكتوبر 1855 م.) .

وسرّ الباي بهذا الجواب ، وتيمّن بالدعاء من الشريف .

⁂

وفي اواسط شوال ثاني شهور ولايته (اول جويلية 1855 م.) ، قدم من الدولة الفرنساوية قنصل للحاضرة ، اسمه ليون روش ، يتكلم بالعربية بل يحسنها نطقا وكتابة ، ويستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية . جال في اقطار المغرب ، وركض في كلّ ميدان ، وهبّ مع كل ريح ، فقام الباي لتلقّيه في بيت قصره ، وهو أول قنصل قبل بهذه الكيفية الجاري بها عمل الوقت مع سائر القناصل .

وترامى على الامتزاج بهذا الباي ومداخلته ، تراميا يزري بمنصبه ولم يعهد ممن تقدّمه ، وكأنه آنس ضعفا [في القريحة] (3) فاستعمل الفضول في إبداء النصائح وتلوينها . وهو أول من أظهر ذلك من قناصل جنسه . وله في ذلك مراد ، والله المراد فيما يريد .

⁂

وفي السابع عشر من الشهر (الثلاثاء 3 جويلية 1855 م.) أمر هذا الباي بتنقيص من عدد الشهود المنتصبين بالحاضرة وعملها ، ولم يبق بالحاضرة الا مائتين فقط ، وسلب أوامر ولاية الباقين ، لما بلغه أن أفرادا منهم يُلمَزون بسوء في الشهادة ، فقال له الوزراء : « الواجب الاقتصار على الملموزين فقط ، ولا يؤاخذ البريء بالمجرم [فكل نفس بما كسبت رهينة] » (4) ، فأبى . وعارضه في ذلك الوزير مصطفى خزنه دار معارضة قوية ، فأصرّ وادّعى ان سبب إصراره هو ان قنصل الفرنسيس طلب منه ذلك ، واذا أسعفه في مثلها يكون ذريعة لغيرها .

(1) كذا في خ و ق ، وفي ع : « بالنية » .
(2) الزيادة عن ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) الزيادة عن ع و ق .

وأمر شيخ الإسلام ابا عبد الله محمد بيرم الرابع بجمع أوامر سائر الشهود بالمملكة ، والذي ينتخبه منهم يكتب له في طُرَّة أمر ولايته ويرجعه له ، فثقل ذلك على الشيخ ، لانه تقدم مثل ذلك لجدّه ، أيام أبي الحسن علي باي بن حسين ، ورضى الخلق غاية لا تُدرَك ، فقال له : « هذا حمل لا أقدر عليه وحدي ، فالاَولى أن تقيّد أسماء الشهود بزمام ، ويعرض الزمام على سائر اهل المجلس الشرعي ، وكل واحد ينتخب من الزمام مائتين ممن يشهد فيه بالعدالة ، ويعرض ذلك عليك ، فمن شهد فيه الاكثر فهو المنتخب ، ومن لم يعرفه أحد فهو مجهول الحال حتّى يزكّى» . ووقع الانتخاب على هذه الكيفية . ثم ظهر للباي أن يقدّم انتخاب شيخ الاسلام فقط ، ويُعرِض عن انتخاب غيره ، فتحرج أهل المجلس الشرعي من ذلك ، ولاقى الشيخ بسبب ذلك شدة ومحنة ، وسلقته الالسن الحِداد ، كما وقع لجدّه بل أشدّ . وتضرر بهذا جمع من الفقراء المستورين كانوا يرتزقون بالتوثيق ، وانتقلوا من كَفَاف الى ضِيق .

**

وفي يوم الاربعاء العشرين (1) من شوال المذكور (4 جويلية) قدم من فرانسة ابو عبد الله محمد الامين باي ، وابو عبد الله محمد المأمون باي ، ومعهما أمير الامراء ابو عبد الله محمد المرابط صهرهما ، ومن معهم من الذين وجّههم الباي أحمد غرّةَ شهر وفاته ، لتهنئة سلطان الفرنسيس بلطف حفّ به ، كما تقدم ذكره .

ولما بلغه وصولهم لحلق الوادي ، أركب إخوته لتلقّيهم ، واختلى بالوزير أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ، والوزير أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، ووزير الحرب أبي النخبة مصطفى باش آغة ، وقال لهم : « عزمتُ على عزل محمد المرابط وصالح شيبوب ونفيهما وأخذ كسبهما » ، [وهم ممن يعلم ان ما جاز على المثل ، يجوز على المماثل] (2) ، فقال له بعضهم : « ان احدهما صهر بيتكم » ، فقال له : « نُلزِمه طلاق بنتنا ، وقد استولوا على الكثير من أموال الدولة » . ثم قال له وزير الحرب : « ان محمد المرابط خدم اخاك في مرضه كثيرا ، حتى انه كان يوضّئه » ، فلم يرجع ، فقال له صاحب الطابع .

(1) هو 18 حسب التقويم .
(2) الزيادة عن ع و ق .

« لا بدّ من ذنب تعتمده في ذلك » ، فقال : « لا أكْذِب عليهما ، ولا نريد خدمتهما ، ولا بد من أخذ كسبهما » ، ولعمري ان هذه المجاهرة باتّباع الغرض ، أحسن من الاسباب الواهية ، فالاقتصار على خطيئة واحدة احسن من الجمع بين خطيئتين ، فقال له الوزير مصطفى خزنه دار ، لما عيل صبره : « لا بدّ من التثبت في ذلك ، فوراءنا ألسنة الناس وصحف الاخبار في الاقطار ، ولا يفوتك أخذ مالهما ، لكن على غير هذا الوجه » ، فقال له : « لا بد من ذلك اليوم ، خشية هروبهما أو إخفاء مالهما ، وانما استأنيت بشيبوب خشية هروب المرابط وهو خارج المملكة ، وكلامي لكم انما هو إعلامكم بمرادي » . وخرج منتظرا للغنيمة الباردة . هكذا بلغنا ممن حضر الموطن ، ودَاخلَ الباي في ذلك من بطانته السريّة .

ولما دخلوا عليه ، قبّل أخوه وابنُ عمه يدَه ، ووراءهما مَن اؤتمن عليهما ، وهو محمد المرابط . ولما وصل ليقبّل يده ، قبضها عنه وأمر بسجنه في بيت لواء العسة ، وأمر بسلب نواشن افتخاره وولايته ، وأمر باحضار صناديق سفره فرجع له منها ثياب المهنة فقط ، وأمر بالاستيلاء على سائر كسبه ، منقول وغيره من طارفه وتالده ، والزمه طلاق زوجته فطلّقها مكرها ، وأنا أحد شاهدَي الطلاق ، بعد أن طلب الامان على رمقه ، فأعطاه ذلك .

وفي الحين أمر بسجن صالح شيبوب ، وسلب سائر نواشنه ، والاستيلاء على جميع ما يملك .

وأمر بحسونة متّالي ومحمد بن الشيخ ومحمود البنانسي وغيرهم من خواص أحمد باي فسلبهم سائر ما عليهم من النواشن ، وطردهم وأخذ جميع ما نالوه من سيدهم بأعمارهم التي ضاعت مجانا في خدمته سفرا وحضرا .

وأمر بأبي محمد حسن المرابط ، وكان يومئذ كاهية القيروان ، فسلب نواشنه أيضا واستولى على داره بجميع ما فيها ، وسائر ما على كسبه من المنقول وغيره ، وذنبه أن محمد المرابط أخوه .

ولما لم يجد عند محمد المرابط وصالح شيبوب مالاً ناضا يقارب ما كان يؤمله ، قال لابي الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، من خواص مماليكه : « اذهب اليهما واسألهما عن كسبهما ومالهما ليدلاّ عليه خير من تعذيبهما » ، فامتنع من هذه الرسالة وقال : « لا

أقدر على مواجهتهما بالمكروه » ، فانتُدِب لذلك أبو المسرة فرحات أمير لواء العسّة ، وأتاهما في محبسهما فقالا له : « لا مال عندنا الا ما هو في بيوتنا من الرسوم وغيرها ، وأزِمّتنا تشهد لنا بذلك ، وإن أراد تعذيبنا فالامر إليه ونحن في قبضته » . وكرر عليهما الإرسال فلم يسمع غير جوابهما الاول ، فأمر بنفي المرابط الى القيروان ، وصالح الى جربة. وتتبع كسبهما من أقاربهما وأتباعهما ، حتى انه أخذ حُلِيّ زوجة صالح شيبوب ، وهي ابنة الوزير أبي الثناء محمود كاهية [حلق الوادي] ، وان عاوضه لها بما هو دونه [في القيمة] (1) .

وجاء بهذه الاحدوثة على غير قياس ، مبنية على غير أساس ، اقشعرت منها الجلود ونَبَتْ عنها الاسماع ، وهدمت الآمال وحسمت الاطماع ، وتحدث أهل الحاضرة بأن لا ذنب لهؤلاء العباد ، الا كونهم من ابناء البلاد ، وهامت أفكار الناس في كل واد ، اذ لم تكن بشبهة ذنب يمكن الى ظلها الاستناد ، ولهجت بذلك صحائف الاخبار ، في معمور الاقطار . وتعجب قنصل الفرنسيس من ذلك ، لانه لم يُعهَد في دولته ولا في بني جنسه ولا في قطر مما جال فيه .

وأعجب من ذلك أنني فاوضت بعض العلماء في هذا الحال ، فقال لي : « إن ذلك جائز بالكتاب والسنة والاجماع والقياس » ، فقلت له : « رضيتُ منك بالقياس فقط » ، فَهَمْهَمَ واختلط ، لان الباي اصطفى اموالهم لخاصة نفسه ولم يجعلها في بيت مال المسلمين ، [ولان هؤلاء ليسوا من العمّال] (2) . والى الآن لم نسمع من هذا العالم شيئا من الجواب ، وسأسمعه يوم العرض للحساب .

⁂

وفي هذه الايام نقّص الباي من المؤذنين بالجامع الاعظم عددا كثيرا ، وقد كانوا مائة وأربعين مؤذنا . وأثّر ذلك في أهل الحاضرة ، وذلك أنهم يرون هذا الجامع كعبة البلاد ، يتبركون بسدانته وتتوارثها الابناء من الآباء ، ولا يعتبرون دخلها ، وان كان من التافه الذي لا يؤبه به ، اذ كان القصد النسبة لبيت الله والتيمن بالانخراط في سلك

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

خدمته ، فترى الاغنياء واهل الوجاهة يتسابقون الى هذه الخدمة ، ويرون رسم أسمائهم في دفترها حرمةً ونعمة ، ويوقفون عليها من أموالهم الاوقاف النافعة .

⁂

وفي غرة ذي القعدة من السنة 1271 (الاثنين 16 جويلية 1855 م.) ، نمى الى الباي أن رجلاً يقال له محمد السقا ، كان من العسكر وخرج بعِوَض ، يأوي بداره أهل الفسوق والبطالة ، ويتقصد محلّه مَن يريد التستر بمعصيته . وأنكر ذلك المحتسبُ ، وقال للباي : « هذا منكر يجب تغييره » ، فأمر الباي باحضاره ، مع عواهر من فسقة النساء . ولما وقف بين يديه ، أمر بقتله هدفا للرصاص ، قبل ان يعلمه بذنبه [او يسمع منه كلمة] (1) .

وكان الوزير مصطفى خزنه دار واقفا بين يديه ، فتطارح على تقبيل رجليه ، شافعا في إبقاء حياته وعقابه بغير القتل ، قياسا على ما عهده من سيده الاول ، فردّ عليه منكرا ذلك ، وقال له : « مثلك لا يشفع في مثل هذا » . وقتل المسكين ، سامحه الله .

ثم أمر بنفي النسوة الى قرقنة ، وأمر المحتسب بالاستيلاء على سائر كسبهن ، وبيع بالسوق ، وأخذ الباي ثمن ذلك لنفسه .

وخرجن منفيات يتكففن من اهل تلك الجزيرة بما يعلمه الله .

وشقّ ذلك على الناس أيضا ، [حيث رأوا هذا التهاون بالنفوس والاموال] (2) ، وتنوعوا في ذكر الاسباب ، وكلّها سبّاب . والعذر له ، فان بعض العلماء في السرّ أفتاه بذلك ، وأن التعزيز باجتهاد الحاكم ، وذكر له حالة الصدر الاول ، ورام القياس ، ودُونه فوارق . وكأن الفقيه لم يدر قوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمِر به هلك ، ثم يأتي زمان مَن عمِل منكم بعشر ما أمِر به نجا » ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ، عن الترمذي ، عن أبي هريرة . وأي قياس بين الصدر الاول والقرن الثالث عشر ، وبالامس كان المزوار ذا خُطّة معروفة حتى أبطلها مصطفى باي رحمه الله .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

على ان الستر مطلوب في امثال ذلك [شرعا] (1) ، قال صلى الله عليه وسلم لمن أخبره برجل يزني : « هلاّ سترتَه بثوبك » . ولم يقبل الشارع في ثبوت الزنا أقلّ من اربعة شهود ، على كيفية مخصوصة ، واذا نقصَ واحد من الاربعة ، وجب على الثلاثة الباقين حدُّ الفِرْية . واكتفى في القتل ، وهو أشد من الزنا ، بشاهدين . ما ذاك إلا لامر يعلمه الله . وغاية ما توصلت اليه العقول طلب الستر ، الى غير ذلك مما يُرَدُّ به هذا الاجتهاد في التعزيز ، لان الاجتهاد لا بدّ من بنائه على قاعدة عقلية او سمعية .

على أن قتل هذا الرجل لا مظنّة فيه لزجر الغير . والواقع يحقق ذلك . وجرى المحتسب على هذا السنن في هذا الزمن ، فمنع ، بأمر الباي ، النسوةَ من لبس الكلاسط (2) في الازقّة ، ومن لبس النعل الساتر لوجوه أرجلهن ، وألزمهن النعل السابق ، وان كان فيه كشف الرِّجل وهي عورة . واستعان على ذلك بأوغاد لا يعلمون القبيح من الحسن . وكان من نوابه جاهل من اراذل الناس ، مرّت به امرأة بنعل ساتر لرجلها ، وهو بسوق العطارين ، فأمر أتباعه بتمزيقه في السوق بمرأى من الناس ، فتوسلت اليه ببركة الجامع أن لا يفضحها ، فلم يصغ لتوسلها ، ومزق نعلها ، فرجعت حافية لدارها تَعثر في دموعها . إلى غير ذلك مما لا يحتمله طبع الزمان ، ولا يقتضيه شرع الإيمان ، المبني على العدل والإحسان والامان .

وامتدت يد المحتسب الى فصل الخصومات ، ومباشرة الظلامات ، وتشكى من ذلك الداي وغيره من ذوي الولايات . وكان ذلك على كُرْه من أخيه أبي عبد الله محمد بيرم شيخ الاسلام . وتكلم الوزراء في ذلك مع الباي ، وبصّروه بمقتضى الحال والوقت ، فتبصّر ونهى المحتسب ، فقصّر [يده] (3) .

***

ثم نظر في أمر العسكر ، فرأى أيدي الضبّاط تجول فيهم بلا قانون ولا حدّ معلوم ، يستعملونهم في خدمة أنفسهم كالعبيد ، فأنكر ذلك ، وكتب لكل واحد من أمراء الالوية ما نصّه بعد افتتاحه واسم المخاطب :

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الكلاسط : الجوارب (عامية تونسية) .

(3) الزيادة عن ق .

« اما بعد ، فانه بلغني ان بعض الضباط تمتد أيديهم في العسكر بالسجن والضرب وغير ذلك من استخدامهم في حاجات أنفسهم ، وليس لهم ذلك ، وانما حسبهم الرئاسة عليهم في التعاليم العسكرية والقواعد الحربية ، والترتيبات النظامية التي اليد فيها واحدة ، على حسب الاقدار والمناصب . فاقتضى النظر أن نحجر ذلك عليك ، على مكانتك المكينة عندي ، أحرى مَن دُونك . ومن الآن لا يقع عقاب لعسكري بضرب أو سجن إلاّ عن أمرنا ، فلا يعاقب بضرب مَن عصى إلا مَن بيده العصا . واذا صدر من بعضهم ما يقتضي العقوبة ، وخشيتم هروبه ، فحَسْبُكم إيقافُه في القشلة ، وارفعوا الينا نازلته فورا لتأمركم بالذي يكون عليه عملكم . ولا يستخدم ضابطٌ عسكريا في حاجة نفسه . وارفعوا إلينا سائر ما يقع في القشلة من حقير وجليل ، بحيث لا يقع بها أدنى شيء إلا عن أمرنا ، وأنتم الامناء على تنفيذه . والعناية بالعسكر ، الذين هم الشعار والدثار ، تقتضي ذلك . فلا أشرف عندي من خدمة أحوالهم بنفسي . فاجمعْ سائرَ من لنظرك من الضباط ، واقرأ عليهم أمرنا هذا ، ليعلمه كل واحد منهم ، ويكون حكمه قانونا جاريا . وحذِّرهم عقوبة المخالفة ، فاننا لا نتجاوزها لهم ولا يسعها حلم بعد هذا التنبيه المسطور في هذا المنشور . وتعدُّد الايدي في العقوبات والاحكام ، مفسدة للأنام . والله الذي كلّفني ويسألني عن حالهم ، أمرني بعدم إهمالهم . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . والسلام » . وكتب في 17 صفر سنة 1272 (الاثنين 29 اكتوبر 1855 م.) .

***

وكان لا يتحمل استطالة أيدي العمّال على الرعية بالضرب ونحوه من الاستعباد ، شأن غالب الملك المطلق ، لا يبيحون ذلك لغيرهم . حتى انه عزل مملوك أبيه وأحد خواصه محمد علي [آغة] عن ولاية الوطن القبلي ، لانه ضرب إنسانا ضربا شديدا [أشرف بسببه على الهلاك] (1) ، وحلف إن مات المضروب ليقتصنّ من العامل . وأسقط منزلته وأقصاه عن الخدمة . ويقال ان المضروب مات ووقع مع أوليائه صلح بمال له بال ، بحيث أنهم لم يرفعوا بذلك شكاية . وذلك ، بشهادة الله ، من أكمل خلاله ، وما يعدُّ من كماله .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وفي يوم الاحد الرابع (1) من جمادى الثانية سنة 1272 (10 فيفري 1856 م.) نقل الباي عسكر المحمدية الى قشلة سوق البشامقية بالمدينة ، وحضر يوم دخولهم لها بنفسه ، ومعه أكابر العسكر ، ورفع بها الصنجق ، وأطلقت عليه المدافع من القصبة والابراج . لان المحمدية بنيت على استعجال ، [فتداعت ابنيتها] (2) فلزمها إصلاح يلزمه مال له بال . وامتدت أيدي الخراب المتوقع قبل إبّانه المظنون . وللباي محبة في خرابها ، شأن غالب ملوك الإطلاق في محو آثار من تقدم منهم ، لا سيما والناس يذكرونها بالشؤم .

⁂

وفي رابع شعبان 1272 (الخميس 10 افريل 1856 م.) ، سافر الشيخ العلامة المفتي ابو عبد الله محمد النيفر متطوعا بالحج ، وبعث معه الباي صُرَّةَ الحرمين الشريفين ، في شقف حربي أباحه لركوب الحجاج بلا كراء .

⁂

وفي الثاني عشر من الشهر (الجمعة 18 افريل) اتى الخبر بوقوع الصلح بين الدولة العلية ودولة الموسكو ، بواسطة الدول العظام . واجتمع سفراؤهم لعقد ذلك في باريس . واطلقت المدافع بحلق الوادي في الصباح ووسط النهار والعشي ، إعلانا بذلك .

⁂

وفي اوائل أيامه استرجع أشياء كان اقترحها الولي المجذوب الشيخ عمر عبادة بالقيروان ، الله أعلم بمراده فيها إن اقترحها حقيقة . وهي قطع (3) حديد ، واشياء من الفضة ، ودراهم [من ذهب وفضة] (4) وغير ذلك . ووفى له أحمد باي باقتراحه ، لما له فيه من العقيدة . وساء ذلك أهلَ الولي الزاهد ، ونَقَمها الناس عليه وتحدثوا في شأنها . وهي أحدوثة أعظم من قيمتها ، لولا الشغف بالردّ على من تقدّمه .

---

(1) هو 3 حسب التقويم .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « قناطر من حديد »
(4) الزيادة عن ع و ق .

وأمر هذا الباي بضرب سكة من الذهب ، وكتب فيها اسمه مجردا عن لقبه ، في الوجه الذي به التاريخ ، إلا أنه أجحف فيها وحابى الدولة بالربح ، [شأن المتأخرين من ملوك الإطلاق في الاسلام] ، فأجحف ذلك بالتجار ، لا سيما الافرنج ، ورأوا نقصان أموالهم فضجّوا بالشكاية [لقناصلهم] (1) .

ولما تحقق الضرر بالتجار وبالمملكة ، لان بعض تجار الافرنج صار يضرب مثلها في غير تونس ، ويأتي به ، ولا يعتذر من ذلك ، بل يقول ان السكة تحترم ما دامت على سَنَن أمثالها ، فاذا اتخذها صاحبها سببا لربحه صارت صناعة وتجارة لا حَجْر فيها ، فلذلك رفع ضررها وأبدلها بسكة ذهب لم يربح فيها الا نحو ما يصرف على عملها . وكتب الى قناصل الدول بما نصّه :

« اما بعد فان سكة الذهب التي ضربناها في إيالتنا على حسب ما اقتضاه الحال ، ظهر لنا في تبديلها مصلحة للعمالة والمتجر ، فاقتضى نظرنا ان نجمعها بتمامها ونعيد ضربها على قدر الريال فضة بوخمسة . فالعمل ان تنبه على سائر من لنظرك ان من عنده شيء منها يدفعه لناظر دار السكة الثقة العمدة الارشد القايمقام ابننا [قاره] (2) محمد ، ويأخذ منه توصيلاً في القدر الذي يدفعه ، حتى يعيد ضربه ويرجعه لربّه ويأخذ توصيله . ومدة جمع السكة المذكورة بتونس خمسة أيام من غد يوم التاريخ ، بحيث ان من أتى بسكة ذهبا بعد الخمسة أيام تعتبر اعتبار قطعة ذهب لا سكة . وكاتبْنا بلدان عمالتنا بأن مَن بيده شيء منها يأتي به لدار السكة . وجعلنا لابعد البلدان ، جربة والاعراض والجريد ، عشرين يوما من وصول أمرنا ، ولبلدان الساحل عشرة ايام ، وغيرها من البلدان على حسب قربها من الحاضرة . والمعتبر يوم وصولها لدار السكة . ومبدأ دفعها لاربابها بعد مضيّ نصف شهر من يوم وصولها ، ومدة الدفع نصف شهر آخر ، بحيث يكون الدافع بعد مضيّ شهر من يوم دفعه خالصا ، بحول الله . ونرجو إعانتكم في هذه المصلحة العامّ نفعها للمتجر والعمالة ، ومن الله الإعانة » .

وكتب في 22 (3) شوال سنة 1272 (الخميس 26 جوان 1856 م.) .

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) كذا في خ ، وفي ع : « 28 شوال » ، وفي ق : « 18 شوال » .

ولما اراد الباي كَتْب اسمه على السكة التي خسر منها اكثر مما ربحه ، على ما هو موجود الآن ، عارضه جميع وزرائه ، ومنهم شيخ الاسلام ، معارضة ملوك الإطلاق ، فصمّم على شهوته .

ولما رأى شيخ الاسلام تصميمه ، قال له : « انه وقع مثل هذا بافريقية ، وذلك ان زيادة الله بن الاغلب ضرب مبلغا من الدنانير زنة الواحد عشرة مثاقيل ، وكتب عليها في وجه :

« يا سائرا نحو الخليفة قل له   أن قد كفاك الله أمرك كلّه

بزيادة الله بن عبد الله   سيفِ الله مَن ْ دونَ الخليفة سلّه »

وكتب في الوجه الآخر :

« ما ينبري لك بالشقاق منافق   الا استباح حريمَه وأذَلّه

من لا يرى لك طاعةً فالله قد   أعماه عن سبل الهدى وأضَلّه »

فقَنِع بهذا المثال ، وطلب من الشيخ أن يكتب له الابيات ، وقد تقدمت في العقد الثاني من مقدمة هذا الكتاب ، وأن فاعل ذلك هو آخر بني الاغلب ، بعثها في هدية من جملة نفائس ، ولم يضربها للرواج في التعامل . ولم يقصد الباي بهذا التصميم خلافا ولا نبذا لواجب الطاعة للدولة العثمانية ، وانما ليرى نفسه انه فعلَ ما لم يفعله أحد من آله المتقدمين ، شأن ولوع المستضعفين بالإغراب . ويقال ان قنصل الفرنسيس هو الذي حسّن له ذلك في السرّ ، وأوهمه أوهاما لم تكن تخطر بباله ، ولا يحسبها من آماله ، لانه كان يعيب على ابن عمّه شدة حذره من الدولة ، ويقول مرارا انه يشتهي التوجه الى السلطان ، الى غير ذلك مما يجري على اللسان بغير روية .

☘

وفي ذي القعدة من السنة 1272 (جويلية 1856 م) ، توفي قنصل الانقليز ، وبعث الباي خاصته وأعيانا من العسكر ، ودفن بموكب يناسب أمثاله ، على مقتضى مقام دولته المعظمة ، كما فعل ابنُ عمّه مع مثله الذي توفي في مدته .

ولما كـثر تخفيف الباي من الجباية بالتنقيص تارة وبالإبطال أخرى ، كضريبة المغنّين واصحاب آلات المسيقا (1) ، مع توسعه في المصاريف عل نفسه وداره ، بمقتضى شهوته ، توسعا يناهز توسُّعَ مَن تقدمه ، إلا ان المصرف مختلف ، نبّهَهُ الوزراء بأن « مصرف البلاد ، والحالة هذه ، كـثير ، واذا نقصت الجباية فمن أين المصرف ؟ » ، فأجابهم بأن « إبقاء الجباية بأيدي العمّال على هذه الكيفية ، وهو ان ما يدّعونه من الخسارة في اللـزمة يوزعونه على أهل عملهم باجتهادهم من غير تعقب ولا وازع ، هم المدّعون للخسارة وهم الحكام على توزيعها ، هو الذي نقّص عمران بلدنا حتى أخذت سبيل الخراب ، ولا بدّ من ترتيب أداء يستوي فيه كـل الناس ، معلومِ المقدار ، ونسمّيه إعانة . واذا عاد الى المملكـة عمرانها نستغني عنه » . وحضر لذلك شيخ الاسلام ، فأنكـره وقال لـه : « ما كان المظنون بك هذا » ، وأشار الى تنقيص التوسع الذي منه النواشن المرصعة ، ومصادرةِ العمال » ، الى غير ذلك . فلم يصغ له . واتفق الرأي على ذلك . وأمرنـي بـانشاء منشور الإعانة ونصّه :

« الحمد لله الذي أناط العمران بالعدل والإحسان ، وشرف بالتعاون نوع الإنسان ، وأعانه عليه بالاصغرين القلب واللسان ، وجعل المصالح تختلف باختلاف البقاع والازمان ، بما يدفع المضرة ويجلب المنفعة والامـان ، وقلّد النظر في ذلك بكـل قطر لمن يجمـع عِصَابـة الإيمـان ، والصلاة والسلام عـلى سيدنـا محمد المؤيَّد بمعجزة القـرآن ، الآمـر بالتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعُدْوان ، الحاثّ على العدل والرفق والحنان ، وعلى آ له وأصحابه السادة القادة الاركـان ، الذين بلّغوا إلينا شريعته وأحاديثه الصِحاح الحِسان، وتعاونوا على حفظ المِلّة بالاموال والابدان ، وعلى التابعين ومَن تبعهم باحسان .

أما بعد فاننا حرَّرنا هذا المنشور ، المرجوّ نفعه في الدنيا وثوابه يوم النشور ، لـكـافـّة أهل إيالتنا جعلنا الله وإياهم ممـن يهتدون بالحق وبه يعدلون ، ووفّقنا لعمران أرضه بالتعاون والله خلقـكم وما تعملون .

اعلموا ان الله جلّت قدرته لما قلّدنا القيامَ بأموركم ، وسياسةَ مفردكم وجمهوركم ، رأينا أوّلَ واجب في الديانة ، حفظ المؤتمن على الامانة ، ورجونا من فضل الله القوي القادر

(1) كـذا في خ و ع ، وفي ق : « الموسيقا » .

الإعانة ، لان الامانة سرٌّ من أسرار الله يُناط بها المراد ، ويحاط بها العباد ، ويماط بها الفساد ، ولا يتمّ هذا المراد إلا بأعوان وأجناد ، وحامية في كل بلاد ، ولا قوام لسائر الاعمال ، الا بما يلزم من المال .

وجرت عادة الله في نوع الإنسان ، أن لا مال إلا بعمران ، ولا عمران الا بعدل وأمان، ولا أمان الا بزجر أهل البغي والعُدْوان .

وقد وجدت عمران وطننا الذي حبّه من الإيمان ، اعتراه الخلل والنُّقْصان ، وقلّ من ساكنه العمل ، لضعف الامل ، وإن كان ذلك من ذنوبنا ، وما لا يخفى على الله من عيوبنا ، فاعتمدت [الله] (1) الغنيّ عنّا وعن أعمالنا ، في السعي لصلاح أحوالنا ، وبادرنا الى النظر في أحوال الحيوان ، وهو من أعظم اسباب العمران ، فأبطلنا من الموظّف على بيعه ثلاثة أرباعه ، وكشفنا بذلك عن وجه الإعانة بعضَ قِنَاعه ، ولم نلتفت الى الاسباب الحاملة على اختراعه . ثم حسمنا مادّة تطفيف الكيل ، وتركنا مَرْتَعه الوبيل ، وأرحنا تاجر الله من ذلك الويل ، وتحملنا نقصه الواضح الثقيل ، وغير ذلك مما أعان عليه المقدور والإمكان ، مما يرجع لتيسير أحوال السكان ، والتخفيف عن موادّ البُنْيان . ثم التفتنا الآن الى ما يفرض من تباعات الملح والجلد والمحصولات والدخان ، وغير ذلك مما يفرض على أيدي العمّال بالاوطان ، فرأيناه يُوزَّع على الفقراء ، وتُصَان عنه الاغنياء والكبراء ، مع ما تبعه من سوء سيرة بعض العمال ، المفضية لفساد الاعمال ، ويتعسر فيها إثبات الشكوى ، ولا يمكن الحكم بمجرد الدعوى ، إلى غير ذلك من الاعمال التي لا يحفظها سياج ، ولا يبقى بوجودها عمران ولا إنتاج . فان قطعنا هذه الاحوال — كما هو الامل — من أصولها ، يقع الخلل لقطرنا من نقص محصولها ، إذ لاغنى لارضنا — والحالة هذه — عنها ، والامل في الله الكريم أن يعوّض ذلك مما يخرج منها . وإن أبقينا الامرَ كما كان ، بقيت أسباب النقصان ، ولم يجر العدل في الخلق — وهم عيال الله — والله يأمر بالعدل في محكم القرآن . فرأينا الآن مصلحة المسلمين ، في سلوك أخفّ الحالين . وعلى العبد أن يسعى ، ومن الله نجاح المسعى . وأبطلنا سائر ما كان يُفرَض على الرؤوس من تباعات (2) المحصولات ، والدخان ، والملح ، والجلد ، والاتفاق ، والديوان ، والكبش ،

---

(1) الزيادة من هامش ع .

(2) كذا في خ و ق ، وفي ع : « تبعات » .

والمَجبَى، وخيل الشوك ، وثيران الكرِسْتَة ، وفرس العادة ، والضيفة ، وسائر الطوارىء وغير ذلك من سائر ما اعتيدَ فرضُه وتوزيعه ، على اختلاف أصنافه وأسمائه وأوصافه ، مما يصدق عليه اسم أداء ، تقدم العمل به أو تأخر ، قلّ أو جلّ ، عدا أعشار الحبوب والزيت ، وقانون الزيتون والنخيل ، فانها زكاة مكاسب لا توزيع فيها على الاشخاص ، وعدا ديات القتلى ، لما فيها من الزجر لاهل الفساد ، فانها تبقى على حالها المعتاد . أما الجلد فانه لربّه ، يبيعه لمن شاء ، او يستعمله بغير الدبغ . [واما الدبغ] فانه لا يقع الا في المدبغة [السلطانية] (1) المعتادة ، ونشتري ما يلزمنا منه لمهمات العسكر مثل الناس .

واما الدخان والملح فأبقينا أماكن بيعها بالبلدان والاسواق لمن يريد الشراء من غير غصب ، وفيما يتحصل من ثمنها كفاية .

ومن باع شيئا في سوق أو بلد فانه يؤدي ما رسم على بيعه في الزمام المطبوع لمتولي خلاص ذلك ، من غير زيادة .

ولا بدّ من جبر هذا المسقط الكثير ، المشروح بهذا الظهير ، باعانة من نزر يسير ، تكملة لما يلزم مصلحةَ الوطن ، وتأمينَ مَن عبر وقَطَن . وهو ثلاثة ريالات في كل شهر يُعين بها كلُّ ذكَر بالغ من أهل إيالتنا مصلحة بلاده ، ومدفن آبائه ومنبت أولاده .

ولا يُستثنَى من هذه الإعانة أحد من أهل الخيام والمداشر والقُرى والبلدان ، يستوي فيها المشروف والشريف ، والقوي والضعيف ، عدا نواب الشريعة من قُضاة ومُفتين ، فاعانتهم بتقوى الله في نوازل المسلمين .

والمحقق أن المؤمن يسارع الى هذه الإعانة ، على مقدار رتبته في الديانة .

وقد جعلنا لكل عامل قدر ما رأيناه له كفاية من بيت مال المسلمين ، على اختلاف مراتبهم وأعمالهم ، بحيث لا تمتدُّ يده ولا يطمح نظره او تتوق نفسه لاخذ شيء من الرعية قلّ أو جلّ ، أو زيادة على هذا المقدار .

وان خالف فسترون ما يحلُّ به ، من آثار نقم الله وغضبه .

(1) الزيادة في الفقرة عن ق .

وبابنا مفتوح لكل متظلم ، وآذاننا لسماع الشكاية واعية ، وأعيننا لما يصدر من العمال راعية . ولكل نبأ مستقرٌّ ، وسوف تعلمون .

اما مشايخ العربان الذين عليهم دَرَك (1) العدد والخلاص والمباشرة ، فقد جعلنا لكل شيخ اربعة ريالات ، ثلاثةٌ له وريالاً لخَلاَّصه (2) على كل مائة ، من عين الإعانة التي باشر خلاصها ، فهي من بيت المال لا من الرعية .

وليكن توزيع هذه الإعانة في كل عمل بمحضر علمائه على اختلاف مراتبهم من قضاة ومفتين ونواب وأيمة وعدول وأعيان العمل ووجوهه ومشايخه ، بحسب ما في المكان من الاعيان . ويرفع كل عامل الينا دفترَ ذلك في كل عام ، مصحّحا من العامل ومَن حضر من ولاة الشريعة ، وشهادتهم على من حضر من الاشياخ والوجوه ، ليكون مجموعهم مؤاخذا بدرك ما عسى أن يقع من نقص او تفريط أو محاباة أو تغافل عن بعض أشخاص .

ومن قصّر في هذه المصلحة العمومية الإسلامية فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين، ورفض حبل الله المتين ، وتسبّب لنفسه في العقوبة ، وأعظِمْ بعقوبة خائن ربّه ، وأهل وطنه وحزبه ، ولا يسعنا التجاوز عن خيانته ، وضعف أمانته .

وقد كان الضعيف في هذه المُدَد ، يدفع أكثر من هذا العدد . فاذا نظر بعين الإنصاف لنفسه ، رأى مزية يومه على أمسه ، بشهادة حاله وحسّه . والموسر ان ثقلت عليه هذه الاعانة ، وتلكأ بعدم الاعتياد وأكبر عنها شأنه ، ومنع من فضل الله إخوانه ، وقابل بالإساءة نعم الله وإحسانه ، فقد عرّض نعمتَه للزوال ، بعدم شكر المنعم المتعال . ومن المعلوم بلا نكر ، أن قيد شوارد النِّعَم الشكر ، والتقصير في إعانة المسلمين والإخوان من اقبح الكفران . ومن كفر النعمة ، استوجب النقمة . فمن تلدَّد أو تلكّأ نعيّن له ونشدّد عقوبته .

ولا تجول بحول الله يد عامل من العمّال في شيء زائد على ما حررناه ، وأظهرناه وسطّرناه . ونَظَرُنا باعانة الله وراءهم ، صباحهم ومساءهم . ولا يُذاد (3) مظلوم عن بابنا ، من (4) خواصّنا أو حُجّابنا ، لا سيما بعد هذا الإعلام المرقوم في كتابنا .

---

(1) الدرك : بفتح الراء ، الثقل — التبعة (عامية تونسية) .

(2) الخلاص : مستخلص الجباية بتكليف من الشيخ .

(3) كذا في خ و ع ، وفي ق : « ولا يرد » .

(4) أى من طرف .

اما المدن ، وهي القيروان وسوسة والمنستير وصفاقس ، فحسب الاصيل بها من الإعانة ما أبقيناه بها من اللزم المعتادة ، وهي عند الاعتبار اكثر من هذه الإعانة ، لان المدن مُناخ البضائع والرِّحَال ، وموضع ثمرات الصناعة والانتحال (1) ، في الخِصْب والإمحال ، فلها أحكام تخصّها على كلٍّ حال . هذا في أهلها أصالةً ، أما الوافد عليها فحكمه حكم بلده أو قبيلته ، ولا أثر لسكنى المدينة في نسبته .

كما أن كل منسوب الى بلد أو عرش ، فانه يعين مع إخوته ، من قبيلته او بلدته ، وإن لم ينزل معهم ، أو باعد موضعهم .

ومبدأ خلاص هذه الإعانة شهر يونية الاعجمي من عام التاريخ .

وأكرر تحريض المظلوم على رفع ظُلامته ، وبثِّ شكايته ، وأبرأ الى الله من مظلمته ، ان لم يبادر لشرح حالته . فلم يُقِمنا الله الا لدفع الضرر عن ساحته ، والتبصّر في نازلته .

وأمَرْنا باعلان هذا المنشور في كافّة أهل العمل بمحلٍّ اجتماع المسلمين كالمسجد الجامع [والزمالة] (2) ويحفظ لكل من يريد قراءته ، حتى تمتلىء به الاسماع ، ويمتزج علمُه بالطِباع ، في سائر البقاع ، ويشرع كل عامل على هذا النحو في مباشرة العمل ، ومن الله بلوغ الامل . وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

اللهم إنا مددنا اليك يد الضراعة والإبتهال ، راجين من فضلك الإعانةَ على صالح الاعمال ، فقد قلتَ وقولك الحق : « أدْعُونِي أسْتَجِبْ » ، وأنت الفاعل للمسبِّب والسبب ، والله يجعل رعيتنا وسائر المسلمين من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنَه ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله . والله يرزق من يشاء بغير حساب . والسلام » . [في شوال عام 1272] (3) (جوان 1856 م.) .

وهذه الإعانة — على ما هي — حسنة لهذا الباي منسوبة ، وفي جليل خصاله محسوبة ، بالنسبة الى الحالة المتقدمة من عَيْث أيدي اللزّامة والعمّال في أموال الناس ، فهي من أخفِّ الضررين ، وخير الشرّين . وقد توعّد مَن خالف . وأتبع القولَ فعلاً ،

---

(1) الانتحال : الاحتراف (دوزى) .

(2) الزيادة عن ق ، والزمالة هى مكان تجمع القبيلة أو المعسكر .

(3) الزيادة عن ق .

فعاقب مشايخَ ماجر بالسجن في الكَرّاكة لما اتفقوا على تنقيص جانب من عددهم ، وكاد أن يَفْتِك بهم . وعاقب آخرين على أخذ الزائد بالسجن والعزل ، وأخذَ ما استخلصوه زائداً من أهل الجريد ، لم يبال في ذلك بمقرَّب أو صهر أو وجيه ، فخافته العمّال ، وقَصَرت عن الظلم أيديهم ، وكاد أن ينقطع تعدّيهم . وعاقه الاجل عن إتمام هذا المراد الحسن ، وكاد أن يرجع العمران للوطن .

⁂

وفي هذه المدة توالى ورود المراكب العثمانية والتونسية بمرضى العسكر التونسي ، لانه اتفق ان موضع حربهم كان وَبِيءَ الهواء وخيمَ المرتع . وتحدثوا أن أميرهم أبا محمد رشيد عانى كثيرا من مرضاهم بنفسه مباشرة ، وأبلى في ذلك البلاء الحسن .

وفي يوم الاحد الثاني (1) من ذي الحِجَّة سنة 1272 (3 أوت 1856 م.) ، وصلت المراكب التونسية مع مراكب عثمانية بالعسكر التونسي مع أميرهم رشيد . وقدم رسول من الدولة العلية بنيشان وسيف مرصّع للباي ، ونزلوا بشاطىء العبدلية ضحى يوم الاثنين ثالث الشهر (2 ذي الحجة — 4 اوت) . وتلقّاهم الباي بنفسه ومن حضر من آل بيته ورجال الدولة (2) . ولما وصل الامير قام اليه الباي وتعرض للقائه وعانقه وأجلسه حذوه ، والعسكر ينزل جماعة بعد جماعة ويمرُّون أمام الباي بعلامات افتخارهم ، وهي قطع من الفضّة تشبه المسكوك من الدراهم ، تسمى بالميداليو ، من اختراعات الافرنج ، يعطونها لمن فعل جميلاً حقّه أن يذكر ولا يُنسى ، ولا تُعطَى فيما حقه أن يُنسى . وخيموا قرب بستانه في ضيافته ، واشترى لهم غلة الاجنّة القريبة منهم ، وأباحها لهم ، وسُرَّ بوصولهم .

ونزل رسول الدولة بدار المملكة ببطحاء القصبة ، وقبله الباي في موكب حافل مشهود ، وقبل النيشان والسيف بتعظيم وإجلال .

واحتفل لقدوم العسكر وزاد في مرتبهم . وأمرني ان اكتب لهم بما نصّه :

«من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور إليه ، المشير محمد باشا باي سدّد الله أعماله ، وبلّغه من الخير آماله . الى نخبة الاركان ، وفارس ميادين الجهاد

(1) هو غرة الشهر حسب التقويم .

(2) انفردت ق بهذه الزيادة : « وحضر مع الباي قنصل الفرانسيس بغير استدعاء ، حرصا على الامتزاج وطلبا للمداخلة » (ق 3 : 20) .

والعرفان ، أمير الامراء ، وفخر الكبراء ، ابننا رشيد وكافة من معه من ابنائنا ، وشعارنا ودثارنا ، وحامية بلادنا ودارنا ، العساكر التونسية وضباطهم ، تقبل الله جهادهم ، وأدام إسعادهم ، وقوّى استعدادهم ، وبلّغ مرادهم .

أما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان مقام أبيكم ، بحسن الاوبة لوطنكم يهنّيكم ، ويرجو الله أن يرى أكثر مما رأى فيكم ، وان كان الهناء لنفسي ، لان جمع الشمل بكم أعظم أنسي ، وطالما تعب لفراقكم قلبي وحسّي . فالحمد لله على اجتماع الشمل بأولادي الابرار ، وأحبتي الاخيار ، بعد أن حصلوا من السعادة مقدارا جسيما ، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما . ونترحم الى (1) من سبق إلى الجنة دار النعيم والقرار ، والدار الآخرة هي الدار . فهنيئا لهم بمزية الشهادة ، والفوز بالسعادة ، والنعم التي لم تزل بفضل الله في تجدد وزيادة . وقد شغلنا السرور لهم (2) عن الحزن عليهم ، لما أعدّ الله من جزيل نعمه إليهم . ولا تتأسف الابطال ، على الموت في مواطن القتال . وفخر الرجال ، بالصبر عند الاوجال ، والموت في هذا المجال ، وللاعمار آجال ، لا تزداد بتأخر ولا تنقص باستعجال ، سقاهم الله من حياض الرحمة بسجال .

ثم أهنئكم ونفسي على لسان بلادكم ، ومناط حبكم وغاية مرادكم ، فانها تقول لكم بلسان الحال ، وهو أبلغ من لسان المقال : يا بررةَ أولادي ، ومن على غيرتهم بعد الله اعتمادي ، قد طال من بعدكم سُهادي ، وتشوّف لخبركم ناظري ومسمعي وفؤادي ، فالحمد لله الذي أكرمني بكم في الخواتم والمبادي ، وبلّغني بجميل سيرتكم مرادي ، ألبستموني أردية الذكر الحسن ، الدائم بدوام الزمن ، بسيرتكم في أحسن السنن . آثاركم والحمد لله مشكورة ، وطاعتكم في الامر والنهي مذكورة ، وأعلامكم باعانة الله منصورة ، وصيانتكم لاعراضكم مشهورة ، وأخبار عفتكم ونزاهتكم منشورة ، وهممكم على ما يُثمر جميلَ الذكر لوطنكم مقصورة . فأهلاً وسهلاً بقدومكم ، واجتماع شملكم بسيّدكم ومخدومكم ، لقد سرّ بحمد الله خبرُكم المونس ، أباكم محمدا وأمّكم تونس . فالشكر لله على آلائه ، وبالشكر نستزيد من نَعمائه .

(1) كذا في خ و ع و ق .
(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « السرور بهم » .

هذا ، وإن الاب يعين ولده على البُرور ، ويَجزْيه على الفعل المشكور . فلذلك زدنا لجميعكم الخمس في مرتّباتكم ، على اختلاف درجاتكم ، لكم ولمن لم يَحضُر معكم ، من العساكر النظامية إخوانكم ، لقيامهم في مغيبكم بحراسة أوطانكم .

وأملي في الله مُبَلّغ الآمال ، أن نرى منكم أكثر من هذه الخدمة وفوق هذا الكمال ، وأوصيكم بالمثابرة على صالح الاعمال ، في سائر الاحوال ، فبصالح العمل يدوم لكم ذكر هذه الخصال . ويقبح بمن ذُكِر بالجميل أن يُتبعه بضدّه ، ويدنّس بنفسه وَجْهَ مجده ، ويضيع ما حصله بتعبه وكدّه . وبفضل الله لا يضيع لكم عمل ، ولا يخيب فيكم أمل .

اللهم يا سامع الاصوات ، ومجيب الدعوات ، احفظ هذا القطر وبنيه ، وعمّر بالعافية قاصيه ودانيه ، وشيّد بالحق مبانيه ، وبلّغ إمامَه من المصالح أمانيه ، وأعِنْ جميع المسلمين على الاعمال الصالحة ، والمساعي الناجحة ، وتجارات الخير الرابحة ، بحرمة المصطفى وأسرار الفاتحة » . وكتب في ذي الحجة سنة 1272 (اوت 1856 م.) .

وبعد أن تمت مدة ضيافته للعسكر ، سرّحهم لاوطانهم مدة طويلة تناسب مدة مغيبهم .

*

وفي يوم السبت الثامن عشر (1) من الشهر أبطل مرتّب دار الباشا .

وذلك ان الشبان من جند الترك وأبنائهم رسموا في ديوان الجند النظامي ، وبقي في مرتب دار الباشا مَن لا قدرة له على الخدمة . والعادة السابقة في جند الترك أنّ من يُقعِده العجزُ عن الخدمة ، يرسم في الدفتر متقاعدا ، بمعنى أنه يأخذ اربعة نواصر في اليوم ولا يباشر خدمة . وأكثر من بقي بدار الباشا أبناءُ البلاد من أولاد الترك . فقال : « اما الترك فقد جاءت بهم أسلافُنا من أوطانهم وذهب شبابهم في الخدمة ، فلا بدّ من العناية بهم . وأما أبناء البلاد فان من يخدم العسكر النظامي يأخذ المرتب ، ومن لا يخدم فهو كسائر أهل البلاد يعيش بحرفته » . وأغلق دار الباشا ، وجمع سائر الاشياخ والعواجز من جند الترك في قشلة واحدة ، وأجرى لكل واحد منهم عشرة ريالات في الشهر، وهي أكثر من مرتب المتقاعد بمقتضى العادة السابقة ، ولم يُعطِهم الخبز المعتاد .

---

(1) الثامن عشر حسب الرؤية يوافق يوم الثلاثاء 19 اوت ، وحسب التقويم يوم الاربعاء 20 اوت ، لا يوم السبت .

ولما دالت الدولة لاخيه أبي عبد الله محمد الصادق باي ، أجرى لهم الخبز .

وصارت دار الباشا لبعض مهمات العسكر النظامي . وصار ديوان الترك دارا لمجلس الشريعة أعزها الله تعالى .

وأمر الباي شيخ الإسلام أبا عبد الله محمد بيرم باصلاحه من حبسه ، وطالت مدّة الاصلاح .

☆

وفي الشهر ظهر بالحاضرة المرض الوبائي المعروف بالكوليرة . ودام في الحاضرة مدة قليلة ، وظهر من صبر الباي وتوكله على الله ما أزال جزع أهل البلاد ، ولم يتحفّظ منه بكرنتينة ، ووقع بداره فكان يعود المرضى به [كما فعل أبوه زمن الوباء] (1) .

وفي زمن هذا المرض بلغه ان البعض من عروش جبل باجة امتنعوا من أداء الإعانة التي رتّبها .

وذلك ان هذه الإعانة لما ترتبت ، خفّت على من قطعت المغارمُ أوصالَه واستأصلت آماله ، وثقلت على الاعيان وعلى من لم يعتد الاداء ، وان كان يؤدي أكثر منها من جهة الدخان والجلد وغير ذلك ، لما في نفوس المسلمين من نفرة الاداء على الرقاب ، شبه الجزية . ومنهم عرش ماكنة وخمير ووشتاتة وبعض الشيحية ومن انضمّ إليهم ، فشنوا الغارات على سوائم الناس ، وأخافوا السبيل ، ومدّوا أيدي النهب والفساد .

وخشي الباي أن يسري هذا الفساد في المملكة وفي الصحراء وبها يومئذ غُومة المحمودي في جمع من إخوته يوقد في نار فتنة ، فحسم الداء قبل انتشاره ، وأمر أخاه أبا عبد الله محمد الصادق باي بسفر المحلة على العادة ، وزاد في قوتها من عدد العسكر والمدافع ، وأمره بغصبهم على أداء الإعانة أو يقاتلهم ، فخرج بالمحلة يوم الخميس الحادى والعشرين (2) من ذي الحجّة سنة 1272 (21 اوت 1856 م.) ، غير مكترث بوجود المرض

(1) الزيادة من ع و ق .

(2) الخميس هو 20 ذى الحجة حسب الرؤية ، و 19 منه حسب التقويم .

في المملكة ، متدرعا جُنّة التفويض ، سالكا نهج أخيه [وأبيه] (1) في التوكّل على الله وخلّص الجباية ، وخاطب هؤلاء العروش بالانقياد إلى هذه المصلحة ، فامتنعوا . وناوشهم القتال ، فأبَوا . ثم أرهف لهم الحدّ ، وقاتلهم ، واقتحم جبلهم وأخذَهم . ولما رجع العسكر ، شكر شجاعتهم وشدّة بأسهم ، بكلام نفيس . وكاتب أخاه بخبر النصر ، والثناء على من معه ، وأنهم أبلوا البلاء الحسن . وطلب منه مكتوبا لهم ، تنشيطا لقلوبهم ، فأمرني أن أكتب لهم بما نصّه :

« من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور إليه ، المشير محمد باشا باي سدّد الله أعماله ، وبلّغه من المصلحة آماله ، وأعان عساكره وأعوانه وعمّاله ، ووفق للخير من قلّده أمرَهم في كل حالة . إلى أمير الامراء وفخر الكبراء ، وأوثق العُرَى ، والعمدة للمهم اذا طرا ، ومن أراني الله ثمرة خدمته ونؤمّل أن نرى ، أخي وعضدي ، والسيف الذي تصول به يدي ، وعدّتي ومعتمدي ، أخونا سيدي محمد الصادق باي لا زالت عزائمه صادقة ، ومحاسنه متناسقة ، وخصاله بالثناء عليه ناطقة ، وعناية الله به وبمن معه مصاحبة مرافقة .

أما بعد سلام كريم ، طيّب عميم ، يعمُّ جموعكم وآحادكم ، وأعوانكم وأنجادكم ، فان مكاتيبكم بالغت في الثناء على من معكم ، من أولادنا الطبجيّة ، والعسكر والمخازنية ، الذين أمرتهم بتشريد جملة العصاة من الجبالية ، وانهم بذلوا في خدمتنا نفوسهم الابية ، حتى شهدتَ لهم الخصال المرضية ، ووقفوا عند أمرك ونَهْيك ، وظهر بهم نجاحُ سعيك ، وأثَرُ رَعْيك ، وزيّنوا مواقف الابطال ، وأظهروا شجاعتهم في كل حال ، وتدرعوا بالصبر في حَوْمة القتال ، وهو أعظم دروع الرجال ، واستسهلوا أوعار الجبال ، وذلك أملنا فيهم ونشكر الله على تحقيق الآمال ، كما ندعوه أن يصلح من رعيتنا الاعمال . ومن شفقتي عنهم (2) ، أنه يسوؤني ، بشهادة الله ، فَقْدُ واحد منهم ، لكن مصلحة جمهورهم ، والسعي في نجاح أمورهم ، يقتضي أكثر من هذا الادب ، وهو أقلُّ من قدر الذنب والغضب . قال الله تعالى في محكم كتابه المبين : « وَلَوْلاَ دفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الارْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ » (3) .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) كذا في خ و ع و ق .
(3) س 2/آ 251

ونرجو الله ان يجعل هذه مقدمة هداية ومتاب ، لا مقدمة تنكيل وعذاب ، ووراء ذلك عقاب الله والله سريع الحساب . ونشكر سعي من اخترتهم ، ولهذه المقدمة أرسلتهم ، عامتهم وأعيانهم ، ورجالهم وفرسانهم . لقد فازوا بمرضيّ الطاعة ، كما حازوا وصف الشجاعة . ومن العناية بهم أن وجّهنا لكم هذا الكتاب المخصوص . في الثناء على صبرهم وإقدامهم وبناء صفّهم المرصوص . جعلهم الله من الذين يقاتلون حتى لا تكون فتنة ، وقوّى بهم عضد الصلاح (1) ومتنه ، وهو المأمول في سائر عساكرنا وفرساننا وأعواننا ، والموفقين من رعيتنا .

وندعو لك حيث فعلت الواجب من الشهادة لكلّ ذي حق بحقّه ، ورسوخ قدم صدقه .

فاجمعْ سائر من معك من الطبجية ، والعسكر والمخازنية ، والضبّاط والاعيان ، ووجّه لهم من يقرأ كتابنا هذا عليهم في ميدان ، حتى تعيه كل أذن واعية ، ويتحققوا أن عيننا لهم راعية ، وأن حميد أثرهم لا يُجحَد ولا يُنكَر ، بل يُردّد ويشكر .

والله يرزقهم النصر الجميل ، ويحقق في جميعهم التأميل ، ويزيدهم من الغيرة والثبات ، وينصرهم في الصفوف والوثبات ، ويجمعني بهم منصورين محفوظين ، وبعين العناية ملحوظين .

والسلام على من اعتصم بحبل الله المتين ، واتّبع سبيل المؤمنين ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

وكتب في 14 صفر سنة 1273 (الثلاثاء 14 اكتوبر 1856 م.) .

ولما وصل هذا المكتوب لباي المحالّ أبي عبد الله محمد الصادق ، جمع الضباط والمخازنية والاعيان من العروش أمام وطقه ، وخرج بنفسه لسماعه مع الجماعة بتوقير واحترام. وخطب به كاتبه البارع ابو عبد الله محمد العزيز بوعتّور ، وأثّر في نفوس السامعين أثرا جميلاً . وختم المشهد بدعاء نفيس من إنشاء كاتبه المذكور ، ونصه :

« سبحانك اللهم يا من تفضّل بالنصر المبين ، وأوضح آثار وعده وهو أصدق القائلين . ولك الحمد على ما أسبغت من الصبر الجميل ، وأوليت من النصر الجليل ، لحماة

(1) كذا في ع و ن ، وفي خ : « المصلحة » .

هذه البلاد ، المنزلين من أميرهم منزلة الاولاد ، العساكر الجهادية ، والفرسان من المخازنية ، ومن بيده من مولانا قيادُهم ، وإلى أمانته موكولة جموعهم وآحادهم . وفرّ الله أعدادهم ، وزان بهم قطرهم وبلادهم ، ورشّح بالاستحسان لآثارهم أبناءَهم ،وكَبَتَ بهم أعداءهم . ولك الشكر على سوابغ النعم ، وما أوليت من الفضل والكرم . والصلاة والسلام على سيد البشر ، وأفضل من انتصر وظهر . وعلى آله وأصحابه فرسان الميادين ، وحفظة الدين ، ما ابتهجت الاسماع بالثناء الحسن ، وتناقل الذكرَ الجميلَ من عَبَر وقطن .

اللهم انا نستمدّ من فضلك النصر العزيز ، والإعانة على ما يثمر التقديم والتبريز ، لانصار الإسلام ، ومن بهم النقض والإبرام ، ببقاء مولانا وسيدنا قطب الفلك ، ونور الحَلَك ، والمطاع فيما ملك ، والمقتفى به حيثما سلك ، إمام المسلمين وحافظ الملّة بالاجناد والانصار ، ومن على اتباعه المدار ، مولانا وسيدنا المشير أخينا ، ومحلّ أبينا ، ومَن بركة مرضاته ظهرت لدينا وفينا ، سيدي محمد باشا باي .

اللهم بلّغه ما يؤمل في بلاده ، وآساد جِلادِه ، وما يطلبه ويقصده ، ويستحسنه ويحمده . وتجعل الاعانة لسائر الاجناد ، في كل بلاد ، ومن مرضاته التي دل عليها كتابه الكريم ، المبشر بالمبرة والتكريم . وهو المسؤول ان يشمل حضرته وآله بالحفظ والحماية ، ومزيد الرعاية ، وان يجعل هذه الوجهة محمودة العواقب ، متلوة المناقب ، جارية على وفق رأيه الثاقب ، ويمنح من مرضاته الخطط المحمودة ، والآثار التي هي في أنواع المكرمات معدودة ، من (1) هداية من قلده الله أمرهم للطاعة ، ولزوم الجماعة ، ويُجري على يديه الآثار الصالحة ، ويلهمه للاراء الناجحة ، ويجعل نواسم فضله نافحة ، وكتائب نصره غادية رائحة ، بحرمة النبي وأسرار الفاتحة » .

وانفضّ الموطن (2) على سرور ، وسعي مشكور .

وأبلى أبو عبد الله محمد الصادق باي في هذه المحلة البلاء الحسن ، ومهّد العافية ، وردّ الحقوق ، وأنصف المظلوم .

وجعل الباي عصيان هؤلاء نَسْيا مَنْسيا ، ونبذه ظِهْريا كأنه لم يكن ، كما هو الواجب في سياسة الرعيّة .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ن : « في هداية » .
(2) في ع و ق : « الموكب » .

وفي محرم من سنة 1273 ، ثلاث وسبعين (سبتمبر 1856 م.) ، جهّز الباي محلة قوية أميرها ابو عبد الله مَحمد خزنه دار عامل سوسة ، وهو يومئذ عامل الاعراض أيضا ، لتشريد غومة المحمودي من الصحراء .

وغومة هذا من سَراة قومه المحاميد ، ومن شيعة بيت قرمانلي بطرابلس . ولمّا ثُلّ عَرْشُها باختلاف آلها ، دخل الصحراء وشنّ الغارات في وطن طرابلس ، والدولة تتربص به الدوائر حتى أوبقه ذنبه وتمكن به الباشا الوالي بطرابلس ، وبعثه معتقلاً إلى اسلامبول ، فصدر الحكم عليه بالنفي الذي هو أخفّ عقوبات المفسد . وفرّ من موضع نفيه فأتى وطن طرابلس ، وقد تمهدت فيه العافية بعد مقاساة الشدائد والهَرج ، فتوقع الشرّ فأتى الوطنَ التونسي ، ونزل بأطرافه من جهة الاعراض . وكاتب الباي ليقبله أو يشفع فيه عند الدولة العلية . وتوسل في مطلبه بقنصل الفرنسيس [ليون روش] ، فأتى الباي وحسّن له قبوله ، وقال انه استجار بحرمك إلى غير ذلك . وحذّر النصحاءُ الباي من تداخل قنصل ، اي قنصل كان ، في احوال المملكة ، ومن عاقبة هذا القبول ، فقبله غير مفكر في عاقبة أمره [شأن ملوك الإطلاق] (1) ، واقفا عند ظاهر الحال ، واستهان به ، وكاتب الدولة العلية شافعا فيه ، فأجيب بأنه من المفسدين في الارض ، والحرم لا يعيذ فاراً بدم .

وطلبت منه الدولةُ إعانة الباشا بطرابلس على القبض عليه ، فأنف لذمته أن تُخفَر ، وبقي غومة بأطراف المملكة [والرسل تتردد بينه وبين قنصل الفرنسيس] (2) . والتفّ عليه أتباعُ كلّ ناعق من اهل الفساد الذين يطلبون الرزق بسلاحهم . وأحسّ الباي منه بمبادىء الشر ، فكاتبه على يد قنصل الفرنسيس بأن يرحل لدواخل العمالة ، قرب القيروان او الحاضرة ، فتعلل بتعذر ذلك عليه لكثرة من معه بسوائمهم ، وواسطته قنصل الفرنسيس يَحْطِب في حَبْله ويستر مساوئه .

ولم يزل يفسد في العربان ويستميل ضعفاء العقول بالتنفير من أداء الإعانة بأنها جزية مضروبة على العرب المسلمين ، الى غير ذلك . والشح بالمال في الجبلة الإنسانية . وعلى كلٍّ يُستطاع ، إلاّ نقل الطباع . وكفّ العقارب عن لسعها ، تكليف ما ليس في وسعها .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

ولما تفاقم الامر وكـاد أن يتّسع الخرق على الراقع ، لزم الباي تلافي الحال ودفـع الضرر ، فجهـّز هذه المحلـّة بالفرسان من المخازنية ، وأمر العروش القريبة من تلك الناحية بالالتفاف على المحلة . وبعث بها آلايا كـاملاً من عسكـر النظام بالساحل ، وما يلـزمه من المدافع والطبجية ، ولم يستقدمهم للحاضرة رفقا بهم ، وأمر أمير المحلة بقودهم لما يصل سوسة . وأطلق يده في الاستنجاد بمن يريده من العروش والعسكـر . وتطوع أمير الامراء ابو محمد رشيد بالسفر مع عسكـر المحلة طوع إذن أميرها ، لما في هذا الامير من السياسة التـي يقود بها أنظاره وأكـفاءه .

ونصّ ما كـتبه لهذا الامير :

« من عبد الله سبحانه المتوكـل عليه ، المفوض جميـع الامور إليه ، المشير محمد باشا باي ، وفقه الله لما يرضاه ، وأعانه على ما أولاه ، والى طرق الصلاح هداه ، والهدى هدى الله . الى حماة الوطن والدولة ، وأهل الغيرة على الإمْرة والصولة ، خاصة أولادى ، ومن محلـّهم وإن بعدوا في فؤادي ، كـافـّة العسكـر والضباط والفسيالات المأمورين منـّا بالسفر إلى الاعراض مع أمير الامراء ، وفريدة الـكـبراء ، وفخر الاركان الوزراء ، السيف الامضى ، والثقة المعتمـَد الارضى ، ابننا محَمد أمير الاعراض ، قرن الله بالنجاح مسعاهم ، وحـَفـِظهم ورعاهم ، وحمى حماهم ، وثبـّت على قوس الطاعة مرماهم .

أما بعد السلام عليـكم ، وملازمة الدعاء إليـكم ، فانـكم بقوّة الله أعظم قوّتـي ، ومظهر صولتـي ، بغيرتـكم أقتاد العصاة من نواصيها ، ولا يبعد بشجاعتـكم قاصيها ، ويدين لامر الله بالطاعة متعاصيها . وقد قرن الله سبحانه النجاح والظـّفـَر بطاعة المـأمـور للأمير ، في الشاقّ واليسير ، والقليل والـكـثير ، ولا ينبئك مثل خبير . وطاعة الامراء والولاة من أول واجباتـكم فلايخفى عنـكم ، وسبحان من يقـول : « يـَا أَيـُّهـَا الـَّذِينَ آمـَنـُـوا أَطِيعـُوا اللّـَهَ وَأَطِيعـُوا الرَّسـُولَ وَأولِـي الاَمْـرِ مِـنـْكـُمْ » (1) ، والإخلال بـواجبها قطع لسلك كـلّ جماعة ، وهو السبب الاعظم ، والعياذ بالله ، في الإضاعة . وأنتم بحمد الله معتصمون فيها بحبل الله المتين ، وإنما امتثلت قول الله : « وَذَكـِّرْ فـَإِنَّ الذِّكـْرَى تـَنْفـَعُ المـُؤْمـِنـِينَ » (2) .

---

(1) س 4/آ 59 .
(2) س 51/آ 55

وهذا أمير محلتكم ، المحوطة بأمن الله وهمّتكم ، الذي اخترتُه لإعزاز رايتكم ، وإظهار شجاعتكم ، المبنية على أساس طاعتكم ، كما اخترتكم لبذل النفوس في إنفاذ ما يأمركم به وقد وعاه عنّي ، اذ هو معكم كالجزء منّي . فحسبه أن يأمركم بما هو مأمور به من الاعمال ، وحسبكم المسارعة للامتثال ، في أي جهة وعلى كل حال . فارفعوا اليه سائر أموركم ، مما يتعلق بمفردكم وجمهوركم ، وقد أذنتُه أن يتصرف بما يراه في أميركم ومأموركم .

واعلموا انه يباشركم بيدي ويأمركم بلساني ، وهو وان بعد عني فهو نُصْب عياني ، لانه الثقة الامين على ما يراه منكم ، ويُنهيه إليّ عنكم .

وأرجو الله أن يسمعني ، ما ينفعكم ويسرُّني . وهو المسؤول أن يسدّد منكم القول والعمل ، ويبلّغني من صلاحكم غايةَ الامل .

وقد أمرنا العمدة الثقة الاحزم الاحظى نخبة الاركان ، وعمدة أهل الشان ، وفارس ميادين السيف والسنان ، أمير الامراء ابننا رشيد أن يعلن بقراءة هذا الظهير على جمعكم . حتى يمتزج أمره ونهيه بقلبكم وسمعكم . فأنتم الاولاد البررة الطائعون ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

ويبقى هذا الظهير بعد قراءته في موكبكم ، بيد من قلّدتُه في هذه الوجهة أحكامكم ، وجعلت بيده التي هي يدي زمامكم . وقد أمرتُه ان تكون قراءته بمرأى منه ومسمع ، في ذلك المجمع .

واستودعكم الله الذي ما خاب طائعه ، ولا ضاعت ودائعه ، والله وليُّ المؤمنين ».
وكتب في العشرين من ذي الحجة الحرام سنة 1273 (السبت 20 سبتمبر 1856) .

ولما وصل هذا الامير الى نحو غومة كاتبه مخيّرا له بين أن يرحل لدواخل المملكة أو يبعد عن أطرافها ، وإن خاف يبعث معه من يوصله لمنجاته ، فتعلل (1) . وأفضى الحال الى حرب في مفاوز الصحراء ، فقاتله حتى شتّت جموعه وشرّدهم ، وفرّ ناجيا بنفسه ، وقتل بعد ذلك [في الصحراء] (2) .

(1) في ع و ق : « فامتنع » .
(2) الزيادة عن ع و ق .

وكانت مدة السفر بهذه المحلة ستة اشهر . [وأبلى هذا الامير البلاء الحسن] ، واستولى على بعض بلدان نفزاوة . وأمره الباي بقطع نخيلها ، فتثاقل وراجع الباي واستعطفه. ومهّد تلك الجهة ، واعاد لها العافية والراحة ، وأمن الساحة ، ورجع منصورا مشكورا . وظفر بمكاتيب كثيرة [لغومة] (1) من بعض أهل الفساد والنفاق ، أتى بها للباي ، فأعرض عن مطالعتها كل الإعراض ، وداوى بهذه السياسة القلوب المراض . وذلك أنفع علاج ، في بقاء ما للملوك الإطلاق من السياج . ولله درُّ القائل :

اذا أنت لم تغفر ذنوبا كثيرة   تريبك ، لم يسلم لك الدهرَ صاحب

ومن لم يغمّض عينه عن صديقه   وعن بعض ما فيه ، يَمُتْ وهو عاتب

شأنَ السياسة المرعية ، بين الراعي والرعية (2) .

***

وانتقل الباي الى سكنى بستانه في المرسى ، أوائلَ هذه السنة 1273 ، وأناب شقيقه وولي عهده يباشر الامور ببيت الباشا في باردو ، بعد ان زاد في بستانه ، ونمّق ما شاء من بنيانه .

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) بهامش ق 3 : 28 يوجد ما ياتى :

بيان التقارير المذكورة يسراه (؟)

بمقتضى التقرير المؤرخ فى 25 ربيع الاول ، والتقرير المؤرخ فى 26 منه ، سنه 1274 ، أن امير المحلة أمر العسكر والمخازنية بهتك حرمة نساء بنى زيد . ولما اشتكوا له من ذلك ، آمر بجلدهم خمسمائة جلدة ، واخذ منهم اموالا . ومقتضى التقرير المؤرخ فى 11 ربيع الثانى سنة 1274 أن المحلة رحلت من قبلى واخذت منها عشرة (كذا) نساء ، منهن تسعة (كذا) اعطيت للخدام ، وواحدة التى هي احسنهن واصغرهن ، زوجة ابن شيخ قبلى ، أتى بها أمير المحلة فى كروسة ، وجعلها فى قيطون تحت نظر عسة ، واصطفاها لنفسه ، وجعل زوجها وحماها فى السلاسل ، مع مائة وخمسين من اهل البلد . وبيعت املاك اهل قبلى بتمامها للمكرم محمد الحبيب بن حسن بن احمد السودانى خليفة تلمين ، بمائة الف وخمسة وعشرين الف ريال صغرى تونسية ، بعد أن هدمت بلادهم ، وهنكت حرمة نسائهم من امير الجيش واتباعه ، ونهى الباقين من اعادة بنائها ، وقد ذكر فى رسم البيع المؤرخ فى 29 ربيع الاول 1274 ، ان ذلك بناء على حلم مولانا أيده الله وحنانه وشفقته واحسانه ، حيث ساسهم بالحلم ، ولم يعاقبهم على قدر الجرم .

واما جواب امير المحلة للوزير الاكبر عن الامر الصادر له بقطع النخيل ، فقد وجدناه بخطه ، فأثبتناه هنا بحروفه . ونصه : « الحمد لله . سيدى رعاكم الله وبقاكم . قولكم على الشقى غومة ان جاء فى يدى تكون مهنى منه . وان شاء الله بسعد ولى نعمتنا يحصل ، ان نصبح سى على ساسى . ونازلة النخيل وهدم البلد ، علمنا مقصودكم . وربنا ان شاء الله يبقى مولانا ايده الله . وما عرفننا عن اخينا صاحب الطابع آنه الآن بالاطالية ، عطاه الله سبحانه وتعالى ، هو يتخلع والناس فى كراكة . ربنا ان شاء الله يبقى اجود (كذا) المعظم سيدنا ايده الله ونصره بمنه آمين . والسلام من مقبل ايديكم محمد . ليلة الاحد فى 15 صفر سنة 1274 .

وفي صفر من السنة 1273 (اكتوبر 1856 م.) ، قدم أبو محمد خير الدين من فرانسة ، لامور تتعلق بنازلة محمود بن عياد ، ورجع في الشهر بعد أيام .

*

وفي أوائل ربيع الانور (اوائل نوفمبر) ، تفضل الباي بنيشان آل بيته على وزيره وثقته أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، وتشرف الوزير بقبوله ، وقال له : « ان آل بيتك يحملون هذا بلا مكتوب ، اعتمادا على نسبهم الشهير الواضح ، ومثلي لا يحمله الا بمكتوب ، ليقع الفرق [بين من يستحقه أصالةً ، ومن يناله بمحض الفضل] (1) ، فأمرني بانشاء مكتوب له ونصه :

« الحمد لله الذي ألّف بين قلوبنا فأصبحنا بنعمته إخوانا ، وأقام صالح العمل على الرضى عنوانا ، وخصّ باسعاده مَن شاء من عباده تفضّلاً وامتنانا ، فأطلق بالخير منهم يدا وأنطق بالصدق منهم لسانا ، أحمده وكل شيء يسبّح بحمده سرا وإعلانا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث لكافة الخلق رحمةً وأمانا ، فملأ القلوب نورا وإيمانا ، وجزى المحسنَ إحسانا ، وناهيك أن جعل من آل بيته سَلْمانا ، وعلى آله وأصحابه الذين شيّدوا من معالم ملته بنيانا ، وبلّغوا الينا سِيَره وأحاديثه صِحاحا حسانا ، وانتضوا لإعزاز كلمته صارما وسِنانا ، وكانوا على البرِّ والتقوى أعوانا ، فلو أنفق أحَدٌ مثلَ أحُدٍ ذهبا ما بلغ مَدَى أحَدِهم جزاءً ووِزَانا .

أما بعد فاننا أصدرنا هذا الظهير ، والإعلان الشهير ، لكافة الافاضل أهل مجلسنا العلي بالشريعة المحمدية ، ونوابنا في القضايا الدينية الشرعية ، وحماة مملكتنا الاركان الوزراء ، والاعيان أمراء الامراء ، وأمراء الالوية وأمراء الآلايات ، وقائمي المقامات ، وأمناء الآلايات والبنباشية ، وسائر الجنود العسكرية ، والقواد والمخازنية ، وأولي الولايات العرفية ، على تعدُّد أصنافهم ، واختلاف أوصافهم ، ليعلموا أن الوزير ، الصدر الشهير ، أثير الدولة ، ومن له في ميادين الكمال سبق وجولة ، نخبة الاركان ، وفخر أهل الرفعة والشان ، تربية بيتنا ، المقرب عند حيّنا وميتنا ، المستحق للايثار ، لحميد الآثار ، وزير العمالة وأمير

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

الامراء إبننا مصطفى خزنه دار ، لا زال جميلَ الذكـر ، عند أولي الذكـر ، تحققنا من أمانته ، ونصحه وكـفايته ، ونجاح تدبيره وحسن درايته ، وبذل الوسع في خدمتنا إلى منتهى غايته ، وقصره على مصالحنا بقلبه وقالبه وعنايته ، فأحْمَدَنا به الخُبْرُ ، ويحمد به الخَبَرِ، حتى رأيتـه بمنزلـة الابن الصالح الابرّ ، ولا غرو في تنزيل أهل صِدْق الوِدَاد ، منزلـةَ الاقارب والاولاد ، وقد قيل : المودة في اهل النُّهَى نسب ، ومن فاته النسب الموروث لم يفتـه النسب المكـتسَب ، وهـو أول مـا يعـدُّ من مفـاخـر الحسب ، لا سيما والنسب الروحانـي ، يعادل النسب الجسمانـي . فلذلك طوَّقْنا هذا الوزير الذي وجدناه أزْرا واقيا ، وذخرا إن شاء الله تعالى باقيـا ، بنيشان بيتنا ، المخصوص بآلنا في ممـلـكـتنا ، ولم نجد لإظهار عنايتنا سواه ، وهو الاهل لما ناله بما حواه ، تقدم لنيله بنفسه ، على أبناء جنسه ، ومنابت غرسه ، والشـكـر على الجميل واجب ، والعمل الصالح لا يَحجُبه حاجب ، والله يقـول : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » (1) ، وذلك مقتضى الطبع والعقل والعـادة ، وبه قـادت السادة .

وقد ألبستُه النيشان قائما بيدي ، اذ هو الجزء من جسدي ، داعيا الى الله أن يسدّد منه القول والعمل ، ويبلّغنـي من ثمرات خدمته غايةَ الامل ، وهو وليٌّ إعانته وتوفيقه ، وما توفيقـي الا بالله عليه توكـلت وإليه أنيب .

والسلام من الفقير إلى ربه عبده المشير محمد باشا باي صاحب المملكـة التونسية » .

وكـتب في أشرف الربيعين سنة 1273 .

⁂

وفي يوم الخميس السادس عشر (2) من الشهر (13 نوفمبر 1856 م.) ، جمع الباي رجال دولته وأتى دار الشريعـة التـي كـانت ديوان جند التـرك ، بعد أن تمّ إصـلاحها . وتلقّاه أهل المجلس الشرعـي ، ووقف أمام بيت الحـكم ، وقرأ على لسانه شيـخ الاسلام ابو عبد الله محمد بيرم خطبة بليغة من إنشائه . وبعد تمامها دخل بيت الحـكم وجلس بموضعه منها ، والعلماء عن يمينه وشماله ، وأذن للخصوم فدخلوا ، وانفصلت نوازل ، ثم قرأ الفاتحة وخرج .

(1) س 10/آ 26 .

(2) هـو 15 حسب التقويم .

ونص ما خطب به الشيخ وأمضاه الباي ، وهو الآن معلق ببيت الحكم :

« الحمد لله الذي جعل الشريعة المحمدية ديوانا للاحكام جامعا ، وفرض على كل مسلم أن يكون لما تُبْرِمُه وتَنْقُضه سميعا طائعا ، وحضّ عبادَه على الانقياد إليها ، والتعويل فيما يَعرِض لهم عليها ، فقال في مُحكَم كتابه تقريعا لمن حاد عن ذلك وتفهيما : « فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » (1) . والصلاة والسلام الاتمّان الاكملان على سيدنا محمد يَنْبُوع أحكامها ، ومُمسِك زِمامها ، وناشر أعلامها ، ومميّز حلالها من حرامها ، وعلى آله وأصحابه القائمين في نُصْرة شريعته الغَرّاء بقلوبهم وقَوالِبِهم ، المنقولة في حفظها وتأسيسها واضحاتُ مسالكهم ومدوّنات مذاهبهم.

هذا والحقُّ أحقُّ ان يُتَّبَع ، وما عظمت فائدته جدير أن يُتَلقّى بالقبول ويستمع ، خصوصا ما كان مثمرا لإعلاء منار الشريعة ، ومظهرا لجلالتها ومناسبا لمكانتها الرفيعة ، وذريعة لان يمتد لاحكامها البساط ، ويُجريَ قانون أهلها على أقوم صراط ، من المثابرة على الانتصاب لتلقّي الخصوم ، وتعجيل ايصال الحقوق الى أربابها والمبادرة الى كشف ظلامة المظلوم ، والتمكن من تشاور العلماء الذي لا تلمع بروقه في سماء المذاكرة الا تبعها الغيث النافع ، واجتماع الكلمة الذي هو أعون على الإذعان فلا ينقلب المحكوم عليه الا وهو لما جرى عليه من الحكم خاضع . وسدٍّ باب روغان المتحيّلين ، بطلب عرض قضاياهم على العلماء المفتين ، فيجدون بذلك فسحة لنسج حلل تتقنها أنامل التزوير ، ويعسر تمزيقها بعد ذلك النسج المحكم حتى على الناقد البصير . ويطول على الغرباء الوافدين على الحضرة لفصل قضاياهم المشكلةِ الامد ، وتلازمهم المصاريف الوافرة وتمضي عليهم في تحمل هذا العناء الشديد الليالي ذوات العدد . وقد صدر الامر العالي الجالب لجانب الشريعة جميعَ ما ذكر من المحاسن ، الصارفُ عنها ما أشيرَ إليه مما هو لساحتها المطهرة شائن ، من حضرة ملك القطر الافريقي وإمامه ، ومَن ملّكه الله سبحانه مقاليد أحكامه ، وجعل نظره ورعايته شاملين لعامته وخاصته وولاته وحكّامه ، سيدنا ومولانا المشير محمد باشا باي ، ألهمه الله سبحانه من الصواب ما تَقَرُّ به أعين

(1) س 4/آ 65 .

رعاياه ، وأكثر في قطره المحروس من مناقبه ومزاياه ، بما صورته أن عيّن هذا المحل المعمور الذي سماه « دار الشريعة » لتنفيذ الاحكام الشرعية ، وتحرير الامور الدينية ، وإجرائها على وجه يخرج به الراعي من ربقة التفريط وتصلح به ان شاء الله احوال الرعية .

وحَجَرَ على جميع ولاة الشرع الحكمَ الاّ بهاته الدار ، جمعا لكلمة الشريعة وصونا لها عن التشتت والانتشار ، وخصّ هذا البيت بانعقاد مجلس فيه يحضره شيخ الاسلام والمُفْتُون والقاضيان وينضمُّ السيد الداي ، يستمرُّ ذلك من كل اسبوع في يوم خميسه ، وأمر بفتحه واجتماع المشائخ المذكورين به ليلة الصوم والإفطار لتحرير أمر الرؤية وإنهاء ما يثبت الى الحضرة العلية ، ولو أفضى الحالُ إلى استيعاب الليل كلّه ، ترقبا لما يَرِدُ من شهادات الاماكن النائية ، كما يفتح ايضا لعروض أمرهم . وعين البهو الغربي لجلوس القاضيين في بقية الايام ، الا يوم الجمعة والعيدين واليومين المواليين له ، ويوم الاحد حيث ينعقد المجلس بباردو المعمور . كما عين البهو الشرقي لجلوس مفتيين حنفي ومالكي على التناوب ، ينتصبان به لإرشاد المستفتين ولمشاركة القاضيين في النظر اذا طلب الخصوم ذلك ، ولمباشرة تنفيذ الحكم اذا تخلّف أحد القاضيين بعذر بيّن قويٍّ ، على ان تكون الاحكام الصادرة منهم ، والمراسلات المخاطب بها منهم قضاة الكور ، مختومة بخواتم رئيسهم .

وَأَمَدُ الجلوس لتلقّي الخصوم على مرور الايام أربع ساعات تنتهي بمضي ساعة من الزوال لا ينقص منها شيء ، فان في ذلك اجحافا بحقوق المسلمين ، ولو قلّت القضايا في بعض الاحيان ، ليكون الشغل المتعلق بالخطة من ختم ما يحتاج الى الختم ، والإذن فيما يتوقف على الاذن ، انما هو في ذلك الوقت ، ويتفرغ صاحبها اذا رجع الى محله لمباشرة شؤونه الضرورية ، واغتنام راحته الفكرية والبدنية ، ولا يطرق بابه من الخصوم مشاغب ، ولا يجلس أمامه مطلوب ولا طالب . ولا يلزمهم العود آخر النهار ، ويكون الاذن في الشروع في مباشرة الخصوم لاكبر الحاضرين خطّةً ، وانفصال الموطن بقيامه ، بحيث لا ينصرفون أفذاذا .

وعيّن البيت الملاصق لمحل القاضيين لجلوس ستة من العدول ، اما اثنان فقارّان لا يتبدّلان ، والاربعة الباقون يكونون من عموم العدول على التناوب . وحصر عدد الاعوان في ثلاثين ، وجعل انتخابهم لشيخ الاسلام وتوليتهم بتذكرة منه . وحصر الوكلاء في

عشرة ، وانتخابهم وتوليتهم كالاعوان ، ولا يجمع لواحد بين الوظيفتين . وأمر بتعيين أجورهم بحسب الاجتهاد على قدر المسافات التي يتوجهون إليها ، ومجالس الخصومات التي يباشرونها ، لا يتجاوزون المقادير المعينة لهم .

ولما كانت الذكرى النافعة للمؤمنين مأمورا بها بنصّ الكتاب ، والإصغاء اليها مستحسنا عند أولي الالباب ، فان أمير المؤمنين أيده الله تعالى يأمر بما أمر الله به سبحانه من تقواه التي هي للخير جماع ، وفي يد من أمسكها سيف قاطع لمّاع ، وبالرجوع الى الحق اذا تبيّن ، وطرح الاغراض النفسانية فانه من الامر المتعين ، فانما هي حقوق توصل الى أربابها ، وسفارة عن الشارع أوقف الله تعالى هؤلاء الجماعة على بابها ، ومشاجرة تضمحل وان طالت ويبقى ليوم العرض ثوابها أو عقابها . وعليهم بحفظ مناصبهم الشرعية ، وملاحظة مراتب خططهم فيما بينهم فانها لديه نصره الله معتبرة مرعية ، ومواظبة المباشرة من كل واحد فان فائدة حضوره المشروحة تتعطل بمغيبه ، اذ كل واحد منهم آخذ من عمارة هذا المحل بنصيبه ، على ان السيوف إنما اتخذت لاصلاتها ، والجياد العتيقة لا تظهر فائدتها الا في ميادين غاراتها .

وقد أذن مولانا لجميعهم في استخلاف بعضهم بعضا اذا تبين العذر ، وتعين أن يرتكب لاجل الضرورة ذلك الامر . اما إخلاء تلك المراتب في كل يوم عن حاضر ، والتهاون بها حتى يُرى محلٌّ منها وهو عمّن يعمره شاغر ، فان دائرة التجاوز بعد الإذن في الاستخلاف لا تَسَعُه ، والأُذن المتهيئة للاصغاء للأعذار المقبولة لا تسمعه ، لما فيه من امتداد الايدي الى نقض ما وقع إبرامه ، والسعي في توهين بناء من أعظم مصالح دين الاسلام قد أجيد إحكامه .

والله تعالى يبلّغ مولانا من إعزاز الشريعة وأهلها الامل ، ويجعل جميع مَن عيّن بهذا المرسوم الكريم ممن اذا سمع حسنَ القول أتْبَعَهُ مِن الانقياد اليه حسنَ العمل . آمين » .

وقد تكلم علماء المالكية في هذا المنشور بأن مضمونه حصر الرئاسة في كبير علماء الحنفية ، وقد كان لكبير المالكية في جماعته رئاسة ، بل غالب احكام البلاد على المذهب المالكي ، لانهم السواد الاعظم ، الى غير ذلك من نتائج المنافسة والغيرة بين الاكفاء ، ولا يخلو المرء من ودود يمدح ، وعدوٍّ يقدح .

وفي هذه السنة ، 1273 ، أعلن الباي منشوره في شأن الفلاحة ، وهي من أعظم حسناته المذكورة ، وآثاره المشكورة .

وذلك أن ثروة البلدان على قدر ما يخرج من نتائجها للغير ، ولو من نتائج أفكارهم ، كاجادة المصنوعات .

وهذه المملكة متأخرة عن غيرها في إجادة الصناعة ، حتى إن غالب ثياب أهلها ، شعارا ودثارا ، من غيرها . والخارج من مصنوعاتها قليل ، كالشاشية ، وموادُّها من خارج ، ونسج جربة والجريد ونحوها وذلك نزر يسير ، [حتى ان الملوك لا يأخذون على إخراج ذلك شيئا ، تسهيلاً لخروجه] ، فثروتها الحقيقية هي ما يخرج من أرضها وتربتها الطيبة الخصبة [بالنسبة لما جاورها] (1) .

وقد ثقلت الاعشار على منتحلي الفلاحة . وكادت ان تخلو منها الساحة ، لتجاوزها حدود المغارم تجاوزا واضحا [فظيعا] ، أفضى الى نقص مرئيٍّ بالعين ، حتى ان الفلاح في سنة الجدب [بقلّة المطر] (2) يبيع المواشي وآلات الفلاحة ولا يكاد يخلص في مغرمها المسمّى بالعشر ، لا سيما اذا كان ابن عيّاد ومن على قدمه يقبل العشر ، لانه يخلّص من الفلاّح ضعف ما يقدره الامناء على فلاحته ، مع تجاوز أمناء التقدير للحد المشبه .

وأرض المملكة عشرية غير مأمونة الريّ ، حتى كان أحمد باي يشترى القمح والشعير في اواخر مدّته من خارج المملكة لعساكره ، وان كانَ في الحقيقة اشتراه من لزّامه محمود بن عيّاد ، كما تقدم .

ولهذا الباي شغف بالفلاحة والشجر [المثمر] ، وكان ينتحلها ، وعلم بالعيان ، الغنيّ عن البيان ما يقاسي أهلُها . ولم يزل حال الفلاحة نُصْبَ عينه منذ جلس على سرير الملك ، والوزراء يقولون له : « لا قوام لعسكرنا الا بهذه الحالة ، وربما يلزمنا الاقتراض إن نقصنا » ، فيخشى ذلك ، الى ان قال : « ان أكثر عسكرنا الآن مسرّح ، وأي داع لنا في الزيادة على ما يلزمنا لهناء مملكتنا من العسكر ، وقد نقص منه في الوجهة الى الدولة العلية عدد كثير ، والباقي تسرّح كهوله وشيوخه . وبقاؤنا على هذه الحالة

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

يفضي إلى موت المملكة وتشتت عسكرها » . وظهر له أن يلزم سائر المسلمين العشر ، فقال له بعض رجاله : « ان أهل المنعة من أقاصي العربان والجبال ممن لم يعتد دفع العشر ربّما يمتنعون ، ولا يمكن إلزامهم الا بحرب » ، فقال : « المسلم من حيث هو مسلم لا يمتنع من العشر ، وهو حق الله [ومن قواعد الاسلام الخمس] ، انما يمتنع مما يتولد منه [مما افضى بالبلاد الى العدم] (1) ، فنخفف ما استطعنا ، حتى لا تنفر نفوسهم مما أوجب الله عليهم » ، فقالوا له (2) : « نرتب أداءً على الارض » ، فقال : « ان أرضنا ليست كأرض مصر مأمونة الري ، وهي اكثر من سكانها ، وغالب اهلها فقراء . فاذا جاء الجدب وقع الضرر في رؤوس أموالهم . ولو رأى من تقدمنا في ذلك نفعا ، ما تأخر عنه » ، وعرض عليه هذا الرأي وهو في مضيق ، فاجاب بهذا ، « وأي داع لنا في مخالفة الشريعة ، والبركةُ والخير في اتّباعها » .

ولم يزل [هذا حديثه مع الوزراء ، ينفق مما امتلأت به اسماعه في معرض الاعتراض على من تقدّمه ، والوزراء يحاولون الجواب ، وهو في ذلك] (3) يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، الى ان اعتمد على فضل الله وتوكّل عليه ، وعامله الله بنيته الحسنة ، وأمرني أن اكتب عنه لسائر اقطار المملكة ، غير محاش جهة من الجهات ، مخاطبا للعمّال والقضاة والمفتين والمشايخ والاعيان ، ونصه بعد افتتاحه :

« اما بعد ، فان عنايتنا ، باعانة الله ، لم تزل مصروفة الى زيادة العمران ، في سائر ما لنا من الاوطان ، وظهر لنا من أسبابه التخفيف على أهل الفلاحة ، ليكثر البذر في كل ساحة ، ورأينا القانون في العشر لا يخلو من إجحاف ، أو زيادة في التقدير أو إسراف ، وبعض الاوطان تؤدي العشر بالحزر والتقدير ، وبعضها لا يؤدي حتى النزر اليسير . والعشر حق لله على عباده ، في سائر أرضه وبلاده ، وهو من قواعد الاسلام ، الواجب لها الاذعان والاستسلام . وقد ذكرناه في منشور الإعانة ، وأخّرنا ترتيبه وبيانه ، حتى أعملنا الفكر فيما نغصب عليه من المقدار ، وهو بحلول الله من حميد الآثار . فجعلنا في كل عام على كل ماشية باعتبار بذرها المختلف باختلاف الاوطان ربع قفيز

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « فقال له بعض الجهلة : لو رتبنا اداء مناسبا » .
(3) الزيادة عن ع و ق .

من القمح ومثله من الشعير . ومن بذر نصف ماشية يؤدي نصف ما على الماشية ، ومن بذر ربع ماشية يؤدي ربع ما على الماشية ، وهلم جرًّا بنسبة ما على الماشية ، يدفعه رب الفلاحة في وطنه ويقبله العامل في محل عمله ، الا الاوطان الجاري عملها بالدفع في الرابطة أو غيرها ، فانها تبقى على عادتها المألوفة في محل الدفع .

ومعيار القبول هو الويبة التي أحدثناها بالرابطة ، قطعا لتطفيف الكيل على ذلك [الشكل] (1) الذي يصعب به التطفيف ، ويزال منه الزائد على ظرفها بالمسح . ولا نوجه لحزر زرعه أمناء ، وانما كل عامل يحقق لنا مقدار ما في عمله من الفلاحة بثقات يوجههم لتحقيق ذلك ، وهم مشايخ العمل ، ليكون ذلك منوطا بعهدتهم ، ومظهرا لامانتهم او خيانتهم . ويجزي الله الذين أساؤا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .

وان وقع اختلال في التقدير (2) ، يوجّه أمين وعدلان لتحقيق الامر . فان كان كما ذكر ، فمصروف التوجه على رب الزرع . وان كان أقل فمصروف التوجّه على العامل .

ولا يتعطل أرباب الفلاحة في درس زرعهم على طلوع الامناء .

ولا نلزم الفلاح شيئا زائدا على ما ذكر ، سوى أجر المشايخ النظار ، وهو ريالان على كل ماشية ، وأجر الكيل والخدمة وتذكرة الخلاص على عادة الرابطة .

وبهذا الترتيب المبني على أساس المصلحة ، يكون الفلاح عالما بمقدار ما يلزم لفلاحته في كل عام .

فاقرؤوا هذا الظهير على كافة أهل عملكم ، حتى يتحققه الخاص والعام ويبادروا لامتثال مأموره ، وما حرر في مسطوره .

وقد أعملت الفكر في المصلحة والرفق فيما أمرت ، وما أريد الا الإصلاح ما استطعت .

والله يجعلنا ممن يَهدُون بالحق وبه يعدلون ، ويجعلكم ممن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه . ومن لم يقابل هذه النعم بالشكر ، فما له عند العقوبة من عذر ، ومن قابلها بما يجب من الشكر استحق المزيد ، قال تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذا في خ ، وفي ع : « اختلاف بالتقدير » ، وفي ق : « خلاف في التقدير » .

لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » (1) ، والله يعين الجميع على شكر المنعم سبحانه ، ويوفقنا لصالح العمل ، ويمنُّ على عباده بالعافية والخصب من فضله ، والله ذو الفضل العظيم » .

وكتب في ربيع الثاني سنة 1273 (ديسمبر 1856 م.) .

ثم ان القُبَّاض أوهموه بأنه لو خيّر الفلاح بين ان يدفع عشره حبوبا للعامل أو دراهم ، ربما يكون أخفَّ على الدافع . وفائدة ذلك انما هي لهم في أخذ ما يسمّونه « قباضة » لانفسهم ، والا فبقاؤه في ذمة العمل (2) أنفع لاهل الوطن في سني الجدب ، يشترونه بأخفَّ من جلبه من وطن لوطن ، فراج لديه ريبهم (3) ، وقوّم أداء الماشية خمسين ريالاً لمن يريد دفع عُشُره دراهم ، وجعل الخيار للدافع في الاوطان البعيدة التي لم تعتد دفع العشر ، وكتب بذلك أوامره .

وبهذا التخفيف استبشرت العباد وانتعشت الآمال ، وتحركت الايدي للأعمال ، واخضرّت الارض بعد بياضها وربت ، وبشكر الله أعربت . ورجع من لاذ بالفرار الى وطنه .

واختار لقبول النعمة بالرابطة مملوكَ أبيه [ومربّيه] (4) أبا الفداء اسماعيل قائد السبسي فوقف عند الامر والنهي . وهو ديّن ثقة أمين جدّي الطبع ، فصار من يأتي بالعشر الى الرابطة اذا فضل له شيء بعد الكيل يقول له المأمور المذكور : « رجّع متاعك » ، فمنهم من يقول : « لا أرجعه ، وهو هدية مني الى الرابطة » ، فلا يقبله منه ، ومنهم من يتصدق به شكرا لله على نعمته ، ومنهم من يرجعه ، وصار قويّ الإيمان يحاسب نفسه على ما بقي لله في ذمته من العشر الواجب ويتصدق به .

ودانت لهذا العشر سائر الاوطان القاصية ، وتمّ له ما لم يتمّ لابيه من إلزام سائر الاوطان [لعشر الذمة] سنة 1244 ، اربع وأربعين ومائتين وألف (1828/29 م.) . [والقليل في الكثير كثير] (5) .

---

(1) س 14/آ 7 .

(2) في ع و ق : « في ذمة العامل » .

(3) في ع و ق : « فراج عليه ذلك » .

(4) الزيادة عن ع و ق .

(5) الزيادة في الفقرة عن ع و ق

وظهر أثر ذلك في دخل الدولة ، [والعمران] (1) من العام الثانـي .

وغلت اسعار البقر وأكـرية الارضين ، حتى ان البعض أكـرى هنشيره بقدر مـا اشتراه به زمن تـراجع الفلاحة .

هذا وعيونه ترقب في ذلك اعمال العُـمّال ، فخافوه وأقصروا ، لانه مرهف الحـدّ في المخالفة [لا يقيل فيها عثرة] (2) .

ولم يزل حال الفلاحة في نموّ ، إن سلم (3) من وُلاة السوء النائمين في مهد الإمهال. [ويمهل الله الظالم] (4) وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

*

وفي ذي الحجة من السنة 1273 (جويلية — اوت 1857 م) ، بعث الباي خاصته المقرب لديه ، صهره أبا الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، ومعه أمير اللواء ابو الضياء رستـم ، والامير آلاي فليسـي راف ، بزوج من الخيل وسرج عربـي وغير ذلك من نتائج البلاد الى دولة النمسة هديةً .

وقبل سلطانها الرسل أحسن قبول ، [وميّزهم بنواشن] ، وكان معهم في السفر قنصل النمسة [بالحـاضرة] (5) .

ورجعوا عن قريب مسرورين بحسن المباشرة والعناية والإكـرام .

ولا سبب لهذا السفر الا هذا المرام ، وإنشاء وصلة مع تلك الدولة العظيمة ، واظهار شأن الـرسول .

---

(1) الـزيـادة عن ع و ق .
(2) الـزيـادة عن ع و ق .
(3) كذا فى خ و ق ، وفى ع : « الى ان سلم »
(4) الـزيـادة عن ع و ق .
(5) الـزيـادة فى الفقرة عن ع و ق .


عهد الأمان

وفي العشرين (1) من محرم الحرام ، فاتح شهور سنة 1274 ، اربع وسبعين (الاربعاء 9 سبتمبر 1857 م.) ، منح الباي عهد الامان لسائر اهل المملكة والسكّان .

وهو ما كان يتوقّعه احمد باي ، ولاجله تفادى من الجلوس في المحكمة للحكم بما يراه .

وذلك ان هذا الباي لما جلس على سرير المملكة ، وكان ينكر على ابن عمه عدمَ مباشرة الحكم ، لازم الجلوس بالمحكمة لظنه ان ذلك هو معنى الملك . إلا أنه ابتدأ من حيث انتهى أسلافه . فقد كانوا يحكمون باجتهادهم في قُطّاع الطريق واللصوص وما يرونه فسادا في الارض ، وغير ذلك مما رخصت فيه السياسةُ الشرعية الاعتمادَ على القرائن وشهادة الحال ونحو ذلك مما يفعله صاحب المظالم والشرطة ، ويسمعون الشكايات من ظلامات العمّال ، ويصرفون نوازل المعاملات والقصاص الى القضاة واهل المجلس الشرعي ، ونوازل التجارات الى المجلس المتجري المعروف بالعشرة الكبار ، ونوازل الغصب على خلاص الحقوق الثابتة يباشرها الداي وآغة القصبة وآغة الكرسي وغيرهم . فباشر هذا الباي سائر النوازل على اختلاف أصنافها ، من غير تحجير على غيره ، يحكم فيها بما يظهر لاجتهاده ، من غير توقف للتأمل ولا مراجعة ، ولم يكن عنده من آلات الاجتهاد ما يستتر به .

وكان جريئا على تنفيذ ما يراه بسرعة في الحين ، كقتل محمد السقّا ، وكان يلزمه تعزير لا يبلغ القتل ، بعد ثبوت الدعوى بطريق من طرق الثبوت المعتبرة عقلاً او سياسة ، وقَتْل جماعة من اهل المرسى ، يعلمهم من أهل الدعارة والفساد ، وقعت بينهم معركة في مجلس لهو انجرح فيه أحدهم ، فحملته أمه شاكية ممن جرح ابنها ، فأمر بقتله مع المدعى عليه وغيره ، وهو بروشن قصره في بستانه بالمرسى ، في غير ديوان حكمه بالمحكمة ، وأخْذِ أموال أبي عبد الله محمد المرابط وصالح شيبوب ونَفْيِهما ، ولا ذنب لهما الا

---

(1) هو 19 حسب التقويم .

خدمتهما في ابن عمه كغيرهما من خدّامه الذين طردهم وانتزع ما ربحوه بخدمتهم التي ضاعت فيها أعمارهم . وتفرقهم شذر مذر ، الى غير ذلك مما لا يقتضيه حال من الاحوال زمنَ أبيه وجدّه .

دخل اليه رجل من صعاليك الاعراب وجفاتهم ، يحمل مزودا به رأس رجل ورأس امرأة وقال له : « ان أمرأتي هذه وجدتها مع هذا الرجل فقطعت الرأسين ، وها أنا بين يديك » ، فقال له بديهة : « أحسنت » . وأمر ان يكتب له باسقاط ديتهما وعدم المطالبة بدمهما ، بمجرد دعواه ، قبل ان يثبت عنده ان المرأة زوج القاتل ، وان الرجل اجنبي عنها وهو محصن ، الى غير ذلك مما يجب لصون النفوس المحرمة . اذ من الممكن القريب ، باعتبار شاهد الحال ، ان هذا الرجل قتل رجلاً وامرأته لاخذ مال او لعداوة ، وتستّر بهذه الدعوى ، الى غير ذلك من الاحتمالات التي لا يزيلها الا التثبت في طرق الثبوت .

ومع ذلك يلزم هذا المقرّ بالقتل الادبُ ، للافتيات على الحكم ، اذ ليس لكل أحد ان يقيم الحدّ ، والا انعدمت فائدة كتاب اللعان ونصب الإمام .

ولما كلمه بعض النصحاء في ذلك ، احتجّ لحكمه بأن والده حكم بقريب من هذا ، وهو أن رجلاً قتل رجلاً وأقرّ بالقتل ، مدّعيا أنه وجده مع امرأته ، فقال له : « لو قتلتهما معا ، سرحتك ، اما اذا قتلت الرجل وأبقيت امرأتك ، فيلزمك القصاص لإقرارك » ، وأمر بقتله .

ومن يقدر ان يقول له « ان والدك [الذي استندت الى قوله] (1) غير معصوم ؟ » والحال ان والده غير معصوم من الخطأ . الى غير ذلك من نوازل المحكمة المنافية للمعقول والمنقول ، وقد تقدم شيء من بيان حالها في العقد الاول من مقدمة هذا الكتاب .

واتفق ان عسكريا قتل يهوديا وأخذ سلعته ، وأتى اولياء اليهودي بشهادة على ذلك من لفيف الناس ، فصدر الحكم بقتل العسكري من غير سماع لجوابه .

وبلغ الباي من المحتسب وغيره ان الناس تكلموا في ذلك .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

وبعدها بأيام قامت شهادة من لفيف الناس بالحاضرة على يهودي من سوقة اليهود اسمه باطو يخدم على كـرطون للقايد نسيم رئيس اليهود ، بأنه شتم مسلما وسبّ دينه . وكـان اليهودي حالَ الشتم بحالة سكـر على عادته المعروفة منه .

ولما رفعت الوثيقة للباي ، امتنع من تعـزير اليهودي على مذهبه الحنفـي الجاري به عمل آله ، لعموم البلوى ، وعزم على نشر النازلة بالمجلس الشرعي ، فقال له الوزير أبو النخبة مصطفى خزنه دار : « الانسب بحال الوقت ان سيادتك تباشر الحكم في هذه النازلة بما تراه من العقوبة غير القتل ، وستر أمثال هذه النوازل هو ما يطلبه الوقت من السياسة ، كما كان يفعل أسلافك » ، فقال له : « بالامس قتلنا عسكـريا مسلما لقتلـه يهوديا » .

وأمر بنشر النازلة في المجلس الشرعـي ، وأتى الطالب للجماعة المالـكية ، ومذهبهـم شديد في أمثال هذه النوازل ، فرأوها من المسائـل التـي توجب القتـل بلا استتابـة . ويد المحتسب جائلة في النازلة ، جريا مع غرض الباي ، ولحاجة في نفسه على متبوعه القايد نِسِّيم على ما يقـال ، والله أعلم . حتى إنه توعّد من يتوكـل عليه (1) من وكـلاء المجلس الشرعـي . وأحضروا اليهودي بالمجلس ، وقرئت عليه الشهادة ، فأنكـر صدور ذلك منه ، فقيل له : « ان الامر ثابت عليك بالشهادة » ، فأصرّ على الإنـكار ، فقيل له : « مـا تقول في هؤلاء الشهود ؟ » ، فأصرّ على الإنـكار ، وفي المذهب الحنفـي ان الانـكار في امثال هذه النوازل توبة ، ولم يطلب شيئا . ولشيـخ الاسلام أبـي عبدَ الله محمد بيرم ميل إلى اجراء الحـكم في النازلة بمقتضى المذهب المالـكـي ، فقال له شيخنا العلامة ابو عبد الله محمد بن الخوجة : « ان هذه النازلة ذكـرها صاحب البحر » ، فأجابه بأن البحر فيه البلاّعات ، فأحجم شيخنا .

وأتى المترجم الاول بدار الفرنسيس ، واسمه رُسُّو (2) ، من اعيان الفرنسيس وحذاقهم وفصحائهم بالعربية ، الى دار الشريعة ، رائما توقيف إبرام الحـكم في النازلة ، فلم يحصل على مراده بشـيء . وآل الامر الى الحـكم بقتل اليهودي من غير استتابة ، على خلاف المذهب الحنفـي .

(1) في ع و ق : « على اليهـودى » .

(2) Rousseau (ڤانياج ص 46)

ولما ارتفع الخلاف بالحكم المالكي ، حكم شيخ الاسلام بصحة الحكم وإمضائه. ورفع إلى الباي أوائلَ ذي الحجة في يوم جمعة (2 ذي الحجة — 24 جويلية 1857 م.) ، وهو ببستانه في المرسى ، فأمر بنفوذه في اليوم وهو في غير ديوان حكمه . [وقُتِل اليهودي بالسيف] (1) ، وانذعرت اليهود وعقلاء الحاضرة من الاستعجال في نفوذ الامر بالقتل ، بل والحرص عليه . ولا يوجد العجول محمودا ، ولا يعدم الصرعة صاحب السرعة . وآفة القوة استضعاف الخصم .

وهذا الباي كان يَنْقِم على ابن عمّه التربص في ذلك ، ويراه من تأخير الحدود ، ويقول : « السجن ملآن بالمحبوسين للقصاص » ، وان كان أكثرهم في حبس الشريعة لعدم توفّر بعض الموجبات ، فقتل منهم — سياسةً — من حبسته السياسة .

ولما وصل الحال الى حدٍّ بقاؤه من المحال ، أتاه قنصل الفرنسيس ليون روش المتقدم ذكره ، وقال له : « ان محبتي فيك وفي بلادك حملتني على نصحك » . وأخذ يعدد له أحكاما صدرت منه باستعجال من غير رويّة ولا إعمال فكر في الحقوق . « ولا بدّ لكل زمان من سياسة تخصّه . وان الدولة العثمانية ، وهي ما هي ، سارت بما يقتضيه حال الزمان من السياسة ، وان جلوسك للحكم في الجنايات بما تراه وحدك ، يحملك على هذه البوادر . لانك إن توقفتَ أو شاورت ، ترى أنك خالفت عادة آلك . وتلك العادة لم يبق لها موقع في الوجود ، وان كان يثقل عليك ذلك ، كما انه يستحيل ان تبقى أمة برأسها في أكثر معمور الدنيا » ، الى غير ذلك ، حتى ظهر له انه نصيحةُ ، فعزم على جعل مجلس للحكم في الجنايات ، وكاتب بذلك مجلس الشريعة والداي ومشايخ البلاد الثلاثة وغيرهم . وكان ذلك في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة 1273 (الخميس 13 أوت 1857 م.) . ونصه بعد صدره واسم المخاطَب : « أما بعد فانا عزمنا ، باعانة الله لما رأيناه من المصالح ، ان نرتب ديوانا مركبا من أعيان المسلمين من رعايانا ، للنظر في أحوال سائر الجنايات على اختلاف أنواعها ، والتأمل في حججها ، ويرفعوا الينا ما يقع عليه انفصالهم ، ولنا النظر بعد ذلك . وكذلك نجعل ديوانا للأحكام المتجرية ، ينظرون في احوال المتجر وما يقع بين التجار . ويكون الديوان من أعيان المسلمين من رعيتنا . ونأمر

(1) الزيادة عن ع و ق .

أعيانا من رجال دولتنا لترتيب قوانين ما يحكم به الديوان المذكور ، ونختار منها ما نحكم بامضائه . اما النوازل الشرعية فالنظر فيها للشرع العزيز . ومن الله الإعانة ، والسلام » .

فقال له القنصل : « لا بدّ من قانون يكون ضامنا لذلك » . وتقانع بهذا المكتوب وقال : « نرجو الله ان يكون هذا كافيا في سكوت الدول عنك » .

ويقال ان اليهود بباريس لما بلغهم ما حلّ بأخيهم في الديانة ، وهم يَرِدون من مياه الحريّة ويتنفسون من هوائها ، رفعوا أمرهم على يد أحد العظماء منهم للدولة قائلين : « ان اخواننا بتونس ، والحالة هذه ، غير آمنين بسبب ديانتهم » ، فأتى الاسطول الفرنساوي في اوائل محرم سنة 1274 ، اربع وسبعين (اواخر اوت 1857 م.) ، به تسعة أجفان ، بها نحو السبعمائة مدفع ، وأميره عظيم من شيوخ الفرنسيس اسمه تريوار .

ولمّا رسا بحلق الوادي تحير الباي ، وذهبت نفسه كلّ مذهب ممكن ، ونزل أمير هذا الاسطول ومعه أعيان ممن معه ، واجتمع بالباي في بستانه بالمرسى ، وترجم بينهما الوزير الكنت جوزاب راف ، فقال هذا الامير للباي ، وكان بالمكان المكين من السياسة وحنكة التجريب ، : « إني ، عن إذن سلطاني ، أتيت بهذه القوة لإعانتك على من يخالف أمرك في إعطاء الحرية لرعيتك ، والامن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأديانهم . وحاشا مثلك ان يُغضب على العدل وهو من أصول ملّتكم . وأنت تعلم انه يلزمك ان تكون كالدول ، وهذا السلطان العثماني نحا منحى الدول المرتّبة . وأطلب منك تعجيل الجواب . وإن ما أشرتُ به عليك أنفع لسياستك ولسياسة دولتنا معك » . والقنصل [جالس] (1) لم يتكلم كثيرا .

ومن الغد جاء قنصل الانقليز واسمه ريشارد هود (2) ، وبيده مكتوب له من دولته مضمونه مثل مضمون كلام أمير الاسطول . وطلب الاجتماع بالباي فقابله ومعه رجال دولته . وقال لي الباي : « كلّمه أنت فيما يتعلق بأمر الدين » . وكان هذا القنصل من أفراد جنسه ، عالي الهمّة ، فصيح اللسان ، ثاقب الفكر ، محجاجا منصفا ، حنّكته التجارب والاسفار ، معتبرًا في دولته ، يتكلم بالعربية ، خالط العلماء بأرض الشام ،

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) Richard Wood

وتكلّم مع الباي في غرض النصيحة طلق العنان ، والقوم سكوت ، فقلت له : « إن هذا الترتيب المطلوب منّا ربّما يمَسُّ ديننا » ، فقال لي [بديهة] (1) : « إن أردتَ دينَكم الذي كان عليه سلفكم ، وبه هُدِم في ثمانين سنة ما بناه الرومان في ثمانمائة سنة ، فهو المطلوب منكم ، وان أردتَ تلوين فتاوى الفقهاء على حسب أغراض الملك (2) ، فمعاذ الله أن يكون هذا دينا . وغاية المطلوب منكم إجراء أصول دينكم ، ويقبح بأمة يغصبها على العمل بدينها أجنبي منه » ، فأخجلني ولم أجد جوابا . ومغالب الحق مغلوب ، ومكابر البرهان بالجهل موسوم .

وقد قيل : قول المرء يكشف عقله ويبدي سجاياه وما كان يكتم

ثم أعرض عني وقال للباي : « اذا سمعت نصيحتي فبادر الى هذا الامر ، لان أسطولنا في مالطة ينتظر جوابي مع فابور حاضر لحمله ، واذا طال مُقام الاسطول الفرنساوي ، فلا جرم ان دولتي تبعث أسطولها ، ولا يبعد ان الاسطول العثماني يقدم ، ولا نعلم ما يكون ، وربما يتسع الخرق على الراقع ، اذ لا قدرة لك على ثلاث دول عظام مطلبهم واحد . ودولتكم مأمورة بذلك من سلطانكم العثماني ، وأتاكم فرمانها في التنظيمات الخيرية ، وأجبتم بالامتثال ، وهو الحق المعقول والمنقول من شريعتكم ، والا ما ساغ للدولة العثمانية ان تقدم على ذلك » . ثم قال للباي : « فائدة هذا الامان راجعة لبنيك ، ونفرض انك تعيش خمسمائة سنة او ما شئت ان تعيش ، أليس بعد ذلك كلّه الموت ؟ والمتولي بعدك يفعل ببنيك ما يظهر له ، من غير قانون يمنعه . وقد كان رجل من بني عمّك سجنه أبوك وهو صبي لم يبلغ الحلم ، حتى سرَّحته انت لما تحقق عندك انه على حال من العتَه ، فاترك أولاك في أمان » ، الى غير ذلك من الكلام المؤيّد بقواطع البرهان . ثم قال له : « نترك وقتا تتفاوض فيه مع وزرائك ونصحائك ، فان المطلوب منك واقع لا محالة ولو بعد حين ، فافعله باختيارك واغتنم فخره عند الدول واربح به المحبة من رعيتك » ، وانصرف .

ومن الغد جاء قنصل الفرنسيس ليون روش ، وكان خبيرا بأصول الملة الاسلامية ، وقال : « اني لم أتكلم بمحضر امير الاسطول حتى سمعتم كلامه ، واظنكم سمعتم

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) في ع و ق : « الملوك » .

كلام قنصل الانقليز ، والآن أتيت ناصحا » . وخاتمة كلامه « ان هذا المطلوب لا بد من إتمامه ، لا سيما وقد فعله سلطان المسلمين . وقد أتاني مكتوب من جناب الوزير ، جوابا عن مكتوبي ، وقد عرَّبته بنفسي ، وناوله للباي » .

وقد كان كل واحد من قنصل الانقليز والفرنسيس المذكورين لخّص رسالته في مكتوب منه وبعثاها للباي ، ومضمونها ما تقدم [من النصح] (1) .

اما مكتوب الوزير فنصّ تعريبه على ألفاظه وتراكيبه : « هذه نسخة من نسخة مكتوب المعظم الكونت فالسكي ، وزير الامور الخارجية بدولة فرانسا ، الى موسي (2) روش ، قنصل جنرال ومتوليّ كافّة أمور فرانسا في عمالة تونس » ، وتاريخه في 20 يوليه سنة 1857 (الخميس 29 ذي الحجة 1273 هـ.) . وغالبه اطناب في غرض التشنيع على الباي [في نازلة قتل اليهودي] (3) وعدم سماع نصيحة القنصل .

[ومن دعا الناس الى ذمّه ذمّوه بالحق وبالباطل](4)

ونذكر من فصوله ما يتعلق بالنازلة بلفظه ، فمنها :

« ويكفيني ان أقول في وقتنا هذا ، لو توجد دولة لا اقتدار لها ان توافق سيرتها مثلما هو جاري في جميع الاقاليم ، فلا يعتبر بها أحد ولا تستاهل حماية الدول العظماء ، ولا شك ان الباي يعلم ويتيقن بذلك لو كان يستفسر ما أثر في اروبا من سيرته في هاته النازلة . ولو كان يترك قول بعض المشيرين اليه من اهل الجهل بمعزفة الامور الدنيوية والسياسية . ودليل غلطته المضرة الذي لا زال يلام عليه فيها ، هو ان صورة سيرته هاته ليست موافقة لسيرة دولة السلطان عبد المجيد الذي فرض عليه طاعته فيما يتعلق بأمور الدين ، وان اليهودي الذي قُتِل بتونس لم كان يوجب قتله باسلامبول ، بوجود ما وقع من الشروط والترتيب والمساعدات في هذا الزمان الذي اتفقوا عليه جميع مشايخ الاسلام بالحضرة العلية العثمانية ، وحكموا بأن جميع ذلك ليس مخالفا لقواعد دين الاسلام . فبسبب ذلك حين الباي أمضى حكمه بقتل هذا اليهودي قد غيّر اولاً قلوب اهل اروبا ، وثانيا عصى السلطان القائم بدين الاسلام الذي يوجب اطاعته في امور الدين » .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) كذا في خ و ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) البيت ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

ومن فصوله ما نصّه بلفظه : « واننا ليس تعريضنا في هذه النازلة فقط ، بل انما تعريضنا لسيرة الدولة التونسية التي هي غير مستقيمة ، وقد نتجت منها الواقعة المشار اليها . ونحن منذ ثلاثين سنة مجتهدين باسلامبول وباذلين حرصنا واقتدارنا ليترك السلطانُ البعضَ من سيرته القديمة ، وليجعل عوضها ترتيبا موافقا لما يطلبه زماننا هذا ، وقَبِلْنا جميع مقصودنا . فكيف الآن نترك باي تونس ، اي هذا الامير الذي لم كان تحريره من اسلامبول الا باعانة دولة فرانسا ، فكيف نتركوه يتبع سيرة مخالفة للسيرة التي استجلبنا دخول أكبر سلاطين الاسلام اليها » اه. ومنها أيضا بلفظه : « واما خطابي هذا كله فيما مضى ، واما قولي الآن فيما سيقع في المستقبل ، هو أنه نأمرك تتوجه الى الباي وتقرأ عليه جوابي هذا ، وتبين له انه لا بدّ ومن الواجب عليه ان يجعل في سيرة دولته ترتيب صالح مثل ما جعل ورتّب سلطان الاسلام . وقد كان هذا الامير محمد باي واعدنا سابقا بذلك . وبهذا الترتيب تزول هذه الحالة المضرة التي هي غير مقبولة وليس لنا اطاقة على حملها أبدا . وسنبيّن لك البعض من هذا الترتيب الذي لا بدّ له ان يقع بعمالة تونس . منهم أولاً الطريبونالات ، يعني المجالس ، احدهم مختصّ بحكم امور المتجرية ، وغيرهم فيما يتعلق بكافة الجنايات . وان السلطان عبد المجيد لما أراد ترسيم هذا الترتيب في هذا الحكم الجديد ، استعان بجميع وزرائه ، وبمشورة جميع المشائخ والعلماء جعل تلك المجالس ، وأذن ان يكونوا أربابهم مختارين من جميع الاديان ، وصرف حكم تلك المجالس فيما يقع بين الاسلام والنصارى وغيرهم من اهل الكتاب . وان باي تونس قادر أن يحتمي بما رتّب السلطان ، ويجعل ببلده ترتيبا مثل ما فعل السلطان ، من غير خوف من أحد .

وينتج من هذا الترتيب فائدتين ، أولهما قطع وقوع نازلة مثل ما وقعت على اليهودي الذي قتل ، وثانيهما انه ينال الباي [بها] (1) أعظم حقوق السلطنة ، وهو العفو لرعيته . وينتج أيضا من هذا الترتيب منفعة أخرى للعامّة ، هو ان جميع الخلق تقبل شهادتهم لدى تلك المجالس مثل شهادة سائر المسلمين . ومن جملة التراتيب أيضا الرجوع والتمسك بشروط التجارة الواقعة بين تونس واجناس اروبا من غير خلاف . وايضا التسريح بجميع الصنائع لكافة الخلق . وايضا التسريح لجميع الخلق أن يملكون العقارات مثل اهل

(1) الزيادة عن ع و ق .

البلد ، وما أشبه ذلك . ومن غير شك عندنا ان الباي لا يتوقف في اظهار امتثاله لما ارادت منه الاروبا ، ولا يمكن له الامتناع من ذلك . ومن المعلوم ان الملك يضيع قدرته السلطانية اذا يتصرف بها على كيفيته التي لا يقبلها لا العقل ولا الحنانة البشرية . وبالعكس لو أن الملك يترك جميع أغراض النفس (1) ، ولا يستنصت لما لا يصلح في الوقت ، فيزيد حينئذ فخرا في تلك القدرة السلطانية . ولا شك عندنا ان الباي في هذه الحالة لا يستشار من أناس الذين قادوه بمشورتهم لامور غير صالحة ، وأوقعوا له الاختبال في عقله كم من مرة . فنترقب تُعْلِمنا بما ينتج من مخاطبتك بهذا الجواب مع الباي . لنعرضه الى حضرة جناب الانبراتور سلطان فرانسة » . اهـ . تمام مكتوب الوزير .

ومكتوب في آخر هذا التعريب بخط القنصل باللغة العربية ما نصه : صح من كاتبه بيده الفانية ، عبد ربه سبحانه ليون روش ، قنصل جنرال الانبراتور ، ومتولي امور فرانسة في عمالة تونس . وبعده تصحيحه بالقلم الفرنساوي .

وهذه المكاتيب المذكورة موجودة الى الآن بأعيانها في خزائن الدولة .

و [بعد ذلك] (2) ناول الباي ايضا تقييدا بخطه في اصول القانون وانصرف ، فجمع الباي رجال دولته ، ومنهم شيخ الإسلام ابو عبد الله محمد بيرم صهره ، وقرأ عليهم اصول القانون ، وهي اصول التنظيمات الخيرية . وكان شيخ الاسلام أسرع الحاضرين للاجابة ، مستندا الى الغصب الذي لا قدرة لنا على دفعه . وهو المشار اليه في تعاريب مكاتيب الوزير من الذين قادوه بمشورتهم لامور غير صالحة ، وأوقعوا له الاختبال في عقله كم من مرة ، فقلت له : « ان القوم لم يصرحوا بالغصب ولا آذنوا بحرب وانما نصحوا » ، فقال : « نخشى الغصب من الدولة العلية ، واصول التنظيمات لا تخالف ديننا » .

وتسارع الباي الى القبول ، غير مفكر في معنى ما التزم به ، وفي طبعه الرفق والعدل فيما لا يعارض شهوته ، فقلت له بمحضر اولئك الجماعة : « يا سيدي ، ان الامر صعب على مثلك ، فاعرفْ ما تلتزم به ، فانك بهذا الامر تكون يداك هكذا » ، وقبضت يديّ الى جنبيّ ، فقال لي : « لاجل نفع الرعية نرضى ان تكون يديّ هكذا » ، وقبضهما الى جنبيه قبضا أشدّ من قبضي ، فقلت له : « هنيئا لك » .

(1) في ع و ق : « النفسي » .
(2) الزيادة عن ع و ق .

وأمرني بانشاء مكتوب عهد الامان بمحضر الجماعة ، فقلت له : « ان الامر ثقيل يضعف متني على حمله ، والليلة نكتبه ومن الغد يحضر هذا الجمع للتأمل فيه ، حتى يكون منسوبا للجميع » .

ومن الغد حضروا ، وقرأته عليهم مرارا ، فزادوا في معانيه ونقصوا . واطلع عليه قنصل الفرنسيس وقنصل الانقليز فاستحسناه . واخذ قنصل الفرنسيس نسخة منه للتأمل فيه قبل قراءته في الموكب .

ووقع الاتفاق على قراءته ضحى يوم الاربعاء العشرين (1) من محرم السنة 1274 (9 سبتمبر 1857 م.) ، فاستدعى الباي سائر اهل المجلس الشرعي ، وأعيان الدولة ، واميـر الاسطول ومن معه من الاعيان ، وقناصل الدول ، وكبير الاساقفة والرهبان ، واحبار اليهود ، وغيرهم من اعيان الوافدين . ولبس ثياب الزينة ، ورجال دولته كذلك .

وكان المشهد « بالبيت الكبرى » بصراية باردو .

ولما اخذت الناس مواقفهم ، أمرني بقراءته ، فقرأتُ شيئا من خطبته بتكلف وتعب ، لسعال كان بي يومئذ ، وأتمَّ قراءته صاحبنا الكاتب البارع ابو عبد الله محمد الباجي المسعودي . ونصه :

« الحمد لله الذي اوضح للحق سبيلا ، وجعل العدل لحفظ نظام العالم كفيلاً ، نزّل الاحكام على قدر المصالح تنزيلاً ، ووعد العادل وتوعد الجائر ومن أحسنُ من الله قيلاً . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي مدحه في كتابه بالرؤوف الرحيم وفضّله تفضيلا ، وبعثه بالحنيفية السمحاء فبيّنها تبيينا وفصّلها تفصيلا ، ورتّبها كما أمره ربّه إباحة وندبا وتحريما وتحليلاً ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ، وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا على معالم الهدى علما لمن اقتدى ودليلاً ، وفهموا الشريعة نصّا وتأويلاً ، وابقوا سيرتهم الفاضلة واحكامهم العادلة أمانا جليلاً ، ونستوهب منك اللهم توفيقا يُوصل الى الاسعاد برضاك توصيلاً ، وعونا على امور الإمارة التي من حملها فقد حمل عبءا ثقيلا ، فقد توكلنا عليك والتجأنا إليك وكفى بالله وكيلا . اما بعد فان هذا الامر الذي قلّدنا الله منه ما قلّده ، وأسند الينا من امور خلقه بهذا القطر ما أسنده ،

(1) هو 19 حسب التقويم .

ألزَمنا فيه حقوقا واجبة ، وفروضا لازمة راتبة ، لا تستطاع الا باعانته التي عليها الاعتماد ، ولولاها فمن يقوم بحق الله وحق العباد ، فَمَحَضْنا النصيحة لله في عباده ، وأرضه وبلاده. والامل أن لا نبقي فيهم ظلما ولا هضما ، ولا نخرم لهم في اقامة حقوقهم نظما . وأنّى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيّته ، من يعلم ان الله لا يظلم مثقال ذرّة ولا يحب الظالم في بريّته ، فقد قال لنبيه المعصوم الاواب : « يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الارْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ » (1) .

والله يرى اني آثرتُ في قبول هذا الامر ، على خطره ، مصلحةَ الوطن على ذاتي ، وعمّرت بخدمته الفكرية والبدنية غالب اوقاتي ، وقدّمتُ من التخفيفات في الجباية ما عُلِم خبرُه ، وظهر بعون الله أثره ، فانتشرت الآمال ، وتشوفت النفوس الى ثمرات الاعمال ، وانقبضت عن التعدي ايدي العمّال ، واستقصاء المصالح يقتضي تقديم اجمال ، ومن رامها جملة فقد عرّضها ، بسبب التعذر ، للاهمال .

ورأينا غالب اهل القطر لم تحصل لهم الامنية ، باجراء ما عقدنا عليه النيّة .

وجرت عادة الله ان العمران لا يقع من نوع الانسان ، الا اذا علم ان براءته هي الامن له والامان ، وتحقق ان سياج العدل يدفع عنه خوف العدوان ، وان لا وصول لهتك ستر من حرماته الا بقوة الدليل ووضوح البرهان ، ولا يكفي لتحقيقه الواحد والاثنان . فاذا رأى الجاني تعدُّد الانظار غلّط ، ان كان منصفا ، حَدْسَه ، وقال : « ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نَفْسَه » .

وقد رأينا سلطنة الاسلام ، والدول العظام ، الذين على سياستهم الدنيوية اعمال الاعلام في النقض والإبرام ، يؤكدون الامان من أنفسهم للرعيّة ، ويرونه من الحقوق المرعية . وهو أمر يستحسنه العقل والطبع ، واذا اعتبرت مصلحته فهو مما يشهد باعتباره الشرع . لان الشريعة جاءت لإخراج المكلّف عن داعية الهوى ، ومن التزم العدل وأقسم عليه فهو أقرب للتقوى ، وبالامن تطمئنُّ القلوب وتقوى .

(1) س 38/ 26 .

وقبل هذا كاتَبْنا علماءَ الملّة الاركان ، وبعضَ الاعيان ، بعزمنا على ترتيب مجالس ذات اركان ، للنظر في احوال الجنايات من نوع الانسان ، والمتاجر التي بها ثروة البلدان . وشرعنا في فصوله السياسية ، بما لا يصادم ، ان شاء الله ، القواعدَ الشرعية .

هذا وأحكام الشريعة ، أعزها الله ، جارية مطاعة ، والله يُديم العملَ بها الى قيام الساعة .

وهذا القانون السياسي يستدعي زمنا لتحرير ترتيبه ، وتدوينه وتهذيبه . وأرجو الله الذي ينظر الى قلوبنا أن تستقيم به أحوال الرئاسة ، ولا يخالفه ما ورد عن السلف الصالح من اعتبار السياسة ، وأنا العبد الفقير أعجّل لمرضاة ربي بما تطمئن اليه النفوس ، وتكون منزلته في النفس منزلة المشاهد المحسوس . وتأسيسه على قواعد :

الاولى : تأكيد الامان ، لسائر رعيتنا وسكان ايالتنا على اختلاف الاديان ، والالسنة والالوان ، في ابدانهم المكرّمة ، واموالهم المحرّمة ، وأعراضهم المحترمة ، الا بحق يوجبه نظر المجلس بالمشورة ويرفعه إلينا ، ولنا النظر في الإمضاء او التخفيف ما أمكن او الإذن باعادة النظر .

الثانية : تساوي الناس في اصل قانون الاداء المرتب او ما يترتب ، وان اختلف باختلاف الكمية ، بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته ، ولا يحط على الحقير لحقارته ، ويأتي بيانه موضحا .

الثالثة : التسوية بين المسلم وغيره من سكان الإيالة في استحقاق الإنصاف ، لان استحقاقه لذلك بوصف الانسانية لا بغيره من الاوصاف . والعدل في الارض هو الميزان المستوي ، يؤخذ به للمُحِقّ من المبطل وللضعيف من القوي .

الرابعة : ان الذمّي من رعيتنا لا يُجبَر على تبديل دينه ولا يمنع من إجراء ما يلزم ديانته ، ولا تُمتَهَن مجامعهم ويكون لها الامان من الاذاية والامتهان ، لان ذمّتهم تقتضي أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

الخامسة : لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع ، ومصلحتُه تعمُّ المجموع ، ولا بدّ للانسان من زمن لتدبير عيشه والقيام على أهله ، فلا نأخذ العسكر الا بترتيب وقرعة ، ولا يبقى العسكري في الخدمة اكثر من مدة معلومة ، كما نحرره في قانون العسكر .

السادسة : ان مجلس النظر في الجنايات ، اذا كان الحكم فيه بعقوبة على أحد من أهل الذمة ، يلزم ان يحضره من نعيّنه من كبرائهم ، تأنيسا انفوسهم ودفعا لما يتوقعونه من الحيف ، والشريعة توصي بهم خيرا .

السابعة : ان نجعل مجلسا للتجارة برئيس وكاتب وأعضاء من المسلمين وغيرهم من رعايا احبابنا الدول للنظر في نوازل التجارات ، بعد الاتفاق مع احبابنا الدول العظام في كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس ، كما يأتي ايضاح تفصيله ، قطعا لتشعب الخصام .

الثامنة : ان سائر رعيتنا من المسلمين وغيرهم ، لهم المساواة في الامور العرفية والقوانين الحكمية ، لا فضل لاحدهم على الآخر في ذلك .

التاسعة : تسريح المتجر من اختصاص أحد به ، بل يكون مباحا لكل أحد . ولا تتاجر الدولة بتجارة ولا تمنع غيرها منها . وتكون العناية باعانة عموم المتجر ومنع اسباب تعطيله .

العاشرة : ان الوافدين على ايالتنا لهم ان يحترفوا سائر الصنائع والخدم ، بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتي يمكن ان تترتب ، مثل سائر اهل البلاد لا فضل لاحدهم على الآخر ، بعد انفصالنا مع دولهم في كيفية دخولهم تحت ذلك ، كما يأتي بيانه .

الحادية عشرة : ان الوافدين على ايالتنا من سائر اتباع الدول لهم ان يشتروا سائر ما يملك من الدور والاجنة والارضين ، مثل سائر اهل البلاد ، بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتي تترتب من غير امتناع ، ولا فرق في أدنى شيء من قوانين البلاد . ونبين بعد هذا كيفية السكنى ، بحيث ان المالك يكون عالما بذلك ، داخلا على اعتباره ، بعد الاتفاق مع احبابنا الدول .

فعلي عهد الله وميثاقه ان نجري هذه الاصول التي سطرناها ، على نحو ما بيّناها ، ووراءها البيان لمعناها . وأشهدُ اللهَ وهذا الجمعَ العظيم ، المرموق بعين التعظيم ، في حق نفسي ومن يكون من بعدي ، ان لا يتم له أمر الا باليمين على هذا الامان الذي بذلت فيه جهدي ، وجعلت فيه سائر الحاضرين من نواب الدول العظام واعيان رعيتنا شهداء على عهدي ، والله يعلم ان هذا القصد الذي أظهرته ، وجمعت له هؤلاء الاعيان وأشهرته ، هو

ما اودعه الله في نيّتي ، وإجراء أصوله وفروعه فورا ، أعظم أمنيتي . والمرء مطلوب بجُهْده ، ومن عاهد الله لزمه الوفاء بعهده . والحق هو العروة الوثقى ، والآخرة خير وأبقى .

وأستحلف مَن حولي من هؤلاء الثقات ، والحماة الكفاة ، ان يكونوا معي في إجراء هذه المصلحة يدا واحدة ، بقلوب سليمة متعاضدة ، واقول لهم : « ولا تَنقُضُوا الاَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

اللهم من أعاننا على مصالح عبادك فكن له مُعينا ، وأورِدْه من توفيقك عذبا مَعينا . اللهم اجعل لنا من عنايتك وإعانتك مددا ، وهب لنا من لدنك رحمة وهَيِّىء لنا من أمرنا رَشَدا ، منك الإعانة على ما أوليت ، والمهديّ مَن هديت ، والخير كله فيما قضيت .

هذه مقدمة انتجتها الاستشارة ورآها العبد الفقير ناجحة صالحة ، فأعنّا اللهم ببركة القرآن واسرار الفاتحة .

والسلام من الفقير الى ربه تعالى ، عبده المشير محمّد باشا باي صاحب المملكة التونسية . في 20 محرم الحرام فاتح سنة 1274 » .

وكتب بخطه في عدة من نسخه ما لفظه : « صح من كاتبه المشير محمّد باشا باي ، والله على ما نقول وكيل » .

ولما تمّت قراءة العهد في ذلك المشهد ، تقدم قنصل الدولة الفرنساوية وترجم قواعده ومضمونه [باللغة الفرنساوية لمن لا يعرف العربية] (1) في ذلك الموكب .

وكذلك تكلم كبير الاساقفة بما معناه : « ان العدل مما اجتمعت عليه الملل ، [وهو ميزان الله في الارض] (2) . وشكر صنيع هذا الباي .

وبعد ذلك ارتفعت الاصوات بالدعاء لهذا الباي ، واعلنت مدافع الفرج والتهاني ، بأمان هذا النوع الانساني ، وعمّ السرور القاصي والداني . وأعْظِمْ بها مَنْقَبَةً يبقى ذكرها في بني الوطن مع الاحقاب ، « ومَن يُبدِّلْ نعمةَ الله من بعد ما جاءتْه فان الله شديد العقاب » .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وأعطى نسخة لامير الاسطول ليبلغها لدولته .

وبعث لكل قنصل من قناصل الدول نسخة منه مصحّحة بخطه وختمه ، توثيقا لالتزامه، ومع كل نسخة مكتوبٌ منه لكل قنصل ، نصه بعد افتتاحه واسم المخاطب به :

« أما بعد فالواصل لكم نسخة من العهد الذي قرأناه لجميعكم في موكب يوم الاربعاء في 20 محرم سنة 1274 ، بمحضر اهل مجلسنا الشرعي وكافة اركان دولتنا واعيانها . والنسخة مصححة بخطنا ومطبوعة بختمنا ، لتكون عندكم معلومة محفوظة ، وبعين الاعتبار لما فيها ملحوظة . فقد اشهدناكم على إجراء العمل بما فيها ، وترك ما يُنافيها . والله يجعل في مضمونها الخير والصلاح ، واليمن والنجاح . ودمتم في أمن الله وحفظه » .

وكاتب بذلك أخاه بالمحلة ، ووجّه نسخا لاهل المجلس الشرعي ولإمام الجامع الاعظم واهل البلاد ، وفرق نسخا كثيرة في جهات المملكة ، وانتشرت في الآفاق ، وصارت حديث الرفاق .

واستضاف أميرُ الاسطول الفرنساوي الباي َ قبل سفره، فأتاه الباي برجال دولته بلباس الزينة ، فعظّم مقدمه ، وصنع تعليما بالمدافع على كيفيات تدهش الفكر .

وبقي الباي بعد هذا العهد يحكم بمحكمته ويقضي في النوازل بمشيئته ، جريا على عادته ، الى ان تعدّى رجل مغربي على مثله من خدمة بستان الباي وقتله . وجيء اليه برجل قيل له ان هذا هو القاتل ، فأمر بقتله في الحين قبل ان يسمع منه جوابا ، ولا حضر أحد من ورثة القتيل يطلب القصاص . وعلى ما قيل ان ابناء عمه ، ورثة دمه ، عفوا عن القصاص ورَضُوا بالدية .

وظن الباي ان المراد بعهد الامان قد تمّ بوجود حروفه في الصحف المنشرة ، والامر وراء ذلك .

وارتمض لهذا الامر قنصل الفرنسيس وقال له : « قد بعثت بنسخة من عهد الامان مصحّحة بخطك ومطبوعة بختمك الى دولتي مع امير أسطولها ، واشهدتني وانا نائب سلطاني ، كما اشهدت امثالي ، أتسخر بالدول ام بالتزامك ؟ وما ضرك ان هذا القاتل

يبقى في السجن الى ان يقتل على نهج حق او قريب منه ؟ ولا نرى ان دولتي تسكت عن ذلك ، اعتبارا لمقامها » ، الى غير ذلك من التهويل . وأجابه الباي بأن « القتل وقع تحت اشجار بستاني وفيها قصر مسكني ، ولا بد من تشديد الحال خشية الجسارة » ، الى غير ذلك مما لم يحرّك العاقلُ له أذنا ، ولا يحسن فيه الاستعجال بقتل حيوان مملوك ، شِنْشِنة اهل الإطلاق من الملوك .

ولله در الحكيم في وصفهم : « يستصغرون في العقاب ضربَ الرقاب ، ويستعظمون في الثواب ردّ الجواب » .

وصار القنصل يبحث عن ورثة القتيل ، ويتجاهر بالتشنيع على علماء الاسلام ورجال الدولة والوزراء ، وينسبهم الى كتمان النصيحة ، فقال للباي نصحاؤه : « ان الحال اذا بقي على ما كان ، ولم يظهر فيه شيء من التبديل الذي تراه الاعين ، ربما يقع الغضب على إلزام ما وقع الالتزام به . ووراءنا غضب الدولة العثمانية ، وتسخر بنا الاقاليم . واصول عهد الامان مجملة قابلة لكل معنى يحتمله اللفظ ، ونخشى ان يفسره غيرنا بما يظهر له ويصلح به » .

فتحقق النصيحة لنفسه ، وأمر الوزير ابا النخبة مصطفى خزنه دار بجمع اعيان من رجال الدولة لتفسير تلك القواعد وايضاحها ، فقال له الوزير : « أمرك مطاع ، والمناسب في هذا الامر الخطير ان ينتخب سيدنا أعيانا ، منهم بعض اهل المجلس الشرعي ، ويكتب لهم أمرا يعتمدونه في ذلك » ، فاستحسن رأيه ، وانتخب أفرادا . وتلكأ [الشيخ محمد بيرم] (1) شيخ الاسلام عن الحضور ، لامر يعلمه الله ، فقال له الباي : « قد أفتيتنا بالقبول من اول الامر ، وأن التنظيمات الخيرية لا تعارض ديننا ، فما بالك تمتنع من الحضور الآن ؟ » ، وألزمه الحضور .

وكتب للجماعة بما نصه : « أمرنا هذا الى العلماء الاعلام ، الفقهاء الاعيان ، الجلّة الفضلاء من اهل مجلسنا الشرعي العلي ، شيخ الاسلام سي محمد بيرم ، والشيخ سي احمد بن حسين باش مفتي المالكية ، والشيخ سي محمد بن الخوجة المفتي الحنفي ، والشيخ سي محمد البنا المفتي المالكي ، والوزراء الاعيان ، النصحاء الاركان ،

(1) الزيادة عن ع و ق .

اولي الرفعة والشان ، ابننا الاعز وزير العمالة مصطفى خزنه دار ، ووزير الحرب امير الامراء ابننا مصطفى باش آغه ، ووزير البحر امير الامراء ابننا خير الدين ، ووزيرنا الاحظى امير الامراء ابننا اسماعيل صاحب الطابع ، والاحظى امير الامراء ابننا محمد امير الاعراض ، وكاتب سرّنا امير اللواء محبنا الشيخ سي احمد بن ابي الضياف ، حرس الله جميعهم ، واحسن صنيعهم . واننا امرناهم بالاجتماع في دارنا بالقصبة يومين في كل اسبوع ، وهما الاربعاء والخميس ، للتفاوض في شرح الفصول المسطرة في عهد الامان ، وكل واحد يتكلم بما يدين الله به على مقتضى آداب البحث في الادلة وايضاحها ، ولا يخجل من لم تنهض حجته ، فالحق أحق بالاتّباع . وأمرناهم قبل ذلك بقراءة ما رتبته الدولة العلية العثمانية وغيرها من الدول ، ليُجسروا التراتيب على ما يصلح ببلادنا ، بعد استفتاء من ذُكر من العلماء فيما تتوقّفون فيه من الامور ، ويرفعوا الينا عمل كل اجتماع لننظره ونمضي ما عليه اكثر رأي الجماعة . ولا يلزم الفقهاء المذكورين الحضور الا يوم الاربعاء ، لاشتغالهم يوم الخميس بالمجلس الشرعي بدار الشريعة .

والله تعالى ولي اعانتهم وتوفيقهم على هذه المصلحة التي يعم نفعها بحول الله تعالى ، والسلام » .

وكتب في 16 اشرف الربيعين سنة 1274 (الاربعاء 4 نوفمبر 1857 م.) .

ورتب لهذا المجلس من نبهاء الكتّاب وحذاقهم الامير آلاي ابا عبد الله محمد البكّوش ، والفقيه الاكتب ابا المحاسن يوسف جعيط ، وربما حضر معهم الالمعي المنصف البارع ابو عبد الله حسين رئيس المجلس البلدي وأمير لواء ، يكتبون ما يقع بين الجماعة من المراجعات والمحاورات .

واجتمع هذا المجلس بدار الباي ، رئيسه الوزير مصطفى خزنه دار .

وقُرِئَ عليهم ما فسرتُ به القاعدة الاولى من عهد الامان ، فاستحسنوه حتى قال شيخ الاسلام : « يمكن لي أن أخطب يوم الجمعة بشرح هذه القاعدة وأصلي بعدها الجمعة ، اذ هي ملاك أمر الدين والدنيا » . وطلب الوزير ابو محمد خير الدين من الفقهاء الحاضرين ان يكتب كل واحد على قواعد عهد الامان ما يراه ويدين الله به ، فأجابوه

لمطلبه لما رأوا من توقد فكرته وكمال فطنته ، فكتبوا وتقاربوا في المرمى [على قوس واحدة] (1) ، وجلّى شيخ الاسلام فيما كتبه بشهادتهم ، ولولا الاطالة نقلنا ذلك .

وفي هذه الايام قدم رسول مخصوص من الدولة العلية في رتبة امير لواء اسمه نصرت باي ، بالخط الشريف وتعريبه . ونقل « ان الدولة العلية تعجبت من عدم إجراء التنظيمات لهذا الوقت ، وعندها جواب مَن تقدمكم بامتثالها والدخول تحت احكامها » ، الى غير ذلك من التحريض . وأجيب بأنه وقع الشروع في العمل كما تراه .

وكان نزوله بدار الباي بالقصبة ايام اجتماعنا بها ، وسافر بجواب مرضيّ ، مكرما مسرورا .

ثم طلب الفقهاء المذكورون الاستعفاء من الحضور بهذا المجلس ، واذا توقف بقية المجلس في امر يتعلق بهم من الفقه ، يسألهم ويجيبون بالكتابة .

وكان الظن بهم تقديم هذه الطاعة المتعدية على غيرها من الطاعات القاصرة . وتعللوا بأن منصبهم الشرعي لا يناسبه مباشرة الامور السياسية ، الى غير ذلك من المعاذير التي لو لم نرها بقلمهم ما نقلتُها (2) .

وقبل هذا الباي عذرهم ، وأراحهم من تعب الحضور ، ولسان حال المسلمين بهذه الايالة المسكينة يقول : « مما يجب اعتقاده ان الله الذي دينه النصيحة لايمة المسلمين وعامتهم ، ومن أوامره الواجبة على عباده تغيير المنكر ولو بالقلب ، ومن شريعته السمحاء ارتكاب أخف الضررين عند العجز عن السلامة منهما ، الى غير ذلك من تيسير هذه الشريعة الصالحة لكل زمان ، يسألهم عن ذلك يوم تبلى السرائر ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم » .

وكيف يروج تعلّلهم وهم الاعلام السابقون في ميادين العلوم المعقولة . فوا أسفا على العالم الصالح (3) ابراهيم الرياحي الذي كان يهتف بهذه النعمة ، لو كان حيّا وجاءته [نعمة الله هذه اتراه يبدلها بما يناسب المنصب وما لا يناسب ؟] (4) .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) في ع و ق : « ... بقلم رئيسهم ما صدقت بها » .
(3) في ع و ق : « فوا أسفا على شيخ الشيوخ العالم العامل » .
(4) الزيادة عن ع و ق .

أقول هذا ، وان كان احدهم من أشياخي في الحنفية ، لانهم ضيّعوا بذلك فرصة نَفاق سوق العلم وتقدم أهله ، وزادوا أهله بُعدا على بعد ، ولله غيب السماوات والارض واليه يرجع الامر كله .

وعالج بقية الجماعة فصول القانون ، كلٌّ على حسب استعداده ، والله لا يضيع أجر من احسن عملاً .

وتدرع بعضهم جُنّة من نار الصبر محتسبا ، والاعمال بالنيات .

وجعل الباي مجلسا لنفسه ، من أعضائه شيخ الاسلام أبو عبد الله محمد بيرم ، والوزير ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، والوزير الكُنْت جوزاب راف وغيرهم ، يقبل فيه ما يعرضه هذا المجلس المأمور ، مع حضورهم (1) بأنفسهم يوم العرض .

ولما أتممنا شرح القاعدة الاولى ، وهي قاعدة كل القواعد ، وقرأناها على الباي في ذلك المجلس ، بدرت من بعضهم بادرة يغفر الله له فيها ، وهي أن قال : « أي شيء بقي لسيدنا ؟ » ، ووافقه على ذلك بعض المتزلفين ، والباي ساكت ، لانه قبض يديه بجنبيه (2) لاجل نفع الرعية ، حين هوّلتُ عليه الامر ، كما تقدم ، فوَجَمْنا لهذه البادرة الباردة ، فتكلم الوزير خير الدين ، وكان أثبتَ القوم جَنَانا ، وإن شئتَ قلتَ وأقواهم إيمانا ، وقال له : « نعم ، يبقى لسيدنا ما بقي للسلطان عبد المجيد ، وما بقي لسلطان فرانسا وسلطانة برطانيا وغيرهم من السلاطين بالقانون » (3) . ثم قلتُ لهذا القائل : « هلا قلتَ هذا عند سماعك لهذه القاعدة ، وهلاّ أعملت الفكر في فهمها قبل ان تسلّمها والمراكب بحلق الوادي ؟ » ، وأتيته بنسخة مصححة من عهد الامان ، فأعاد قراءة القاعدة ، واعتذر بنسيانها خجلا .

وسبحان من تنزه عن الخطأ والنسيان ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

(1) في ع و ق : « حضور أهله » .

(2) في ع و ق : « الى جنبيه » .

(3) في ع و ق : « من سلاطين القانون » .

وفي هذه السنة أمر هذا الباي بجعل قانون لاثبات العسكر بالقرعة ، وانتخب لذلك امير الامراء ابا محمد خير الدين ، وامير الامراء ابا محمد رشيد امير عساكر الساحل ، وامير الامراء ابا عبد الله محمد عامل الساحل ، وأمير الامراء ابا الفداء اسماعيل صاحب الطابع (1) ، والاكتب البارع ابا عبد الله محمد الباجي المسعودي ، فاجتمعوا بمنوبة في بستان امير الامراء أبي محمد خير الدين ، ونظروا في قانون الافرنج وقانون اسلامبول ، وقد كان الامير رشيد عرّبهما ، واختاروا منهما ما يصلح للبلاد (2) ، وسموه « الصباح المسفر ، في ترتيب ثبوت العسكر » وتمّ بعد ان سرح العسكر (3) ، كما تراه في منشوره بالتسريح ، حيث حضّهم فيه على الاستعجال باتمامه ، لانه وقع لهم تعطيل ، وتمّ في اواخر ايامه ، وطبع بعد وفاته ، وهو القانون المعروف للعسكر باسمه .

☘

وفي صفر من السنة 1274 (سبتمبر — اكتوبر 1857 م.) ، جعل الباي ترتيبا لعشر الزيت بالحاضرة ، وقد كان صاحب الزيتون في عناء من أداء يسمى بأسماء اصطلاحية تفنّنت أيدي الجور في تلوينه ، بحيث لا يعصر زيتونه كما يريده بل كما يراد منه ، الى غير ذلك مما يعلمه اهل الحاضرة ، مع بليّة التطفيف .

وكان الفلاح يدفع من زيته نحو الخُمس او الرُّبع ، فحسم هذا الامر ، وكتب في ذلك منشورا خاطب به كل شيخ من مشايخ الحاضرة وكافّة ارباب الزيتون .

ونص المقصود منه : « اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان عنايتنا لم تزل لمصالحكم مصروفة ، وعلى منافعكم باعانة الله موقوفة ، وقد فرغنا من ترتيب اعشار الحبوب على حسب ما خفّفناه ، وأجرينا العمل بمقتضاه ، ونظرنا الآن في عشر الزيتون فوجدناه مُجحِفا بأربابه ، متلفا لامل أصحابه ، والامل أساس الفلاح ، والثروة والنجاح ، وبه على غراسة الشجرة المباركة تتوفر الدواعي ، وتنجح ان شاء الله المساعي . فأسقطنا سائر ما اعتيد على المعاصر من المسمى بالحقوق والسخارة والصرفة وبوقال الرسم ، وغير ذلك مما مجموعه يناهز خمس المال . واقتضى النظر لمصلحة الجمهور ، ان نرتبه على عشرة أمور :

---

(1) الاسطر الاربعة من « وفى هذه السنة » الى « صاحب الطابع » ، بياض فى ع ، وفى ق بياض ملئ بما فى خ بخط مغاير .

(2) فى ع و ق : « ما يناسب حال البلاد » .

(3) فى ع و ق : « وسرح الباى العسكر قبل اتمامه »

الاول : ان الفلاح لا يؤدي من زيته الا الجزء العاشر فقط ، بِقُلّة المعصرة التي يكيل بها زيته ، من غير زيادة ولا تطفيف ، ولو في نزر خفيف .

الامر الثاني : ان نجعل نظارا وعدولاً في المعاصر بحاضرتنا التونسية مع الرِّيَّاس (1) ، على حسب ما يظهر لنا في ترتيب ضبط العشر الذي هو تطهير للأموال ، والسبب في بركة الاعمال.

الامر الثالث : ان الفلاح يدفع كراء الجمل صاعا واحدا من الزيت على كل ادالة ، سواء كانت حبا او بندا (2) حيّا او بندا ميتا . والصاع بالمعيار التونسي من غير تطفيف .

الامر الرابع : ان الادالة تكون بثلاثين شامية فقط ، مملوءة بحسب ما يظهر للفلاح .

الامر الخامس : ان الفلاح لا يلزمه خدمة الخمسة أطْرُق وله أن يستخرج زيته من زيتونه بحسب ما يظهر له في العصر . وان لم يأته صاحب المعصرة بالجمال الصحاح يرفع أمره إلينا لنغصبه .

الامر السادس : يدفع الفلاح على كل ادالة حبٍّ قُلّة زيت واحدة بمعيار المعصرة الذي يأخذ به الفلاح زيته ، وذلك كراء المعصرة وآلاتها والمعاصرية (3) ، ولا تلزمه مؤونة المعاصرية ، لانها داخلة فيما ذكر . ولا يلزمه على الابناد بنوعيها غير القلة المذكورة على ادالة الحبِّ .

الامر السابع : ان الفيتورة ، بعد ان يستوفي ربُّها عصرَها بما يريد ، تكون لجانب البايلك (4) ، على العادة .

الامر الثامن : لكل واحد من رعيتنا ان يبني معصرة من غير منع ، بحيث تكون في اطراف البلاد من الاماكن المناسبة ، ولا ينشأ منها ضرر لجيرانه ، ويكون كراؤها وكراء جمالها والمعاصرية مثل ما رتّبناه في معاصر البايلك ، وكراء خواسرها له ، وليس للبايلك منها الا حق الله في العشر ، على نحو ما بيّن أعلاه ، والفيتورة بعد احكام عصرها . ونجعل فيها ناظرا لحفظ العشر .

---

(1) الرياس ج رايس وهو رئيس العملة .

(2) في ق مشكولة بضم الباء وسكون النون ، ومعنى البند الحي المعصور ثانيا ، والميت المعصور ثالثا .

(3) عملة المعصرة .

(4) البايلك: حكومة الباي .

الامر التاسع : ان الخواسر(1) تكرى على العادة المقررة ، وبها يأخذ الفلاح الطريق في العصر ، الا اذا فسد زيتونه وثبت بشهادة عدول الغابة والامناء وأعيان الفلاحة والقايد ، فان الضرر يزال عن صاحبه بتقديمه في العصر .

الامر العاشر : ان سائر ما يتعلق [باجراء هذه الامور ، وما يقع بين ارباب الزيتون مما يتعلق] (2) بأحواله واحوال المعاصر ، يكون نظره لمشايخ البلاد الثلاثة وشهود الغابة والامناء والاعيان من الفلاحة وقايد الغابة . وما يقع عليه اتفاق الاكثرين يرفع الينا لنأمر بامضائه .

وحسب صاحب المعصرة ورب الزيتون ان يكون عمله على ما حررناه ، وسطّرناه وأمضيناه ، والى اهل الحاضرة شرحناه ، وما سواه فقد اسقطناه ، والله أسأل الاعانة على صلاحكم ، وزيادة مكاسبكم ونموٍّ ارباحكم . وأرجو أن يكون هذا من أسباب العمران ، وتكثير الشجرة الممدوحة في القرآن . وأمرنا بقراءة هذا الظهير على سائر الفلاّحة ، ومن اراد نسخه فله ذلك ، ويبقى بيد الشيخ حجة يرجع اليها ، ويعول عليها .

والله ولي التوفيق ، والهداية الى اقوم طريق » .

وكتب في عاشر صفر من سنة 1274 (الاربعاء 30 سبتمبر 1857 م.) .

والاسماء المذكورة في هذا المنشور هي اصطلاح التخاطب في عرف اهل الزيتون ، معروفة عندهم .

والنتيجة انه أسقط من جباية الزيت قدر النصف . وبنيت بعد هذا معاصر ، واقبلت الناس على غراسة الزيتون ، لا سيما بمرناق ، وازداد في الغابة كثير من أصوله ، مشاهد بالعيان ، [لما] (3) خفَّ ثقل مغرمه .

وهذا في الحاضرة ، اما غيرها من بلدان المملكة فانه أبقاه على عادته اذ لم يكن فيه كبير ضرر .

---

(1) الخواسر هي مستودعات للزيتون تعرف الآن بالمصارف

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

ثم ان المعاصرية ، وهم اهل صناعة العصر [للزيتون] (1) استقلّوا ما قدّر لهم من الاجر في المنشور ، وليس في الحاضرة غيرهم ، وهي صناعة ضرورية اتفق أهلها على عدم عملها الا بأجر فادح يحصل منه الضرر ، فأمر مشايخ البلاد وعدول الغابة والامناء وأعيان الفلاحة ان يجتمعوا لتقدير أجر مثليٍّ لهؤلاء لا ضرر فيه على الجانبين ، وما وقع عليه اتفاقهم رفعوه إليه وامضاه بأمر مؤرخ بالثاني عشر من جمادى الاولى سنة 1274 ، (الثلاثاء 29 ديسمبر 1857 م.) ، وهو الآن بيد المشايخ يرجع اليه .

وازداد للشجرة المباركة بهذه العناية نور على نور . وحذا هذا الباي في زيتون الحاضرة حذو جده الاعلى باني البيت حسين بن علي ، فانه خفّف عنه ما استطاع ، وأبطل القانون الذي كان على اصول الزيتون أجدب أم أخصب ، وسلّمت الناس في أملاكها ، وكادت الغابة ان تضمحلّ ويطفأ نورها ، فجعل فيه ترتيبا أمنه للاحتفاظ عليه والرجوع اليه في ديوان الترك ، لكن بقي اسمه وزال مسمّاه بنهب اللزّامة وتغافل الملوك للتغالي في ثمن اللزمة .

وقدّم لامر الغابة من قدّمه للأعشار بالرابطة ، وهو ابو الفداء اسماعيل المعروف بقائد السبسي [المتقدم ذكره] (2) ، وهو بمكان من الامانة والوقوف عند الامر ، إلا أنه أطلق عنان خيل الغابة فيما يوجد فيها وبقربها من الانعام والمواشي لاكل ثمرها وفساد شجرها ، يعاقب على ذلك بالمال على العادة السابقة من دفع ظلم بظلم ، حتى انه يقال عند العامة : « الغابة جورها عدل » ، اي الجور في حراستها عدلٌ لحفظها ، وأغضى له الباي عن ذلك .

***

وفي ذي الحجة من السنة 1274 (جويلية — اوت 1858 م.) أمر الباي بابدال سكة النحاس ، وصيّر رواجها بنصف ما كانت . وذلك انها كثرت في البلاد كثرة فادحة فوق المظنون . واكثر الباي من ضربها ولم يقف عند حدٍّ من تقدمه ، بحيث صارت دار السكة لا تضرب الا سكة النحاس ، لكثرة ما فيها من [اسم الربح و] (3) الفائدة للدولة ، حتى كاد ان لا يكون التعامل إلا بها .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .

والاصل في سائر الاقطار ان سكـة النحاس انما هـي إعانة في كسور احد النقدين .

وقلّت الفضة حتى كادت ان تعدم ، لان التجار يخرجونها من المملكـة اذا لـم يجدوا سلعة يشترونها عوض سلعتهم .

وضاق الحال وصار الوافـدون من التجـار يشترطون في اثمـان سلعهـم الفضـة او الذهب (1) ، والشرط أملك .

وضجّ تجار الافرنج من ذلك ، ورفعوا شكايتهم بتعطيل المتجر بواسطة قنـاصلهم . وظهر التعطيل واضطره الحال الى تبديلها ، فأعلم سائر اهل البلاد بما عزم عليه من تبديلها ، وكاتب قناصل الدول الاجانب (2) بما نصه :

« اما بعد ، فاننا أمرنا بجمع قطع النحاس المسكـوكـة من سائر إيالتنا في دار السكة . والقطع هـي ابو ربـع وابو ستة وابو خرُّوبة وابو ناصري وابو فلس . وجعلنا الاجل للقبول بالمكان ثلاثين يوما من يوم التاريـخ . واول ما يقبل ابو ربـع وابو ستّة في مدة الثـلاثين يوما . ويبقى ما عداهما من سكـة النحاس للتعامل به بين المحتاجين بسعره الاصلي في مدة الثلاثين يوما . وبعد ذلك يقبل ابو ثلاثة وابو ناصري وابو فلس في مدة ثلاثيـن يـومـا اخرى . وكـل من يأتـي بما عنده من سكـة النحاس يأخذ توصيلا في مقداره من المأمور بدار السكـــة .

وبعد مضـي الثلاثين يوما يصير رواج سكـة النحاس بنصف ما كان . فأبو ربـع ريال يصير ثمن ريال ، وابو ستة يصير خروبة ، وابو ثلاثة نواصر يصير ناصري ونصف ، والناصري يصير فلسا ، والفلس يصير نصف فلس . وكـل من اتى بدراهم وبيده توصيل فيها ، يأخذ من دار السكـة ، بعد مضـي الثلاثين يوما ، نصف المقدار الذي أتى به نحاسا على السعر الثانـي الذي حكمنا به ، والنصف الآخر يأخذ فيه تذكـرتنا ليقبضه على أربعة اعوام في اربـع كـرّات ، الاولى بعد مضـي عام من تاريـخ التذكـرة ، وهلم جرا حتى يـكـون خالصا عند انقضاء العام الرابـع . وكـل كـرة يقبضها حامل التذكـره يقيد على ظاهرها التوصيل . ومن يبقى بيده شـيء من سكـة النحاس ولم يأت به في المدة المعينة لا

---

(1) في ع و ق : « ما جعله الله ثمن كل مثمن وهـو النقدين » .

(2) في ع و ق : « الدول الاحباب » .

يقبل بدار السكة ، ويمضي بالسعر الثاني الذي حكمنا به ، وخسارته على ربه لانه فرط . فالمراد ان تُعلِموا مَن لنظرهم بذلك ، ودمتم في أمن الله » .

وعند ذلك لاذت الناس بأصحاب الناضّ من التجار ، لاسيما أهل أوربا ، يدفعون لهم ما بأيديهم من سكة النحاس ويأخذون صرفها فضة او ذهبا ، على إسقاط شيء من رأس المال . وبلغ ذلك الى إسقاط الخمس والربع من المال . وربح فيها مَن أخذ النحاس نصفَ ماله في اربع سنين ، دون ما اخذه من الصرف العاجل ، اذ لا وثوق لرعايا ملوك الاطلاق بأمرائهم فلا أمان عندهم ، والتجار الافرنج في حماية دولهم .

ولاقى الفقراء من ذلك شدة على شدة وبؤسا على بؤس .

وخسرت الدولة في ذلك اكثر مما توهمته في ضربها من الربح العاجل .

وهكذا الشأن في كل دولة تتّجر في نقودها ، إما تخسر ذلك الربح عاجلاً كحالتنا ، او تخسر المملكة بنقصانها المؤدي الى خرابها شيئا بعد شيء حتى تضمحل .

⁂

وفي محرم غرة سنة 1275 ، خمس وسبعين (اوت — سبتمبر 1858 م.) ، رتّب الباي المجلس البلدي للنظر في مصالح أبنية البلاد وتوسيع الطرق وغير ذلك مما تدعو الحاجة لوجوده او رفعه .

وجعل له نظر أمناء المعاش ، وصيّرهم ثلاثة ، وجعل رئيسه النجيب ابا عبد الله حسين احد اعيان المماليك ، وجرى على نهج استقامة فيما أمِر به ، واتسعت بعض الطرق بهدم ما كان يعطّل المارّين ، مثل الدكاكن والستائر المجعولة على أبواب الحوانيت ، إلا أنه مال للتحسين قبل استكمال الضروري والحاجي ، مِن جَعْل الطرق من تونس الى باردو ، وغرس اشجار لا ثمرة فيها على حافتيها ، مشتراة من خارج المملكة بمال له بال ، الى غير ذلك مما يدعو له تمام العمران ومزيد الثروة .

⁂

ولم يزل هذا الباي يستعظم شأن المصاريف على العسكر ، إظهارا لغلط مَن تقدّمه ، لانه كان يسمع التشنيع عليه في ذلك على أنحاء مختلفة ، ويقول للوزراء في معرض

الاعتراض على مخدومهم الاول : « ان الدنيا الآن رتّبتها عظماء الدول على الحقوق ، ولو كانت على حسب القوة ما يمنع الدولة القوية ان تستولي على الضعيفة . وحسبنا من العسكر ما نستعين به على الهناء ودوام الراحة لبلادنا وتربية الجهّال منهم . وأي فائدة في بقاء عسكر محبوس في قشلة تصرف عليه المملكة ، مع نقص عمله منها » . فيلوذ بعضهم بأن الملك لا بدّ له من شعار وفخامة ، فيجيبهم بأن الفخامة انما هي بالعمران والثروة والعافية والهناء ، الى غير ذلك من الكلام المسلم الدائر على مركز المصلحة ، باعتبار الحال والمكان والزمان . [وما درى ان المساكين الوزراء عانوا في معارضة من تقدّمه كما يعانون في معارضته] (1) .

وآل أمره الى التنقيص ، بعد ان تفاوض مع الوزراء في ذلك واتفق الرأي عليه ، فأمرني أن نكتب لوزير الحرب بما نصّه :

« من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور اليه ، المشير محمد باشا باي . سدّد الله أعماله ، وبلّغه من عمران هذا القطر آماله . الى فخر الوزراء الاركان ، وعمدة اهل الرفعة والشان . وفارس ميادين الكمال والعرفان ، الثقة العمدة الخلاصة الاوفى النصوح المقرب ، وزير الحرب أمير الامراء ابننا مصطفى باش آغة ، لا زالت مساعيه ناجحة ، وآثار خدمته الجميلة واضحة .

اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان النظر في التراتيب العسكرية من اهم الامور ، وباستقامته على قوانينه صلاح الخاصة والجمهور . وقد أجلْنا الفكر ، وأطلنا النظر ، وتفاوضنا في المشورة مع ثقاتنا ورجال دولتنا فيما يجب فيه النظر من احوال عسكرنا وإيالتنا ، فرأينا بعض الآلايات وقع في أعدادها النقصان ، من الوجهة الجهادية ، والاجل المحتوم على كل انسان ، بعد أن سرّحنا من الموجودين مَن استوجب التسريح ، بالعذر الثابت الواضح المبيح ، ولا مساغ لتعطيل مَن هذا حاله ، وكل عسكري فالى التسريح مآله . ومن المعقول الواقع في الاقاليم ان حال العسكر كثرةً وقلّة يتبع حال الوقت من سلم أو حرب . والسلم بحمد الله ثابت الاساس في غالب المعمور ، فايالتنا الآن والحالة هذه احوج لتكثير العمران ، من تكميل ما وقع في الآلايات من النقصان . واذا صار

(1) الزيادة عن ع و ق .

الدفاع فرضا عينيا ، صار كلُّ مسلم عسكريا . ونتيجة هذه المقدمات التي حررناها ، والى الاسماع وضّحناها ، ان تحضر معك نخبة الاكابر الاركان ، وفارس ميادين الحرب والعرفان ، وعمدة أهل الشان ، الثقة الخلاصة الاعز أمير امراء عساكر السواحل (1) ابننا رشيد ، وأمراء الالوية المباشرين للخدمة العسكرية ، واقرأ على مجموعهم هذا المنشور ، ليعلموا ان خدمتهم معك في هذه الامور :

الامر الاول : ان تنتخبوا من سائر امراء الآلايات الموجودين الآن من يصلح لخطته من جهة المعرفة بالتعاليم العسكرية ، والعلم بكيفية إجرائها ، مع مراعاة السن والقوة البدنية التي تتحمل تعب المباشرة من الآن . والذي يقع عليه الاختيار يكون من اعضاء مجلسكم لانتخاب بقية الضباط .

الامر الثاني : ان من ينتخب من قائمي المقامات يكون من اعضاء مجلسكم ايضا لانتخاب بقية الضباط .

الامر الثالث : ان المنتخب من أمناء الآلايات والبنباشية يكون من أعضاء مجلسكم لانتخاب بقية الضباط .

الامر الرابع : ان الضباط الذين تنتخبونهم يكون قدر كفاية ثلاثة آلايات من ثلاثة طوابر ، لان ذلك هو ما اقتضته المصلحة الآن ، والاحكام تتبع المصالح الوقتية ، ويقع مثل ذلك في الطبجية . وبعد هذا نعيّن لكم المقدار الذي يلزم .

الامر الخامس : ان تنتخبوا من آلايات الخيّالة طابورا واحدا لعسّتنا بضبّاطهم ، ويكون انتخابهم باعتبار المروءة الانسانية والسن والقوة والفروسية .

الامر السادس : ان تضيفوا عسكر آلايات الخيالة والآلاي السابع الى الآلاي الاول .

الامر السابع : ان تضيفوا الآلاي الثالث والآلاي الرابع الى الآلاي الثاني .

الامر الثامن : ان من يبقى في هذه الآلايات الخدامة من المعاوضين وغيرهم ، يُسَرَّحون لما يتمُّ القانون الذي امرناكم به في نزول العسكر على قانونه بالقرعة عن قريب ان شاء الله تعالى ، ونحثكم على إتمامه فورا .

---

(1) كذا في خ و ع ، وفي ق : « امير عساكر الساحل » .

الامر التاسع : ان تضيفوا الآلاي السادس الى الآلاي الخامس .

الامر العاشر : ان من يفضل من الضباط على (1) قوام الآلايات الثلاثة ، حرّروا لنا في زمام اسماءَهم وحالهم في الخدمة العسكرية ومدة اقامتهم في الخدمة مباشرة ، ليجزى كلٌّ على حسب عمله . فليس من باشر الخدمة كمن لم يباشرها الا بالاسم ، وليس من خدم المدة الطويلة حتّى ذهب فيها اطيب عمره كمن خدم المدة القصيرة . حرِّروا لنا كلَّ نوع وحده .

واوصيكم ، سدّد الله حالنا وحالكم وقرن بالاصابة أعمالنا واعمالكم ، امتثالاً لقول الله تعالى « وَذَكِّرْ فَاِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ » ، ان تتثبّتوا وتمنعوا النظر في هذا الامر المهم الذي وَثِقْتُ فيه بكفايتكم ، ونظرته بعين أمانتكم ، فانها مصلحة تعمُّ الوطن والجمهور ، ومثلكم من يعلم مقادير هذه الامور .

وتناوضوا فيها بالاستشارة فلا خاب من استشار .

وقد استعملتكم في هذه الخدمة وانتظرت ما يرد علي فيها من أثركم الجميل ، وانتم بحمد الله محلُّ هذا التأميل .

فبادروا لإتمامها فورا باعانة الله والتوكل عليه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، والسلام » .

واجتمع هذا المجلس ، وانتخبوا ما أمروا به على الوجه المقرر لهم في الامر . وسرح من افراد العسكر من طالت مدته او ضعف بدنه ؛ ومن بقي من الضباط زائدا على مقدار العسكر سرّحه وأبقى له نصف مرتبه . وكتب لكل واحد منهم جبرا لخاطره ما نصه ، بعد افتتاحه وذِكْر اسمه :

« اما بعد فاننا لما رتّبنا العسكر على ما اقتضته المصلحة في الوقت والحال . وابقينا من امثاله من يقوم بضبط اولئك الرجال ، انفت حميتنا العسكرية من طرحه واهماله ، ولا مقتضى لها من حاله ، اذ لم يصدر منه عيب ، ولا شانَ خدمتَه العسكريةَ بريب ، مع عدم الحاجة لإبقائه بلا عمل في خدمته ، وتعطيل مصلحته ، فسرحناه من مباشرة الخدمة العسكرية ، وابقينا له نصف مرتبه واستحقه بسالف خدمته المرعية ، مدة حياته

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « عن » .

الدنيوية ، مع اعتبار ما ناله من العناية والاحترام ، باعتبار الخطة والمقام ، فهو وان لم يباشر الخدمة العسكرية ، يؤمَّل ان يباشر ما يستكفَى به في خدمتنا السياسية ، وبابنا له مفتوح ، واكرامنا له ممنوح ، خصوصية له ولامثاله ، ممن دخل في الخدمة على منواله ، وأوصينا له بالرعي والاحترام ، وان لا يقاس بما يقاس به العوام ، لانه وان لم يكن في العسكر الآن ، فله من الاحترام عين ما كان ، واوصيناه ان يسلك السبيل المرضية ، ويصون احترامه ان ترفع به شكية ، والله ولي التوفيق ، الى اقوم طريق ، والسلام » .

وكل من أصيب في بدنه من العسكر او من الضباط ابقى له مرتبه كاملاً وسرَّحه وكتب له ما نصه :

« امرنا هذا بيد ولدنا فلان ، وانه لما توجه مهاجرا الى الله ورسوله في هذه الوجهة الجهادية ، وخدمة الدولة العلية ، وصدر منه ما يدل على نظافة العرض ، ويزين الوطن والارض ، وقام احسن قيام بالفرض ، والاثر في بدنه شاهد بحسن خدمته ، وهو اعظم نيشان لحرمته ، فسرحناه لعجزه عن الخدمة العسكرية ، وابقينا رواتبه مَجْرية ، ما دام في الحياة الدنيوية ، وله منا مزيد التقريب والعناية والاحترام ، على ممر الدوام ، وهو مع تسريحه محسوب من عساكر الاسلام ، لا يقاس بما يقاس به غيره ولا يضام ، والله لا يضيع أجر من احسن عملا » .

⁂

وفي خامس صفر من السنة 1275 (الثلاثاء 14 سبتمبر 1858 م.) ، صدر امر الباى بتسريح اليهود للبس الشاشية الحمراء ، وشراء ما يملك من الربع والعقار بالحاضرة وغيرها ، وانتحال الفلاحة ، وهو من التسوية بمقتضى عهد الامان ، بل بمقتضى العدل وما يقتضيه حال كل زمان . وذلك ان تعيين زي مخصوص لاهل الذمة ليس من أصول الدين ، وان النبي صلى الله عليه وسلم لم يغير زي يهود المدينة ، وهم من سكانها معه .

وأول من أمر بتغيير الزي لاهل الذمة ، الخليفةُ المتوكل العباسي في سنة خمسمائة من الهجرة (1) ، على عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كما حكاه صاحب (2) « محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر » ، وكان ذلك ايام تراجع الخلافة العباسية .

---

(1) كذا في خ و ع و ق .

(2) هو علي دده ، المتوفى سنة 1007 هـ (كشف الظنون ص 1610 ـ بروكلمان ذيل 2 ص 635) .

وقد كان اليهود في ايالة تونس بل وفي المغرب كله على حالة من المذلة والامتهان والاذاية التي اقتضت غيرةَ الله على مصنوعه ، لا سيما مع قول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « استوصوا بالذمة خيرا » ، وقوله صلى الله عليه وسلم ، عند انتقاله الى الرفيق الاعلى : « احفظوني في ذمتي » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من آذى لي ذمّيا فأنا خصمه » ، ولا شك ان الصَّغَار غير الاذاية .

واما شراء الربع والعقار فقد كان سابقا بلا حَجْر ، من حيث انهم من رعايا المملكة ، ورسوم المتأصلين منهم في ملك دُورهم تشهد بذلك ، اذ لا مانع منه شرعا ، ومنعهم من ذلك ابو محمد حمّودة باشا الحسيني اوائل دولته ، لسياسة ظهرت له وقتئذ ، حتى غلت اكرية دورهم ، وتضايقوا بسبب ذلك في السكنى مضايقة افضت الى تعفن الهواء وأسباب الامراض ، ولا داعي لذلك من صحيح الاغراض .

ولما وقع هذا التسريح من الباي ، أنِفَ جهّالُ الحاضرة [وغيرها] (1) من ذلك ، ورأوه لجهلهم من أشراط الساعة ، وما دروا ان ما حلّ بالقطر من النقص في الاموال والانفس والثمرات ، من أعظم أسبابه ظلمُ أهل ذمتنا ، وترك وصية نبينا .

ولعل البعض ممن يطّلع على هذا الموضوع يرى ان عهد الذمة انتقض ، فأقول له عليك بمطالعة « الاشباه والنظائر » (2) من كتب الحنفية في احكام الذمي ، ومطالعة « الاحكام السلطانية » للماوردي من كتب الشافعية ، ومطالعة الفرق الثامن عشر (3) والمائة والفرق الذي بعده [من فروق القرافي] (4) من كتب المالكية ، ترى معنى الذمة وما ينقضها وما لا ينقضها .

وما درى الجهال بثمرة التسوية ان جهلهم أوجب فيهم عدم مساواة ، والمكافأة من جنس العمل ، حتى صاروا عبيد جباية وآلة لغيرهم ، ليس لهم من ثمرات خطط بلادهم الا مشاهدة استئثار غيرهم بها ، وربَّ مكرم لنفسه وهو مهين لها ، ورب مهين لنفسه وهو مكرم لها .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الاشباه والنظائر لابن نجيم المتوفى سنة 970 (كشف الظنون ص 98) .
(3) كذا فى خ و ع . وفى ق : « الثالث عشر » .
(4) الزيادة عن ع و ق .

الخبــر عن مــاء زغــوان

الشبيــه بسيــل العــرم

على هذه الايــالــة

كان في ذي الحجة من السنة 1275 (جويلية 1859 م.) قدم لهذه الحاضرة مهندس فرنساوي اسمه كولان ، وتعلق بقنصل الفرنسيس ليون روش المتقدم ذكره ، ودبّر معه لفائدة نفسه في ان جلب الماء من زغوان وجُقّار يمكن وصوله بلا كلفة الى الحاضرة وباردو وحلق الوادي والمرسى على الحنايا القديمة والمجاري السابقة في أنابيب من معدن يؤتى بها من فرانسة .

ويقال انه ساهم القنصل بجزء وافر من الربح ، والله اعلم ، غير ان اجتهاد القنصل في جلب هذا الماء ، والحرص على اتمام العقدة حرص السمسارين ، لا يُبعِد هذا الظن ، لانه كان يترامى على الامتزاج بالباي كما تقدم ، غير معتبر لخطته ، حتى انه كان يَطرُقه ليلاً في بستانه واوقات راحته ، لامر هو يعلمه .

فأتى الباي مرة وقال له : « من سعادتك ان مهندسا فرنساويا ظهر له ان الماء يجلب من زغوان للحاضرة وحلق الوادي والمرسى بأيسر مصروف » .

وتردد على الباي في ذلك تردد السمسار الملحّ ، وهو يرفل في احترام دولته . وسوّل له ان هذا الماء لما يصل للحاضرة تهرع الناس الى شراء انابيب منه لدُورهم ، ويوفرون ثمن الدلاء والحبال ، ويستغنون عن مصانع الماء ، ويشتري منه من يريد شغل الارض بالاشجار والنبات ، وتكثر الاشجار وتنمو الفلاحة ، ويحصل من ثمن ما يباع من الماء أضعاف ما يدفع في جلبه ، الى غير ذلك مما ينمّقه البائع في تحسين مبيعه .

ولما سمع الباي ألفاظ نمو العمران ، وشغل الارض بما يقتضي التخفيف من الجباية الموظفة على الرؤوس ، اذ كانت مناط نظره ، لا سيما وقد وعد باسقاطها في منشور الاعانة ، لان الاداء على الرؤوس مما تستثقله النفس الانسانية ، لا سيما الامة المُسلِمة ، لِمَا يرونه من الشبه بالجزية التي من اسرار ضربها على الكافر إلجاؤه الى الدخول في الملة الذي هو مناط نظر الشارع . ولما سمع ذكر التخفيف ، مال الى استحسانها ورآها صلاحا ، واكثر مصارع الرجال تحت بروق الاطماع ، فاغتنمها القنصل .

وكان هذا الباي جديّ السجية ، ينبني الامور على ظواهرها ، ويطمع في كل ما يسمع ، من غير إعمال فكر ولا تبصر في العواقب .

ومن الغد جمع رجال دولته وقص عليهم اضغاث رؤياه لهذه المصلحة ، فبادروا بالانكار على لسان واحد ، وهو المتبادر على البديهة ، وبينوا له شُبَهَ المغالطات ، عدا الوزير ابي النخبة مصطفى خزنه دار ، لانه حضر الموطن مع القنصل ، ورأى شَرَهَ الباي وشهوته ، فطفق يُحَسِّن بمقدمات خطابية ، شأن الوزراء للملوك الإطلاق ، كما تقدم في العقد الاول من المقدمة .

واما الوزير خير الدين فانه علم استحسان الباي لهذه المصلحة وانه انفصل فيها مع القنصل فسكت ، وربما اعان اعانة من يعلم ان حضوره للسماع لا للمشورة الحقيقية ، وظهر ذلك من حاله .

وحاصل ما قال له رجال الدولة في هذه المصلحة ، التي هي في الحقيقة للمهندس ومن كان على شاكلته ، ان هذه الحاضرة اتفق تأسيسها على غير ماء ، فاتّخذ أهلها المصانع في دُورهم لجمع ماء المطر للشرب ، ولا تخلو دار من بئر للاستعمال في غير الشرب ، وتأسيس أبنيتها على هذا الاعتبار ، وبها من الفساقي لجمع ماء المطر ما يكفي لو صلحت ، وسقاياتها مجلوب لها الماء من عين الجبل الاحمر ، حتى قال له ابو عبد الله محمد عامل الساحل : « ان جلب الماء من زغوان يستدعي مصروفا كبيرا ، فأعطني عشره أصلحْ منه سائرالفساقي وَأُجْرِ الماء لسائر السقايات وأُحكمْ بناء الساقية ، واذا لم يكف أكمل ذلك من عندي » ، فقال له : « ان القصد بيع الماء » ، فقال له : « هل تريد الغصب على شرائه ؟ » ، فقال : « لا يمكن ذلك » ، فقالوا له : « إذاً لا يشترى أحد ، إذ لا داعي له ، إلا من يريد النزهة بجريان الماء ونبعه ، وهم أقل من القليل ، مع انهم يقولون ان ماء زغوان وَخِم ، على أن ماء زغوان ثلاثة ارباعه مملوكة لاربابها ، اشتروها بأموالهم من الدولة ، يقتسمونها بينهم لدورهم وأرحيتهم واشجارهم ، فاذا أُخِذَ لهم (1) تتضرر أشجارهم المعتادة بالسقي ، ويؤدي ذلك الى نقص في عمران الإيالة بموت هذه الاشجار ، ولا ضرورة لذلك الا مجرد التحسين . مع ان الانابيب الجاري فيها

(1) اخذ لهم : أخذ منهم (عامية تونسية)

الماء لا تخلو من صرف كثير دائم بدوامها ، وهذا مصرف زائد لا داعي له . وليس هذا مما يحسن فيه الاقتراض ، لان التداين يغتفر في الامور الضرورية » ، الى غير ذلك مما يُعلّم بالبداهة . لكن الشهوة حجاب يغطّي نور العقل ، ومن أطاع هواه ضلّ ، ومن اشترى ما لا يحتاج اليه باع ما يحتاج اليه . ومن ساس نفسه ساس جنسه .

ولما لم يجد قوة لردّ شهوته ، قال للجماعة : « أعطيت كلمتي للقنصل في ذلك » ، فعند ذلك تنفّس الامير خير الدين ، وقال له : « أي فائدة لجمعنا حيث أعطيت كلمتك، وحسبنا سماع هذا الخبر من سيادتكم » ، فقلت له : « قد وقع الوعد ولم يقع انفصال ، ولا أقل من ان نشدد في شروط هذا الاتفاق حتى يكون الامتناع من جهته » ، فقال لي : « المؤمن عند لفظه » . ولما خرجنا ضرب بيده على كتفي ، وقال لي : « ان شاء الله يصل هذا الماء لتونس وتطلب الشراء منه ولا نبيعه لك » ، فأمّنتُ على دعائه .

وأمر بعمل الاتفاق مع المهندس على يد القنصل ، ومحصله سبعة ملايين ونصف مليون فرنك تدفع للمهندس مكاتيب على آجال ، والدولة تدفع ربا المكاتيب ستة على المائة ، وتدفع ثمن الانابيب حالاً ، الى غير ذلك مما سوّدت به وجوه الطروس ، في ذلك الاتفاق المنحوس ، الذي نتيجته ان الدولة تداينت بربا لتحسين موهوم ؛ اذ لا ناضّ عندها ، وازداد بذلك صرف على الدولة لا قِبَل لها به ، وأفضى الى زيادة وهن وضعف .

وان كان هذا الباي خلّص هذه الإيالة باعانة الوزير خير الدين من ورطة الدّين الذي أمر به ابن عمه المشير احمد باي ، ليصرفه على العسكر التونسي باسلامبول ، الا انه أوقعها في ورطة أفظع وأشنع ، ومحا حسنته الاولى بسيئة هذا الماء التي هي اعظم أسباب الخراب ، لانه أتى بها ومزاج الدولة والمملكة في مرض الهرم .

وهذا من ثمرات الملك المطلق ، وسبحان من انفرد به وهو الحكيم الخبير . وحسب الوزراء انهم لما رأوه عمد الى خرق السفينة تكلموا ، ولما أراهم شهوته وجموا ، ولو كان لهم قانون أخذوا به على يده فسلِم وسلموا ، لكنهم خافوا فأحجموا ، ولمّا أدركها الغرق ندموا ، فكانوا كما قيل :

تبغي النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليَبَس

وهذا الماء هو السبب الذي جرّ الى ما بعده من اسباب النقصان والخراب . وكـذلك يُريهم الله أعمالَهم حسراتٍ عليهم . ولله فينا علم غيب نحن صائرون اليه . والمرجوُّ من فضله وحلمه اللطف بعباده الذين قادتهم أعمالهم الى ربقة القهر ، ولا يظلم ربك أحدا .

*

وفي محرم غرة سنة 1276 ، ست وسبعين (أوت 1859 م.) ، وجّه الباي أخاه ابا عبد الله محمد الصادق بـاي بمحلـة الصيف على العـادة ، فأمّن السبـل وقرّر الهنـاء وخلّص الحقوق ، وأتاه اهل الجبل فرحين مستبشرين طائعين .

*

ومرض الباي في مغيب أخيه ، سادس صفر (الاحد 4 سبتمبر 1859 م.) ، قبل ان يختم اتفاق جلب الماء المنحوس .

ولم يزل مرضه يزداد ، وطلب له قنصل الفرنسيس طبيبا من دولته . وهو في مـرضه يوصـي بـكـتمان حاله عن أخيه ، حتى ان اخاه لما بلغه الخبر وجّه ثقة من اعيان مماليكـه، وهو ابو عبد الله حسين ، ليحكـي له ما يشاهده من حال أخيه . ولما دخل اليه وهو بفراشه ، حذّره ان يقول لاخيه ما رآه من حاله ، وكاتبه بخبر العافية .

وفي اثناء ذلك بعث أخوه يطلب الاذن في القدوم ، فلم يأذن له ، فقال له وزراؤه : « انه تمّم الخلاص او كاد ، فلا مقتضى لبقائه بالمحلة » ، فغضّ عنهم ، وأشار لهم بأن مرضه غير مخوف ، فأحجموا عن الكـلام .

وكاتب الوزير ابو النخبة مصطفى خزنه دار أخاه بحال سيده ، وان مرضه مخوف [باتفاق الاطباء] (1) ، غير انه ثابت الذهن ، كامل الميز ، يتعذر الكـلام معه في شأن قدومك والحالة هذه ، وهكـذا كـلما كـاتبه بحال اخيه .

ولم يزل مزاجه يضعف ، وأمله في الحياة يقوى ، الى ان توفاه الله عشية يوم الخميس الرابع والعشرين من صفر سنة 1276 ، ست وسبعين (22 سبتمبر 1859 م.) ، ببستانه في

(1) الـزيـادة عن ع و ق .

المرسى ، ورأيته طريحا على الارض كما قاله لما رأى ابن عمه طريحا على الارض في قصره بحلق الوادي .

وبعث الوزراء في الحين لشقيقه وولي عهده مع أمير لواء العسة ابي الضياء رستم ، ودفعوا خواتيمه ، بعد ان ختموا عليها ، لاكبر الحاضرين من اخوته وهو ابو محمد حمودة باي ، وأبقوا نظر القصر وما فيه لشقيقه ابي الحسن علي باي ، وطلبوا منه ان يبقى به حافظا ، بحيث لم يشهد جنازة أخيه .

و [من الغد] حملوا الميت الى داره بباردو ، وانتظروا قدوم ولي العهد ، فقدم عشية يوم الجمعة ، [ونزل بدار أخيه] (1) ، وعانق أخاه ميتا وقبّله باكيا ، وذرفت عيون الحاضرين .

ومن الغد وهو يوم السبت ، دفن بالتربة [حذو والده] (2) ، بموكب حافل مثل ابن عمه ، رحمهم الله .

حال هذا الباي

كان كريم النفس مقداما ، فارسا راميا ، طلق المحيّا يغلب عليه الحياء ، سليم الصدر سوِيّ الظاهر والباطن ، بعيدا عن العسف في الجباية ، رفيقا بمجموع الرعية ، ضاربا على أيدي العمال خاضدا شوكة تعدّيهم ، لا يكاد يتجاوز في ذلك ولو للمقربين لديه زلفى من أصهاره وخاصته ، حتى خافه العمال واحترسوا من ان ينسب إليهم شيء من أخذ المال ، حتى ان صهره على شقيقته المقرب لديه ابا الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، ازداد له مولود فبعث له اهل جربة ، وكان عاملاً عليهم ، بخمسين الف ريال ، على وجه الهدية للمولود ، فتخوف من قبولها وردّها ، وطلب مني أن أكتب لهم على لسانه بما يجمل من الاعتذار ، ويزيل وحشة الردّ لما سموه هدية وكرامة .

اشتكى له قايد ناجعة من العربان برجل مسنّ ادّعى انه أفسد عليه [في عمله] ، وحاله تنافي الدعوى ، وقدم حجة من الزيوف التي لا [تروج ولا] (3) تنفق الا بمحكمة تونس .

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ولما قرأتها عليه اذا مضمونها ان افرادا شهدوا على هذا الرجل بأنه يفسد على القايد ، فقال للقايد : « بيّن لي إجمال الامور التي أفسد فيها » ، فتلجلج ، فعزله في الحين واولى المشتكى به عوضه ، بمحضر اعيان العرش في وقت الحكم بالوطق امام بستانه بالمرسى .

يكره الاسراف في فخامة المملكة بما لا تتحمله طاقتها ، ومن سعادة الجسد الوقوف عند الحد ، غير جاهل بقدر المملكة ولا متجاهل ، والمتشبع بما ليس عنده كلابس ثوبي زور ، حتى انه أبطل نواشين الذهب المرصعة المميزة لخطط العسكر ، وأبدلها بنجوم من فضة يعلم بها مقام حاملها ، وأبطل نواشن الافتخار المرصعة ، الا عن آل بيته ، وجعل عوضها فضة مزججة من عمل البلاد ، إلا أنه محا اسم من ابتكرها وهو المشير احمد باشا باي واثبت فيها اسمه . غِرٌّ السجية ، والمؤمن غر كريم ، يقبل ما يسمع من غير إعمال فكر ، حسن الظن ، جريئا في أحكامه ، يستعجل في إنفاذها من غير ميل للتأني حتى في القتل ، يصعب عليه كظم الغيظ ، وربما يعقبه حِلْم .

يميل الى العادات المألوفة ويصعب عليه تركها لاي سبب كان ، حتى انه همّ بنقض ما أحكمه ابنُ عمه من منع مِلْك الإنسان ، كما تقدم في الباب السادس ، فثبّطه الوزراء عن ذلك ، وقرّروا له خطره ، وبيّنوا له سياسة ابن عمّه وان الدول استحسنوا نظره في ذلك . وما زالوا به الى ان قال : « يبقى المنع عليكم وأنا أمْلِك » . ولما لم يجد من يأتي له بذلك من أرض السودان عاجلاً ، أخذ من أولاد الذين كانوا مملوكين في نواجع العربان ، وبالغ في الغصب على ذلك حتى أخذ بنات الاحرار المستولدات من الإماء السود ، بل أخذ المحصنات من تحت أزواجهن للخدمة بداره على حال فظيع ، واذا اتاه زوج المرأة شاكيا محتجّا برسم صداقه ، يأمر باش حانبه بتمزيقه قبل قراءته ويطرده .

وكلما مال خاصته الى ستر ذلك ، يميل الى اظهاره ويقول : « إن أقاصي العربان يملكون العبيد ، فمالي لا أملك وأنا سيد الناس ؟ » ، وقوفا مع العوائد السابقة ، ولو مع زوال المقتضي ووجود المانع .

يحب الانفراد بالمجد والاستئثار بنفائس الاشياء ، وإظهار النعمة عليه بظهورها في داره . وبالغ في ذلك الى ان تجاوز حدّ السَّرَف وأثقل ظهر المملكة بشراء ما يشتهيه نسيئةً .

ذا شفقة ورأفة غريزية ، انكسر شقف من الافرنج على شاطىء حمام الانف ، وهو به يومئذ ، فركب جواده في يوم ماطر بارد عاصف الريح ، في أفراد من اتباعه ، حتى وصل الشاطىء وأعان الغرقى ، وحثّ الحاضرين على إنقاذهم وإعانتهم . وهو معهم ، وكساهم وحملهم الى محل أعدّه لهم بما يلزمهم ضرورة من غطاء ووطاء وطعام ، وبعث لهم طبيبَه ، وقابلهم مقابلة الكريم لضيفه المضطر . وأتاه في ذلك نيشان من السلطنة الفرنساوية ، ونواشن لمن أعان على ذلك ، كوزير البحر أبي محمد خير الدين ، وأبي الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، فقد فعلا في ذلك ما يحسن خبره .

حَسَنَ التوكل على الله ، لا يتطير ولا يخشى العدوى بل ولا يحتمي ، وقوّى بذلك قلوب الناس لما وقع مرض الكوليرا في أيامه ، ووقع في داره فلم يكترث بذلك ، ولا حجز أولاده عن مباشرة المرضى ، كما فعل والده زمن الوباء بتونس .

وله من المآثر إتمام القنطرة البديعة على وادي مجردة في طريق بنزرت ، وقد ابتدأها والده وعاقه عن إتمامها الاجل المحتوم .

ومن أسباب النقص في بعض الممالك الاسلامية أن كل من ابتدأ شيئا ومات قبل إتمامه ، يتطير من يأتي بعده باكماله ، ولذلك ترى بعض الجوامع صوامعها غير تامّة ، ولما دالت الدولة له أمر باتمامها ، غير مكترث بهذا الهوس ، ومن المقدور لا يغني الحذر .

ولمّا تمّت ركب لها بنفسه وعَبَر عليها ، وهي من المصالح العامّة المعتبرة [انفسح من بناء جامع بالحاضرة] (1) .

وبنى قنطرة ابي حميدة الضرورية ، ورمّ غيرها من القناطر [التي اشرفت على الخراب] (2) فسهّل بذلك العبور على الاودية .

وقصورَ بستانه في المرسى ، والدارَ التي انشأها بباردو لسكناه (3) ، ولم يُبْنَ مثلُها في المملكة ، وهي الآن مسكن ملك العصر .

وله صدقات سرّية على من يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق ، وقنطرة ابى حميدة هى قنطرة الفحص .

(3) هى متحف باردو الآن .

قريبا الى الامية [جدا] (1) ، تشق عليه الكتابة والقراءة ، لعدم مزاولته الكتب . والعيب في ذلك على أبيه ، حيث أرسله في مراتع الجهل ولم يختر له إنسانا يدلّه على أخلاق الكمال الانساني التي منها حركة الفكر في كل ما يسمع ، ولو تدرب على ذلك ما راجت عنده زيوف المخادعة في جلب ماء زغوان الذي هدم به ما بناه ، اذ ليس من العقل الثقة بالظن ، ومن امات شهوته أحيا مروءته . وربما يعذره من يعلم حاله من المنصفين ، باعتبار الحال في هذا القطر وأهله . وعلى كل حال فهو من البشر ، محلّ الخطإ والنسيان ، والاساءة والاحسان ، والكمال متعذر في غير المعصومين من نوع الانسان ، ويكفيه ما فعله من التخفيف واسباب العمران ، والضرب على ايدي العدوان ، وأعظِمْ بما تزوده لمعاده من منقبة عهد الامان ، الباقي بها ذكره على ممر الاحقاب والازمان ، وان كان ما كان ، فسبحان مَن كل يوم هو في شان .

تقبّل الله سعيه وقابله بما هو اهله من سعة الرحمة والغفران .

(1) الزيادة عن ع و ق .

فهرس الموضوعات

للمجلد الرابع من كتاب

« اتحاف أهل الزمان، بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان »

الموضوع — الصفحة

6) المشير احمد باشا باى

7) المشير محمد باشا باي

عهـد الأمـان

ISBN : 9973-10-189-8 (T.2)

الإنجاز الفني: مخابر الدار العربية للكتاب

4، شارع محيي الدين القليبي ـ المنار 2 ـ تونس

الهاتف: 255 888 - الفاكس: 365 888

طبع بالمطبعة الأساسية المنطقة الصناعية – بن عروس تونس

الهاتف : 380.201 · Tél.

